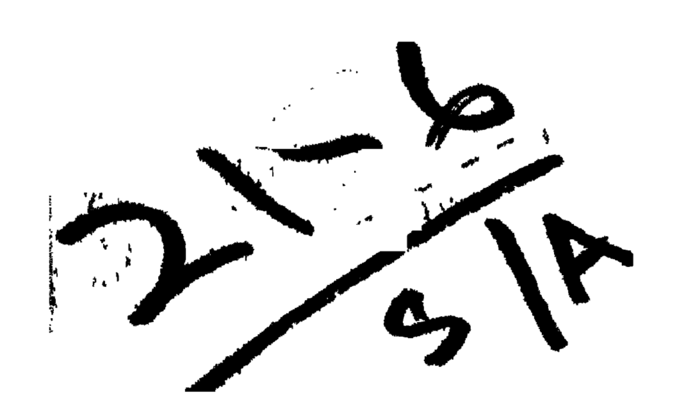
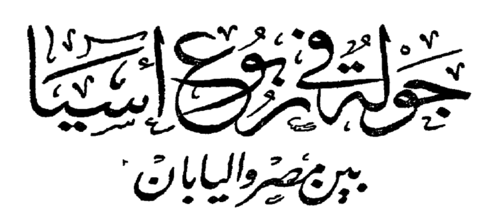
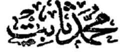






من مشاهدات سائح مصرى



مدرس أول العلوم الاجتماعية بمدرسة القبة الثانوية

الناشر مكتبة النهضة المصرية بمصر

« الطبعة الثانية »

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٤ — ١٩٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هأنذا أقدم للوطن المحبوب ولأبنائه المخلصين أولى جولاتى فى ربوع الشرق بعد أن تقدمتها (جولتى فى ربوع أوروبا) راجياً أن أكون قد أصبت بعض الشىء فى تفهم تلك الشعوب التى تربطنا بها روابط عريقة وثقها العاطفة ، وأنى لأصورها هنا كما رأتها عين مصرية شرقية غير مغرضة ، لا تبتغى من وراء ذلك إلا النفع .

ولقد حاولت جهدى استقراء عناصر نهوضها وقعودها علّنا نستنير بطرائقها الموفقة فنهتدى ، وعسانا نعتبر بما أصابها ، فنأمن العثار الذى يتهدد الأمم فى فجر نهوضها وطور انتقالها ، ونحن أحوج ما نكون للمُثُل العليا نترسم خطاها — ولنا فى اليابان أسوة حسنة فلنسلك نهجها ، ولنا فى الصين وما يحوط نهوضها من قذى وشاك أكبر العبر ، سدد الله خطانا ، وهدى الوطن وأبناءه سبيلا رشداً ؟

مقدمة الطبعة الثانية

لقد كانت رغبتى الأكيدة ، يوم بدأت جولاتى ، فى ربوع الدنيا ، أن أدرس شعوب العالم ، وأتدسس إلى الصميم من حياتهم ، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الأخلاق والعادات ، وقد كنت أصدر عقب كل « جولة » كتاباً يضم مشاهداتى عن البلاد التى زرتها .

وكم كان سرورى عظيماً أن تهافت أبنائى البررة وزملائى الكرام على اقتناء هذه « الجولات » ، حتى نفدت الطبعة الأولى ، وهأنذا أحقق اليوم رجاء الكثيرين ممن لم تسعد « جولاتى » بشرف اقتنائهم لها ، فأقدم الطبعة الثانية ، بعد أن أعملت فيها يد التهذيب ، وأضفت إليها من مذكراتى بعض ما كنت قد أغفلت نشره فى الطبعة الأولى .

وإنى لسعيد إذ أرى « مصر » تسمو بدراسة الجغرافيا إلى العناية بوصف الشعوب وحياة الإنسان ، تلك الناحية التى قصدت إليها جولاتى هذه .

ولقد زادنى غبطة ما لاحظت من أن كثيراً من الإخوان تتجه عنايتهم إلى الرحلات ، حتى لقد تحدث إلىّ فى ذلك غير قليل من حضراتهم ، ولعلهم يحرصون على تدوين مذكرات ينشرونها بعد عودتهم ، حتى نستطيع بجولاتهم وجولاتى أن نزف إلى أبناء هذا الوطن العزيز ، بلغته العربية « كتاب الدنيا » يطالعون فيه أحوال شعوب تقدمت ركب الأمم ، وأخرى تخلفت ، وعسى يكون لنا من هذه أحسن العبر ، ومن تلك أجمل الأثر

الهنـــد

نبذة تاريخية :

قصة الهند سلسلة من غارات شنها أقوام متعاقبون وفدوا من الشمال الغربى وبخاصة عن طريق ممر خيبر وأخضعوا البلاد لسلطانهم .

ويتلخص تاريخ الهند فى عصور ثلاثة : عصر الهندوس بين ٢٠٠٠ ق م و ١٠٠٠ م والعصر الإسلامى بين سنة ١٠٠٠ و ١٧٥٧ ، وعصر سيادة الأوربيين ويبدأ من سنة ١٧٥٧ .



طريقنا إلى الشرق الأقصى يناهز ٨٠٠٠ ميل ذهاباً ومثلها إياباً ، وهنا البلاد التى حللناها فى الهند وبعض اللغات السائدة وضع تحتها خط

العصر الهندوسى :

ولا نعرف مبدأه بالضبط ، وغاية ما نعرف أن كثيراً من الشعوب الآرية لبثوا يهاجرون من بلاد الفرس وأواسط آسيا واحتلوا شمال الهند وأخضعوا السكان الأصليين . ولقد اهتدينا مما ورد فى بعض الأساطير أن هؤلاء كانوا مشتغلين بالزراعة وأن الرباط العائلى كان ميثاقهم الاجتماعى منذ البداءة ولم يكن لهم معابد ولا أنصاب ، وغاية ما هنالك أن رؤساء الدين منهم كانوا يوقدون النار المقدسة كل فى حظيرته ويقدمون القرابين من أغذية وغيرها لنور آلهتهم اعترافاً بنعمائهم ، وكانوا فى صلاتهم يتوسلون أن تنصر الآلهة النبلاء الآريين على ذوى

البشرة السوداء ، ومن ذلك نستنتج أن فوارق الألوان والطبقات نشأت فى الهند منذ القدم .

ولم يتقدم الآريون فى فتحهم إلاّ فى الشمال حتى جبال (Vindhya) ، وقلما تخطوا هذه إلى الدكن حيث كان يقيم جماعة (الدرافيديين) الأشداء الذين كانوا على جانب من الحضارة . أما فى حوض الكنج فقد ترعرعت دول كبيرة قامت على أنقاض القبائل المتفرقة . ولما أن فتح الاسكندر الهند سنة ٣٢٦ ق م وجد أمامه عدداً من الدول والقبائل المستقلة ، وكان للملك الذى قهره أدوات حربية وفيلة وخيل ورجل .

بعد ذلك قامت دولة قوية فى حوض الكنج تحت حكم شـــندرا جوبتا (chandragupta) وسع ملكها ما بين الشاطئين ولبثت سيادتها ١٥٠ سنة ومن عواهلها الامبراطور الزاهد أسوكا (Asoka) الذى قرأنا مراسيمه التى نقشت على الصخور إلى جانب تعاليم جوتاما بودا الذى بدأت تعاليمه الخاقية قبل ذلك بنحو ٢٥٠ سنة ، و بفضل هذا الإمبراطور ساد مذهب بوذا فى الهند وانتشر منها إلى الصين ، و بعد انحلال الإمبراطورية المورية (Mauriyan) أغار السنديون على البنجاب ولبثت ولاياتهم هناك حتى أعقبتهم أسرة تركية عرفوا بملوك الكوشان (Kushan) وهؤلاء فتحوا البلاد إلى بنارس شرقا .

وفى القرنين الرابع والخامس الميلادى ساد قبائل الآريين تحت ملوك جوبتا (Gopta) ، وهذا يعد العصر الذهبى للهندوس ، إذ بعده بدأ يتشتت شملهم بدخول الهون (Huns) سنة ٤٨٠ ، وهؤلاء زالت دولتهم تماماً بعد ٣٠٠ سنة حين ساد الاضطراب فقام بعض قبائل الراجبوت (Rajput) وأقاموا لهم دولاً متفرقة حول غالب المدن الهندية الكبرى على أن التنافس والتنابذ بينهم لم يمكنهم من تكوين جبهة متحدة أمام الفتح الإسلامى الذى بدأ سنة ١٠٠٠ ميلادية .

العصر الاسلامى : لما أن اعتنق سكان وسط آسيا الإسلام قاموا



(شكل ١) مستودع المياه ذائع الصيت فى عدن

بدعايتهم الدينية يقتحمون بلاد العالم بما أوتوا من شدة و بأس ، ولبثت جموع الترك والأفغان والمغول تغير على الهند من ممر خيبر وتقاتل لبسط نفوذها هناك خمسمائة سنة ، وأخيراً أقام بابر (Baber) التركى دولة المغول سنة ١٥٢٦ ، فحكم هؤلاء الملوك الهند حكما مطلقاً لمدة ١٨٠ سنة كانوا خلالها مثال البأس الشديد ، و بلغوا من الترف ما أدهش العالم ، تشهد بذلك مبانيهم الفخمة وحاشيتهم الفاخرة ، وكان عصرهم الذهبى فى عهد شاه جهان (١٦٢٧ — ١٦٥٨) وقد استخدموا الهندوس والراجبوت فى الأعمال المدنية (خصوصاً الزراعة) والعسكرية ، و بدأت دولتهم تنحل لما أن عجز (أورانجزيب) عن رد قبائل الماهراتا من شعوب الدكن الشرسة ، وكاد يعود النفوذ للهندوس حتى باغت الهند جيش فارسى من ممر خيبر وأباد قوى الهندوس .

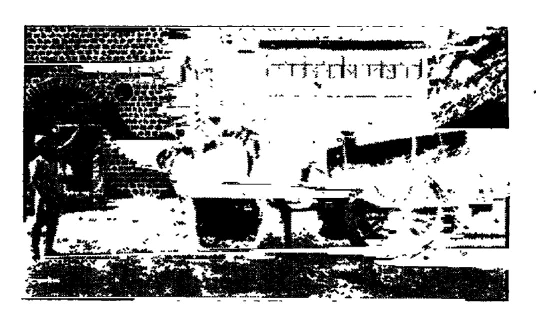
العصر الانجليزى : بينما كان هـذا الاضطراب الداخلى سائداً تقدم الفتح الأوربى من البحر فأسس تجار البرتغال وهولندا وفرنسا وانجلترا لهم محطات تجارية . ثم تأسست شركة الهند الشرقية سـنة ١٦٠٠ لتزيد الموارد التجارية ، وقد مكنت سيادة الأساطيل البريطانية الإنجليز أن يغلبوا منافسيهم ، وكان

الاضطراب الذى حل بالامبراطورية المغولية فى داخل الهند مبرراً لتدخل الإنجليز تحت ستار متاجرهم فهزم نواب بنغاله سنة ١٧٥٦ ونواب أوده سنة ١٧٦٤ و بدأت الشركة تباشر السيادة الساسية إلى جانب التجارية كى تحافظ على المقاطعة الشاسعة (بنغاله) ولكثرة مشاغلها السياسية وحروبها تدخل البرلمان الإنجليزى فى شؤونها ، فحفظ لنفسه حق الإدارة والتشريع ، وكان للشركة تعيين الحاكم العام وفى سنة ١٨١٧ خضعت طوائف المهراتا ، وفى سنة ١٨٤٥ أم السيخ ، وأعقب ذلك عصيان سنة ١٨٥٦ الذى ضمت على أثره الهند للتاج البريطانى .

الى عدن وأرض سرنديب

ما وافت الثالثة من مساء الخيس الرابع من يونيه سنة ١٩٣٢ حتى أقلعت بنا الباخرة اليابانية (سوامارو) تسير الهوينا وهى تشق مياه قناة السويس جنوبا وكانت بين آونة وأخرى تقف متنحية جانباً لتفسح المجال للبواخر التى كانت وافدة من الجنوب خشية أن يحدث مرور السفينتين معاً تفريغاً فى الوسط يدفع بهما إلى التصادم ولم نصل السويس إلا الخامسة صباحاً و بعدها أوغلنا فى خليج السويس ولبثنا بجانب الشاطىء المصرى وكانت ذرى جبال سيناء المقدسة ترى فاترة إلى يسارنا وفى السادسة مساء أتينا على آخر الخليج وأوغلنا فى البحر الأحمر الصميم وكان بدء خليج العقبة يبدو على بعد منا جهة الشرق وكانت أسراب السمك كبير الحجم تقفز من حولنا ولبثت تهاجمنا جموع الجراد فى كثرة مخيفة رغم أنا كنا نبعد عن الصحارى المجاورة بمسافات شاسعة وسرعان ما شعرنا بزيادة محسوسة فى درجة

ملاحظة — نرى أن كل الغارات التى فتحت الهند وفدت عن طريق ممر خيبر أمنع الممار الطبيعية فى الدنيا (إذا استثنينا فتوح البرتغال وهولندا وفرنسا وانجلترا التى جاءت عن طريق البحر) ، نذكر من بينها فتح الاسكندر سنة ٣٢٦ ق م الذى خلف فى الهند أثر الحضارة الاغريقية ، وجنكيز خان ، وإن لم تتعد فتوحه هناك جهة السند وتيمورلنك الذى تقدم إلى دلهى وفى القرن السادس عشر جاء خلفه بابر فأسس دولة المغول التى ظلت إلى أن جاء حكم الانجليز .



(شكل ٢)

الماء العذب ثمين فى عدن المجدبة وهو يوزع بالعرباب ويباع فى الحوانيت

الحرارة فى الهواء والماء وظلت تتزايد باضطراد فى شدة لا تحتمل حتى تضايقت أنفاسنا ولم نستطع النوم ليلتين كاملتين ، وليس فى الهواء من نسمة تنعشنا بعض الشىء بل ظل الهواء طوال أيامنا الأربعة فى البحر الأحمر راكداً خانقاً ، وكانت حرارة الماء أشد من حرارة الهواء خصوصاً عند عودتنا فى سبتمبر ، وتلك بقية من وهج يونيه حفظتها المياه لأنها رديئة التوصيل للحرارة ؛ ولقد استنجدت بنا سفينة أرهق ركابها الحر حتى أشرفوا على الهلاك لافتقارهم إلى جانب من الثلج تسلمنا برقيتها اللاسلكية لكنا لم نستطع معاونتها لحاجتنا نحن إلى ما كان عندنا من جليد ؛ وأذكر أنى ورفاقى كنا نسمى البحر الأحمر على سبيل التفكهة (Bloody Sea) من شدة ما قاسينا من حر قيظه ، وكانت تبدو على بعد ازاء شواطئه جزائر صخرية مجدبة يكاد يحرقها لفح الشمس ؛ وفى مساء اليوم الرابع دخلنا بوغاز باب المندب ومررنا بجزيرة پرم الانجليزية فى وسطه وما كدنا نبرحها داخلين فى خليج عدن حتى تنسم الجو وشعرنا بانتعاش كبير و بعد ذلك بساعات أقبلنا على :

عدن : فرسونا فى تقوس من البحر تحفه الصخور القديمة العاتية من الشيست المهشم فى حمرة قاتمة أو سواد منكر عريت عن النبت فى كل مكان .

استقلينا الزورق الصغير ونزلنا الشاطئ وعلى امتداده تقوم الأنزال والمبانى الرئيسية وفى طرفها الجنوبى المعسكرات والمعاقل التى اختير من أجلها المكان ، فكان مفتاح البحر الأحمر ، وقد أقلتنا سيارة عشرة كيلو مترات إلى الحى الوطنى المترب القذر بعد أن اخترقنا ممرا بين الربى كأنه النفق يعلوه سور قديم يمتد بعيداً ، وكان طريقنا يعلو ويهبط بين ربى ووهاد صحراوية مجدبة ، والحى الوطنى هو عدن الحقيقية فى وهدة أصلها فوهة لبركان خامد بيوتها واطئة ومن طابق واحد ، وتطلى باللون الأبيض ، وفوق المرتفعات رأينا مستودع المياه الذى يمد المدينة كلها وهو بمرشحاته وأحواضه يشغل مساحة كبيرة ، ويطلق عليه القوم (حوض سليمان) ظنا منهم أنه قديم يرجع إلى ذاك العهد ، وبعضهم يرى أنه بنى سنة ألف قبل الميلاد ؛ ولقد أصلح سنة ١٨٥٦ ولما كان المطر هناك نادرا والماء عظيم القيمة حافظ القوم على كل قطرة تسقط منه فيسيل المطر فى وديان وأخاديد جافة تؤدى إلى الحوض ، وأنت ترى سلسلة من أحواض الواحد فوق الآخر بحيث إذا امتلأ أعلاها فاض الماء إلى الثانى ثم الثالث وهكذا ويسع فى مجموعه ثمانية ملايين جالون ، والحوض الأعلى يتصل بمجموعة من آبار فى قرية تبعد عن عدن بسبعة أميال ، وقد لا يفى كل ذلك بحاجة المدينة من الماء فيرشح ماء البحر لسد العجز ، وغالب ماء الشرب من تقطير ماء البحر لأنه أنقى وأبعد عن التلويث وعلى شاطئ البحر مكان الملاحات يرفع ماء البحر بمضخات فيتبخر ويترشح الملح فيستغلونه ويصدرون كثيراً منه ، وكنا نرى على بعد بقايا لسكة حديدية كانت تصل عدن باليمن لكنها هدمت لأن إمام اليمن أبى عليهم بقاءها ، وفى تقوس من البحر ناتئ جهة يسمونها (الشيخ عثمان) غنية بالمزارع ومن خلفها تبدو جبال اليمن قاتمة ، وسكان عدن ٣٥ ألفاً غالبهم من العرب بقاماتهم النحيلة ووجوههم الشاحبة ، ثم الصوماليون بسحنهم الجميلة فى



(شكل ٣) أمام مدخل عدن ويبدو السور القديم فوق الربى المجدبة

سواد براق وأنوف شماء وشفاه رقيقة ثم يليهم الهنود ، ولغة البلد السائدة العربية بتحريف بسيط ويتكلم غالبهم الإنجليزية؛ وعدن حماية بريطانية عليها حاكم يتصل بحكومة الهند ، ونقودها هى نفس النقود الهندية التى لا تزال تتخذ الفضة قاعدة لها .

احتلها الانجليز سنة ١٨٣٧ ولاحتلالها قصة عجيبة : ذلك أن سفينة انجليزية تحطمت على صخور عدن فأساء أهلها معاملة من نجوا منهـا ، فأعقب ذلك أن طابت الحكومة البريطانية شيئاً من الترضية والتعويض من السلطان فأجيبت مطالبها ، لكن السلطان قد مات وخلفه ابنه الذى لم يبر بوعد أبيه ، فلجأ الإنجليز إلى القوة وفتحوها عنوة ووضعوا فيها حامية صغيرة ، وزادت أهميتها بعد فتح سكة حديد السويس سنة ١٨٥٨ ، ولما فتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ أصبحت محطة عسكرية هامة أذ عدت مفتاح البحر الأحمر خصوصاً بعد ما سارعت انجلترا إلى احتلال جزيرة (برم) وسط بوغاز باب المندب ، وكانت فرنسا تتطلع إليها من قبل وأعقب ذلك احتلال الصومال البريطانى قبالتها ، لأنه المورد الرئيسى الذى منه تستمد عدن وبرم الصخريتان المجدبتان حاجتهما من الغذاء .

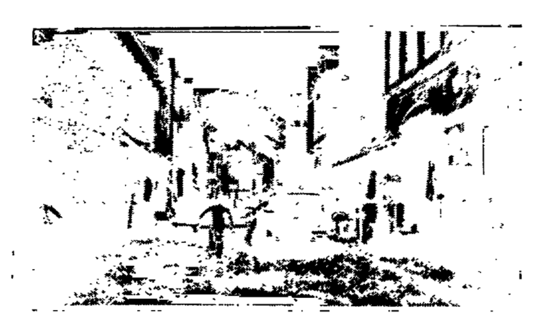
لبثت الباخرة طوال النهار تحمل وسقها من الجلود الخام وأقلعت عند الأصيل

وكلما أوغلت بنا فى المحيط الهندى أرغى ماؤه وعلا موجه كالجبال مما جعلنا نؤمن بعظمة المحيط الذى بدأت تجتاحه الرياح الموسمية دافقة صوب الهند فى عنف كبير ولبثنا فى شدته هذه ثمانية أيام حتى أقبلنا على جزيرة سيلان ، وكنا من يوم ركوبنا نلاحظ سرعة فى اختفاء ضوء الشفق إذ كان الظلام الحالك يرخى سدوله عقب غروب الشمس مباشرة شأن سائر البلاد القريبة من خط الاستواء .

جزيرة سرنديب

وفى باكورة اليوم الثانى عشر من مغادرتنا بور سعيد تجلت كولمبو بمينائها الكبير ، وقصورها السامقة فى أحيائها الافرنجية ، وما أن بدت طلائع الحى الوطنى — وهو غالب المدينة — حتى راعنا منظر الناس البشع فى مظهرهم القــذر ، وجسومهم العارية ، وألوانهم الشاحبــة ، ونظراتهم المخيفة . فهم يترامون حولك كالدويبات لا تدرى من أين يفدون فى جماهير لا حصر لهـا فكأنهم يحشرون إليك حشراً فى فقر مدقع و بؤس مبيد ، يمسكون بتلابيبك ملحفين جميعاً فى طلب معونتك المـادية .

ويزيد منظرهم قبحا أفواههم المفتحة وكأنهم البلهاء يمضغون عشبا أخضر يبـاع فى كل مكان ، و بمجرد ملامسته للعـاب يبـدو وكأنه الدم يلوث أفواههم ولا ينفكون يمضغونه أينما كانوا ، وهم يعتقدون أنه مصلح للأسنان ومسكن للأوجاع ومكسب للمناعة ضد المرض بين أفراد شعب غذاؤه نباتى شحيح وشجره يسمى بيتل (Betel) مقدس لديهم ولذلك فهم يلفون فى ورقه النقود والقرابين التى يقدمونها للآلهة منذ القدم وعند مضغه يضعون داخل الورقة الخضراء فتات بندق إسمه (أريكا) وفتات الجير من أصداف البحر أو المرجان ، وترى حتى النساء والأطفال دائبين على مضغه فى مرأى تعافه الأعين وتشمئز منه النفوس طال تجوالى فى تلك الأحياء وأنا أركب الركشا وهى المطية الرئيسية هناك



(شكل ٤) أحد طرق عدن الرئيسية

أشبه بعربة صغيرة من عجلتين يجرها رجل بائس كنت أشعر بالألم الشديد من أجله وهو يجرى فى ذاك الحر القائظ وكأنه الدابة المجهدة . زرت هناك معبدين أحدهما لبودا أكبر آلهة الجزيرة إذ يدين به غالب السكان وفيه تماثيل بودا فى أحجام كبيرة وتزين الجدران صورة نعرف منها قصة بودا منذ كان شخصاً عادياً فأضحى أميراً ثم صعد إلى السماء فأصبح إلهاً ، وعند دخولنا تقدم إلينا بعض القسس بزهور الفل والياسمين ملأنا منها سلة صغيرة دفعنا ثمنها وحملناها إلى قدمى الاله حيث أخذنا ننثرها كما يفعل القسيس الذى كان يرش بين آونة وأخرى جانباً من ماء الورد يعطر به المكان .

أما المعبد الثانى فهندوسى نظرنا إليه من الخارج أذ لايباح للأنجاس من الغرباء عن الدين أمثالنا أن يطأوا داخله رغم ما كان يلوثه من أقذار ويحوطه فى الخارج من زرافات المتسولين والفقراء والعراة فى أشكالهم القذرة المنفرة

وخير ما نراه فى الأحياء النظيفة من المدينة صخرة لافينيا التى تشرف على البحر بتقوسات جذابة ، يحفها نخيل النرجيل ويتوجها نزل فاخر تناولت فيه

الشاى ذائع الصيت ، و بعد ذلك قصدت إلى حديقة النبات التى نسقت أيما تنسيق تزينها الفصائل الوفيرة لنبات المناطق الحارة .

إلى كاندى : أقلتنا سيارة من كولمبو واخترقت بنا طريقاً طوله ٧٢ ميلاً صوب كاندى العاصمة القديمة للجزيرة ، أما مناظره فساحرة تملك اللب فكانت السيارة تسير فى ليات عجيبة تصعد خلالها ربى شاهقة ثم تهوى وهاداً سحيقة تجرى من تحتها الأنهار ذات المساقط والشلالات الرائعة كل ذلك وسط الادغال الملتفة والغابات الكثيفة التى تجات رهبتها فى سكونها وتعدد فصائلها وتنوع زهورها ، ولذلك لم نعجب أن عدها بعض القوم أجمل طرق الدنيا قاطبة ، و بين آونة وأخرى كنا نلمح على بعد فيلة تمرح فى فجوات الغابة أو تغتسل فى ماء الغدران أو تجر أثقالا وتحمل أعباء تسير بها فى غير اكتراث ، وأسراب الطير الأخضر لا تدخل تحت حصر . وجموع القردة يداعب بعضها البعض و يقترب منها الأطفال فى روحاتهم إلى المدارس بجسومهم الناحلة العارية وعيونهم الغائرة البراقة حتى اتحد أشكال عاينا الأمر فخلناهم بادئ الأمر من جنس واحد ، وأخص ما استرعى نظرنا من النبت الوفير الشاى الذى كان يسود مدرجات الجبال من حولنا وتصف شجيراته فى ترتيب جميل كأنها الأقبية الصغيرة فى ورقها القاتم النحيل وهى تحكى شجيرات القطن الصغيرة ، والفتيات يقطفن أطرافه الغضة ثم يقمن بتشذيب الشجر لموسم القطاف الثانى ثم للثالث ، وعجيب أننا لم نلمس فى ورقه رائحة للشاى قط ذلك لأنه يتطلب عملية شاقة فى إعداده كى يخلو من الرطوبة ثم يطوى باليد ورقة ورقة و يبخر فى درجة حرارة معينة وعندئذ تظهر رائحته ، وكنا نرى مصانعه مبعثرة وسط مزارعه ، وقد دخلت أحدها وعلمت منه أن مجموع المساحة المنزرعة فى الجزيرة كلها تناهز اليوم نصف مليون فدان انجليزى (ايكر) ولقد انتشر أخريات القرن الماضى بعد أن حل محل البن الذى أصابته آفة قضت عليه عند ذاك



(شكل ٥) المرسى الرئيسى فى ثغر كولمبو

وأشهر نبات الوهاد الأرز ذاك الذى سويت له جوانب الوهاد فى مساطب أفقية يعلو بعضها البعض ويكاد يغرقه الماء ، أما غابات النرجيل فحدث عنها تملأ الآفاق بشجرها نحيل القامة فى ميل إلى المنحدرات دائما وأزاء السواحل يميل نحو الماء حتى إذا ماسقط حماته الأمواج بعيداً فان ألقت به على شاطئ نما ونشر بذلك جنسه ، وتحمل الأشجار وسقاً ثقيلا بعضه أصفر اللون صغير الحجم والبعض ضخم عظيم الحجم ، ونرى القوم هناك يستغلونه استغلالا عجيباً فهم يبيعونه أخضر لكى يرتووا بمائه الحلو ، وكان يعرضه القوم فى المحاط مقابل مليم واحد لكل واحدة ، وإذا ما نضج سلخوا عنه قشرته الظاهرة القاسية بطريقة تتطلب جهداً كبيراً ، ومن اللب يتخذ الزبد لدهان الجسد اتقاء الحر وطلباً للبرء من الأمراض وما بقى يضغط فى أقراص تسمى (الكوبرا) أو البسباسة ، ولعظيم فائدته كثر السكان حيث يعم شجره فهو مورد لهم رئيسى ، وقدرت مساحة غاباته فى سيلان بنحو ٨٢٠٫٠٠٠ فدان انجليزى

وكانت تسترعى أنظارنا كثرة أنواع الفاكهة التى نجهل أغلبها من بينها المانجوستين والدوريان والبيوا وكثير غيرها أما الموز فغذاء رئيسى للعامة يعرض فى كل مكان حتى فى حانوت الحلاقين وعند بائعى الأقمشة ويعلق أمام الحوانيت

فى (عراجين) فى أحجام مختلفة قد يبلغ الواحد الأمتار طولا وهو على أنواع عدة ، وكنا نلاحظ القوم يسدون به رمقهم أينما حللنا أما ثمنه فرخيص جداً إذ كنا نبتاع العرجون بنحو قرشين .

وقد بدا لنا فى الناحية الجنوبية من الطريق جبل آدم بذروته الشاهقة وعليها طابع شبيه بالقدم طوله زهاء متر ونصف وعرضه نحو ثلثى متر يظنه البوديون طابع قدم بودا والهندوس سيفا والمسلمون آدم حين طرد من الجنة ، ويحج إليه الكثير ويتسلقون المنحدرات الوعرة ممسكين بسلاسل عتيقة وإذا ماوصلوا هنالك دخلوا المعبد وقدموا قرابينهم ونثروا زهورهم ثم يركع الأطفال ليباركهم آباؤهم وجباههم تلامس طابع تلك القدم المقدسة

وقبيل الوصول إلى كاندى دخلنا حديقة النبات وتعد من خير حدائق الدنيا حوت كل فصائل نبات سيلان وفيها بدأت زراعة الكينا والكاكاو والمطاط وبها من حقول التجارب والمشاتل شىء كثير أخص بالذكر منها مجموعة التوابل من بينها جوز الطيب والفلفل والقرفة والوانلا والزنجبيل وأخيراً دخلنا المدينة التى كانت يوماً ما مقر ملوك السنهاليين وهى تقع فى وهدة ارتفاعها ١٦٠٠ قدم تحوطها الربى التى تكسوها الأدغال والغابات وتتوسطها بحيرة ممطوطة نسقت شواطئها أيما تنسيق وفى قلبها جزيرة صغيرة يزينها نخيل النرجيل الأنيق ويشرف عليها نزل جلسنا فيه وتناولنا الشاى العبق اللذيذ .

ولعل أشهر مافى المدينة معبد (سن بودا المقدسة) وهو ممدود الأجنحة متشعب المقاصير ، ويعتقد القوم أن بودا دفن فبلى جسمه ولم تبق إلا سن واحدة أقيم حولها المعبد فى القرن الرابع عشر وأحرقه البرتغال سنة ١٥٦٠ فأبدلها ملك كاندى بقطعة من عاج طولها ثلاث بوصات توضع فى صندوق من ذهب ، وعليها يقوم تمثال كبير من ذهب خالص لبودا ، فراعنا منظر الحجاج وهم ركع وسجود تدر الدموع من مآقيهم وتلمس أيديهم أقدام الإله ، وقد كدست حولها وريقات

الياسمين فى رائحـة جميلة ، وبعد أن ابتاع كل منا سلة الياسمين تسلمها قسيس فنثرها عند تمثال الإله ، ومما زاد المكان رهبة الطبول المزعجة التى كان يقرعها القوم فى ردهة المكان ، ودخلنا مكتبة المعبد التى حوت جميع تعاليم بودا يكتب غالبها على شرائح بيضـاء من لفائف نباتية ناعمة الملمس كأنها ورق البردى يلف غالبها بالحرير تحوطه أسلاك الذهب



(شكل ٦) فى الطريق الساحر بين كولمبو وكاندى

وقضبان الفضـة ، ويقال إن المعبد أجل معابد بودا وأكبرها على الإطلاق ، وفى أغسطس تقام حفلة بيراهيرا حيث تحمل السن المقدسة على هودج من حرير مرصع تغطيه قبـة من ذهب فوق ظهر فيل يبـالغون فى تزيينه يتبعه قطار من ٦٢ فيلا أخرى ، وتفرش له الأقمشة لـكيلا يدنس وحل الطريق طهارة ما يحمله والديانة البوذية هى السائدة هناك .

الى الهند : قمت من محطة كولمبو صوب شمال الجزيرة ولبث القطار زهاء ١٢ ساعة يسير فى أراض جبلية كثيرة النبت ، ولما أن قاربنا الطرف الشمالى للجزيرة انفسحت سهول جافة رملية ، وكنا نرى أحواضاً كبيرة يدخر فيها القوم الماء فيرتوى منه أهل القرى طوال العام ، ويبلغ عددها اليوم ٥٢٠٠ تقوم بإصلاحها مصلحة الأشغال ، وكثير منها يرجع إلى العصور القديمة تحت شعوب (السنهاليين)

جنوباً (والتاميل) شمالاً ، وهما الشعبان السائدان فى الجزيرة ، ولكل لغته الخاصة ؛ وفى البلاد أقلية من العرب المسلمين بيدهم غالب التجارة ، فهم أشبه باليونانيين عندنا فى نشاطهم ، وأخيراً بدا البحر وعبر القطار قنطرة طويلة إلى جزيرة (مانار) ، وهناك غادرنا القطار وحلنا السابحة التى سارت فى بحر غابت عنا سواحله ساعتين وكنا بجانب جسر آدم وهو مكان ضحل من البحر ترغى عنده الأمواج وكأنه الجسر ، وهنا أقبل رجال الجمارك وفتشوا حقائبنا ، ودهشت لما علمت أن سيلان ليست تابعة لحكومة الهند بل لوزارة المستعمرات مباشرة ، فلها حكومتها وجماركها وقوانينها الخاصة بها .

ولقد هالنى وأنا فى السفينة تعدد السحن والألوان والأزياء ، وقد عددت من الأزياء نحو الثلاثين ، فالبعض يلف نصفه الأسفل بملاءة ملونة ، والبعض يشحذها من تحت الفخذين ، والبعض يرتدى سراويل ، وآخرون عرايا يسترون العورات فحسب وهكذا .

وقد راقنى منظر غنى خلته سيدة بادئ ذى بدء لأنه كان يتدثر بملاءة بيضاء فضفاضة ويتزين بالخواتم الثقيلة فى جميع الأصابع وفى يديه السوار العريض وفى آذانه قرط لامع وفى رقبته عقد خاطف ، وكان يتهادى فى مشيته وكأنه الحسناء ، ويحاول الجميع التزين ما استطاعوا رجالا ونساء وتزيد زينة النساء بلبس الخواتم فى أصابع القدم كلها وبوضع قطعة من فضة فى جانب الشفة وأخرى فى جانب الأنف ، ولقد رأيت احدى السيدات الغنيات تسير عارية القدم ومن حولها الخدم حتى ركبت عربتها الخاصة . ولقد تعبت جداً فى البحث عن مساح للأحذية فلم أجد رغم كثرة أبناء السبيل والعاطلين ، والنساء سافرات وليس فى وجوههن مسحة من جمال ، وتتنوع أزياؤهن لكن غالبهن يتركن الجزء الأعلى من الجسم عاريا ، أما الأقدام فعارية على الدوام .



(شكل ٧) العربة تمرح خلال الغابات الكثيفة بين كولومبو وكاندى

الهند

الى مدراس : وصلنا أرض الهند وانتقلنا إلى قطار آخر سار بنا فى سهول رملية كأنها الصحراء غالبها مهمل عار عن النبت وكلما قاربنا مدراس زاد الخصب نوعا ، وبعد ٢٤ ساعة دخلنا مدراس فبدت مدينة مقبضة ليس بها مايروق السائح فغالب أحيائها قذر منفر ، أما أحياؤها الافرنجية فلا بأس بها ، ومن بين مبانيها الفاخرة القلعة التى تشرف على البحر بشواطئه الرملية التى لا تصلح لإيواء السفن لذلك لم يكن لمينائها شأن كبير فى التجارة ؛ وعلى امتداد طريق البحر قسم اسمه (مارينا) مستحدث التنسيق يقوم فيه كثير من تماثيل عظماء الانجليز وأجل أبنيته قصر نواب مدراس الذى احتله الانجليز وهو فى هندسته خليط من المغولية والعربية وبجانبه مسجد صغير أنيق ، والقصر اليوم خاص باجتماع مجلس السناتو .

ومن الأبنية الجديرة بالذكر قصر الحاكم الانجليزى ودار القضاء والبريد والبلدية وكلها بالآجر الأحمر ، ولقد كدت أختنق فى هـذه المدينة من شدة الحر وكثرة الرطوبة فقد بلغت الحرارة ١١٥ ف ، وأذكر أننى دخلت أكبر متنزهاتها

فلم أستطع التجول خطوة واحدة بل ركبت الركشا التي طافت بي كل أرجاء المتنزه ، وفي جانب منه حديقة للحيوان حقيرة جداً لا يسترعي النظر بها إلا مجموعة الأفاعي ، وفي المدينة متحف صغير به بعض المخلفات الهندوسية القديمة أعجبها في نظري (عامود الضحايا البشرية) وكان السحرة يحكمون بتضحية فرد يوثق إلى هـذا العامود الذي يدور حول نفسه فيهجم عليـه الجمع و يقطعون من جسمه أشـلاء يدفنونها في حقولهم التي أصابها المحل ، وقد حرم القانون ذلك اليوم واستبدل بالضحايا البشرية بعض الحيوان على أنهم كثيراً ما يضحون بالإنسان خاسة

ولقد استرعى نظري كثرة العلامات التي يخطها القوم على جباههم تمييزاً لشيعهم ومذاهبهم الدينية المختلفة والعادة أن ترسم هـذه بنوع من الرماد المقدس يحمله الناس معهم فترى التخطيط أفقياً أو رأسياً ومزدوجاً أو مضاعفاً وقد تتخلله نقط حمراء ممـا يزيد في أشكالهم قبحاً .

والمغالي في تدينه يلطخ وجهه وصدره وذراعيه فتصور مبلغ فظاعته إذا ما أقبل عليك وحدق فيك بعيونه الغائرة وجسمه الناحل الهزيل ولونه الأسود البراق ، على أنني لم أعجب عند ما علمت أن مقاطعة مدراس معقل الدين البرهمي فسكانها ٤١ مليوناً يدين غالبهم بتلك العقيدة وعدد القسس من البراهما في هذه المقاطعة وحدها مليون ونصف يعيشون عالة على غيرهم يتقاضون ضرائب من الناس جميعاً في مناسبات شتى من بينها : ميلاد الطفل مخافة ألا يطول عمره وعند ما تكون سنه ١٦ يوماً حين يغتسل بالماء المقدس وعند تسميته وعند حلق شعره وفي تمام الشهر الثالث وعند بدء تناوله للطعام في الشهر السادس ، وعند ما يبدأ المشي ، وعند تمام السنة ، وفي نهـاية السابعة حين يبـدأ تعليمه ، وهنا يكتب له البراهما بالذهب على عضوين يمسك بهما في يديه ثم يأخذهما فيما بعـد لنفسه ، وعند عقد الزواج وهنا تدفع له مبالغ طائلة ، وعند بلوغ سن الرشد ، وعند حدوث خسوف أو كسوف ، وعند الموت حين يحضر ليبارك الجثة ، وعند حرق الجثة ،



(شكل ٨) شجرة الترجيل تحمل وسقا سيلا

وبعد ذلك يولم ابن المتوفى للبرهما وليمة كل شهر لمدة عام وتقدم الهدايا والملابس إلى جانب الطعام ، بعد ذلك يكرر هذا مرة كل سنة حتى يموت الابن . كل تلك حقوق للبرهما واجبة الأداء وإلا خسر الجنة ، هكذا كانت قصة هندى متعلم ، وكان يرويها وهو فخور بدينه .

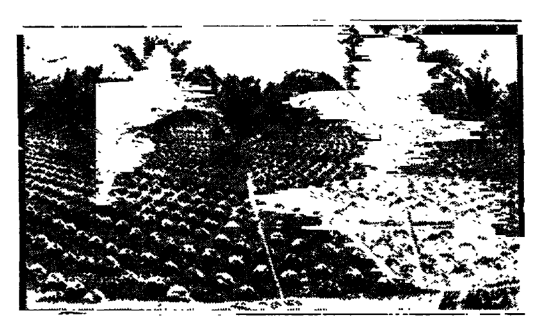
نظام الزواج ومما أثار اهتمامى الزوجات الصغيرات اللاتى كن يحملن أطفالاً نحالاً لا يزيد وزن الواحد على أربعة أرطال أو خمسة ، وكنت أخالهن يحملن أخوتهن لا أبناءهن ، لكنى دهشت لما علمت أن زواج البنت يبدأ من سن الثامنة ، فإن تأخرت إلى الثانية عشرة عد بقاؤها عاراً لا يمحى ، ودل على وجود عيب فيها ، ولذلك لم يكن عجيباً ما يبدو من جسمها الضئيل و بنيتها الضعيفة لصغر سنها ولأنها من سلالة ضعيفة مثلها ، أما الزوج فقد يكون طفلاً مثلها ، وقد يكون كهلا أنهكت السنون قواه ، وفى الحالين هو غير صالح إلا لإنتاج نسل بائس ضعيف وهمّ الزوجين أن يخلفوا من الأبناء ما استطاعوا و بخاصة الذكور ، فإن الأم لا تجد لها حديثاً أمام أطفالها إلا ما يتعلق بالزواج فتنشط بذلك الميول الجنسية بين الأطفال وتفسد أخلاقهم عاجلا وهذا يخلف أثره السيء فى قوى النشء العقلية والجسمية . والزواج المبكر عند الهندوس واجب لأن فيه عصمة من الأمراض

وتعجيلا بالخلف من الذكور ذاك الذى يعده الآباء شرف العائلة ، وقد نسى القوم الأثر السيء لذلك فى إضعاف الذرية وانهاك القوى الحيوية ، ولذلك ليس بعجيب أن ترى الهندى فاقداً لتلك القوى عند بلوغه الثلاثين كما أثبت الإحصاء الطبى ذلك ولهذا لجأ الكل إلى تناول سموم المخدرات (خصوصاً الحشيش والأفيون) والمقويات التى يعلن عنها فى جميع جرائدهم بشكل فاضح مخجل حتى أن الحكومة كثيراً ما تصادر بعض الجرائد لجرأتها على هذا النوع من الاعلان ، وكثيراً ما كنت أرى من المدمنين على تناول الأفيون والحشيش يركنون إلى الجدران فى كل مكان بشكل قذر خامل وكأنهم الذباب .

وكثير من النساء هناك عقيمات وقد أيد البحث أن ذلك راجع إلى ضعف قوى الرجال من جهة و إلى تشويه الرحم من أثر الزواج المبكر من جهة أخرى ، وكثيراً ما يلجأ الرجال إلى المعابد فيرسلون إليها زوجاتهم بالقرابين كى يمن الله عليهن بالحمل ، وفى العادة تظل المرأة هناك أياماً فينوب القسيس عن الآلهة ليلا فيبارك المرأة وتعود وهى حامل ، ولعل أسوأ نتائج هذا الزواج المبكر تقصير العمر خصوصاً بين النساء وكثرة الموتى من الأطفال فمتوسط العمر فى بلاد الهند ٢٣ سنة ويموت من الزوجات فى كل جيل ٣½ مليوناً تسعون فى المائة منهن بسبب التهاب الرحم .

ومن العادات العجيبة أن الآباء قد يهبون المولود القادم للآلهة ابتغاء مرضاتها فإذا كانت أنثى سلمت لنساء المعبد و إذا شبت علمت الغناء والرقص و إذا ناهزت الثامنة أضحت خليلة أحد القسس و إذا ماها أضحت راقصة المعبد وفى مواسم الحج يستأجرها بعض الحجاج فإذا ماذبلت محاسنها يمنحها المعبد جعلاً صغيراً وتترك المعبد ولا يرى أهلها فى كل ذلك معرة لأنها اكتسبت اسم (عاهرة الآله Devadassis) وهؤلاء من مستلزمات المعابد كلها .

ويوصى الدين البرهمى بأن الزوج إله الزوجة فى الأرض خلقت لسروره وخضعت له مهما فسد جسمه أو خلقه أو عقله ولا بد أن تطيع حماتها ويا ويلها



(شكل ٩) النرجيل يزرع فى الأرض صفوفا منظمة

إن لم تعقب طفلا أو عقبت أنثى فالها أن تستعبدها عندئذ ، لذلك كان عدد المنتحرات بين سن ١٤ و ١٩ مروعاً ، وإذا مات زوجها حتم الدين أن تحرق جثتها معه (Suttee) وإلا كانت موضع اللعنات ولم يبح لها شيء من السرور ولا تتزوج ثانية ، بل تحلق رأسها وتقصد أحد المعابد لتظل فيه أيامها الباقية ، ويجب ألا تظهر كثيراً أمام الناس لكيلا يؤثر فيهم نحس طالعها ، وفى إحصاء سنة ١٩٢٥ بلغ عدد الأرامل فى الهند ٢٦،٨٤٣،٨٣٨ .

وبمجرد شعور الحامل بألم الوضع تنبذ فى غرفة ضيقة مظلمة ، ولا يقترب أحد منها قط لأنها أصبحت نجسة ، وفى الحال تأتى المولدة (داية) وهى من الطبقات النجسة البائسة ، فترتدى أقذر اسمالها ، وتسد المنافذ ، وتحرق الحطب لأن الدخان والحرارة تساعد على سرعة الوضع ، وإذا دخل الحجرة غريب أحرقت بخوراً منتن الرائحة لمنع أثر العين الخبيثة ، وتباشر عمليتها بأيديها القذرة وتحاول إخراج المولود بالقوة ، فتشبع بطن الأم لكما بالأيدى والرأس ، وقد تطرحها أرضاً وتمشى على بطنها وتضع فى الرحم كرات من مواد حريفة ، وقطعاً

من شعر الماعز وأذناب العقارب وجلود الأفاعى وما إليها ، و إذا تم الوضع لا تجرؤ المولدة أن تقطع الحبل السرى لأنه من عمل امرأة أخرى أحط درجة من المولدة ، فتنتظرها حتى تجىء . أما الطعام فيمنع بتاتاً عن الأم بين أربعة أيام وسبعة ، و يظهر أن السبب الأصلى ألا تصاب أوانى المنزل برجس .

وكثيراً ما تتعسر الولادة بسبب ضيق عظام الرحم نتيجة الزواج المبكر فتموت الأم ، فإذا رجحت المولدة موتها عجلت بتكحيل عيونها بمسحوق الفلفل لكى تعمى الروح فلا تستطيع الخروج والمكث فى الدار ، وقد تمد ذراعيها وتدق مسماراً يثبتهما فى الأرض لكيلا تستطيع الروح التجول فى المنزل ومضايقة الأحياء !

الى كلكتا : قمت من مدراس — تلك البلدة التى أحمل لها أسوأ الذكريات — صوب كلكتا ، فاخترق القطار قنطرة على نهر جودفرى طولها زهاء خمسة كيلو مترات تحتها نهر لا يكاد يجرى له ماء إلا فى نقائع بينها جزائر رملية ، وكان وقتئذ فى زمن غيضه ، و يظهر أن النهر هو الحد الفاصل بين جنوب الهند وشمالها ، لأنى لاحظت تغيراً فى كل شىء : فى سحن الناس التى بدأت تتحسن قليلاً ، وفى أزيائهم التى بدأت أتلمس فى ألوانها بعض الذوق ، وفى المناظر التى بدأت تزداد ثروة وخصباً ، وفى النشاط النسبى الذى بدا على القوم فى حقولهم إذ كنت أراهم يعدونها لاستقبال الأمطار الموسمية ، وكان أكثر النشاط من جانب النساء . أما غالب الرجال فكنت أراهم مستلقين على الأرض نياماً و يتجلى كسلهم فى عدم اهتمامهم باستغلال أرضهم إلا مرة واحدة عقب المطر .

أما نظم الرى بقنواتها ومساقيها فلا تكاد توجد رغم ما نعرفه من الخصب الشديد فى التربة الهندية . أخذت المسايل المائية والجداول العديدة تزداد كثرة كلما تقدمنا شمالاً إلى ذلك تعدد القرى التى لم نر منها فى الجنوب إلا القليل ، ثم دخلنا مقاطعة بنغالة — أهم المقاطعات وأزحمها سكاناً إذ بلغ أهلوها ٤٧ مليوناً ، وهنا زادت الأدغال والأحراش فى كل مكان وتوافر النبت وكثرت الغدران



(سكل ١٠)
عرجون من الموز تكاد يفوق شجرته طولا

والنقائع كثيرة تلفت النظر ، على أنا لم نعجب إذ كنا نتقدم إلى دلتا الكنج العظيمة .

أما القرى الكثيرة التى يزيد عددها فى الهند البريطانية على نصف مايون فكانت تبدو بيوتها مقامة من طابق واحد بنى بالطين الذى يستمده القوم من حفرة يملؤها المطر فتصبح مستمدهم من الماء ومستحمهم ومسقاهم وماشيتهم ، وتحيط بها البيوت القايلة ، والبيت يبدو فى شكل مستدير حقير يعلوه سقف مخروطى تكسوه الأخصاص من مختلف النبت خصوصاً سعف نخيل (بالميرا) وتهوية البيوت فاسدة يقطنها عدد كبير ويزيد الجو وخماً ووباء ما يتربى على البرك من البعوض الذى يحمل مختلف الأمراض ، وقد كنت أوحس خيفة طوال تجوالى فى مدراس وبنغالة كلما ذكرت أن هذا الجزء وبخاصة بنغالة السفلى أكبر مربى للأمراض الخطيرة كالملاريا والكوليرا والطاعون تلك التى يموت بسببها عدد مخيف بين سنة وأخرى . أذكر أن من مات هناك بالطاعون منذ سنة ١٨٩٦ أحد عشر مليوناً ، ويساعد على انتشاره هناك تحريم الدين البراهمى قتل الفيران التى تحمل البراغيث المعدية ، ويموت بالملاريا سنويا مليون . كذلك مرض الدودة

الخطافية (كالانكلستوما هنا) المتفشى بسبب سيرهم حفاة الأقدام حسبما تقضى التعاليم البراهمية ، وقد دل الاحصاء أن ٨٠٪ من سكان مديرية مدراس و ٦٠٪ من بنغالة مصابون به أعنى نحو ٤٥ مليوناً من الناس والديدان تحل الأمعاء وتمتص الغذاء والدم فيضعف انتاج الشخص كثيراً حتى قدرت الخسائر المالية بسبب عجز هؤلاء عن العمل بنحو ٤٠٠ مليون جنيه .

فالهند فى نظر العالم أكبر خطر لنشر تلك الأمراض ، و برى الأطباء أن أهلها قد اكتسبوا شبه مناعة لطول مكثهم فى ذاك الجو الوبىء لكنهم جميعاً حملة الأمراض للغير وهنا الطامة الكبرى . أما من يموت من الهنود فى كل عام فسبعة ملايين أى نقدر نصف سكان القطر المصرى ، وعدد الموتى من الهندوس أكثر منهم فى المذاهب الأخرى مما يثبت قلة مقاومتهم للمرض ، وهذا لاشك ناشئ من افتقارهم للتغذية لأنهم نباتيون ويحرمون أكل اللحوم . ومما زاد خطر الأمراض وفتكها هناك تشككهم فى الدواء الأوربى ، مخافة احتوائه على مستخرجات اللحوم المحرمة ، وهم يعتقدون أن المرض أثر من آثار الجن التى يجب طردها بالبخور وتقديم القرابين .

روى لى شاب هندى متعلم قصة إخراج العفريت من جسم الطفل المريض فقال إن القوم يلجأون إلى قرد يعلق موثوقاً إلى فرع شجرة وينزلون عليه ضرباً وتعذيباً فيجن القرد ويصيح صيحات مزعجة وعندئذ يحمل الطفل قريباً منه كى تذعر عفاريت المرض التى فى جوفه وتولى الأدبار ، إلى ذلك خطر روث البقر الذى تضمد به الجراح فى كثير من الجهات .

كلكتا ۔ دخلنا كلكتا بعد سفر ٣٨ ساعة متواصلة ، واسم المدينة مشتق من كلمتين كالى (اسم الآلهة روج سيفا) وغات (مرسى أو مدرج) وقيل أنه مشتق من (خُلحوتا) ومعناه مكان الجماجم ، فهى مقر الحميات وبخاصة الملاريا ، لكثرة المناقع حولها ولفساد الحالة الصحية فى مساكنها التى ضاقت بأهلها بحيث

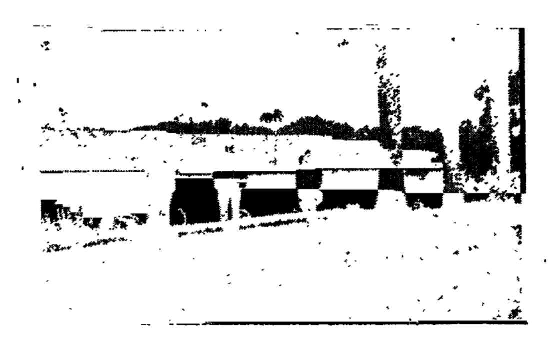


(شكل ١١) فوق قه ادم كعبة الحجاج من المسلمين والبوذيين والهندوس

يقطن الغرفة الواحدة المختنقة فى المتوسط شخصان . على أنها رغم ذلك تعد العاصمة الاقتصادية لبلاد الهند ، فهى ثانية مدن الامبراطورية البريطانية سكانها فوق مليون وربع ، وهى عاصمة بنغالة أغنى المقاطعات (خصوصاً بالبوت والأرز) وأكثفها سكاناً فهم يبلغون ٤٧½ مليوناً (أعنى ثلاث مرات ونصف قدر مجموع القطر المصرى) نصفهم من الهندوس والنصف من المسلمين ولا نكاد نفرق المرء فى الشكل بين الجميع ، ويزيد تجانسهم أنهم جميعاً يتكلمون اللغة الهندستانيه ، التى يخالها البعض اللغة القومية للهند . لأنها أكثر اللغات ذيوعاً إذ يتكلمها خمسون مليوناً .

حللت المدينة فراعنى سيل الناس الدافق فى كل الأرجاء . ولقد كان القوم يفترشون أرض محطة السكة الحديدية على اتساعها العظيم الذى يقرب من اتساع ميدان محطة مصر ، فلم أشق طريقى بينهم إلا بجهد كبير ، والقذارة تبدو فى كل مكان ، والروائح المنتنة تتصاعد بدرجة منفرة ، وقد عبرت قنطرة (هوارة) على

الهوجلى وهى فى عرض قناطر النيل عندنا ، على أنها أقيمت من الخشب ترفعه عوامات تطفو فوق المـاء بدل القوائم الحجرية عندنا لذلك كانت كل جوانب القنطرة فى حركة مستمرة حسب مد المـاء وجزره وقد وقفت هنا برهة فكاد يكتسحنى سيل المارة الذى لم أدر مصدره ، فقصدت من فورى جانب المدينة الممتاز المسمى (الميدان) وهو متسع عظيم ذرعه ميلان فى ميلين تطل عليه المبانى الفاخرة وتتوسطه المتنزهات المتسعة المترامية تقوم فى أرجائها تماثيل سامقة لعظماء الانجليز ، وأجدر المبانى بالذكر دار الحاكم العام التى تبـدو فى جلال وعظمة يقابلها من الجانب الآخر أثر فكتوريا أقيم من الرخام الأبيض فى عظمة تبهر النظر من عمد وأبهاء و بوائك ودهاليز وتعلو فناءه الرئيسى قبة كبرى ، وهنا ترى تماثيل عظماء الانجليز الذين اشتركوا فى فتح الهند وفى طليعتهم (كليف) وأمامه المدافع التى غنمها من الفرنسيين وغيرهم فى واقعة (پلاسى) ، وترى بعض الصور الزيتيـة الكبرى لملوك انجلترا إلى ذلك ترى بعض ملابس الملكة فكتوريا ومكاتبها ومخلفاتها الذهبية وكذلك جميع الوثائق الرسمية التى تبودلت بين الحكومة الانجليزية وأمراء الهند منذ فتح البلاد إلى اليوم ، وفى خارج البناء حديقة نسقت أيما تنسيق يزينها تمثال فكتوريا ، ولقد أقيم هذا الأثر تذكاراً لتولى فكتوريا أول امبراطورة للهند واشترك فى إقامته كبراء الانجليز والهنود وبلغت أكلافه خمسة ملايين من الجنيهات وقد وضع حجره الأساسى جورج الخامس سنة ١٩٠٦ وتم سنة ١٩٢١ ، وفى جانب من الميدان القلعة وتسمى فورت وليم على اسم وليم الثالث ، وتقوم دار البريد الفاخرة اليوم فى مكانها القديم بعـد أن نقلها (كليف) إلى مقرها الحالى وهو أكثر منعة وقوة ، و إلى جانب دار البريد يقوم نصب أبيض دقيق فى مكان الجحر الأسود ، وقد كتب عليه اللورد كرزون أسماء بعض من ماتوا فيه إحياء لذكرهم ، وقد كان هـذا الجحر سجناً من سجون سراج الدولة نواب بنغاله زج فيه ١٤٦ جندياً يوم ٢ يونية سنة ١٧٥٦ ، فاختنقوا فى ليلة واحدة ولم يبق منهم فى



(شكل ١٢) على ضفاف بحيرة كاندى المنسقة

الصباح سوى ٢٢ ، وذلك لضيقه (١٤ × ٢٢ قدماً) وقلة نوافذه ، فأهاج ذلك غضب الشعب الإنجليزى وهب ينتقم لهؤلاء ، وكان هذا الحادث خير حافز للانجليز أن يبسطوا نفوذهم هناك .

وفى ركن من الميدان حديقة (Eden) على اسم سيدة كانت تملكها ثم أهدتها للحكومة ، وهى آية فى الإبداع تشقها مسايل الماء وتتخللها النقائع والمقاصير التى يبدو بعضها فى هندسة (الباجودا) الصينية ، وعلى مقربة منها حديقة النبات وبخاصة فصيلة النخيل . ولعل أشهر ما بها شجرة (banyan) أكبر أشجار الدنيا عمرها ١٥٥ سنة ، ومحيط جذعها الرئيسى ٤٤ قدماً ، ولها فوق ٦٠٠ جذر هوائى تشغل حيزاً ذرع محيطه ١٠٠٠ قدم ، ومنها أخذت جميع حدائق الدنيا الشىء الكثير ، وفيها جرب الشاى ثم نقل إلى الهملايا وأسام .

ومن الأبنية الفاخرة دار الجامعة التى يبلغ عدد طلابها ٢٦ ألفاً ، وهذا العدد يفوق جميع طلاب جامعات انجلترا مجتمعة ، وقد اتخذت جامعة لندن نموذجاً لها على أنها كانت معطلة عند ذاك ، وقد قابلت أستاذين من أساتذتها الإنجليز

وتحادثنا بشأنها طويلا . وعلمت منهما أن موسم الدراسة لا يعين بدؤه إلا عند بدء نزول الأمطار ، تلك التى يخفف نزولها من هجير الحر . ولقد تأخر افتتاحها هذا العام لتخلف المطر نحو أسبوعين عن ميعاده المعتاد .

قمت بجولة فى الأحياء الوطنية المترامية ، فكنت أشق طريق فى جو وخم ووسط منفر قذر تترامى الأكاديس الآدمية بجانب الجدران وهم عرايا وفى بؤس مبيد ، يبصقون فى كل مكان ، ويبولون على جوانب الطرق حيث أقيمت المجارى لتصرف ماء المطر عنهم ، وأخيراً أدى بى التجوال إلى معبد قال : وهى زوج سيفا آله التدمير وسفك الدماء ، وفى أقاصيصهم أنها قطعت أربا بأمر الآلهة ، فسقط أصبع لها فى هذا المكان ، وفى قرار المعبد الذى لا يدخله إلا أتقياء الهندوس تقوم الآلهة فى تمثال يزين جيده عقد من جماجم بشرية وبيدها رأس آدمية دامية ، وفى الأخرى سيف وهى تطأ أجساداً آدمية ، ولها لسان أحمر بارز ، وتطاق من أيد وألسن بشرية . بدا لنا ونحن نطل من خارج المعبد ، وقد علمنا أن لتلك الآلهة معابد عدة فى أرجاء الهند ، لها أوقافها الغنية ويحج إليها جماهير الهندوس يسجدون ووجوههم إلى الأرض تحت أقدامها ، والقسس يرتلون أقاصيص عن (قالى) وكانت تقدم الذبائح لها من أجساد بشرية لكنها أبدلت اليوم بالجديان ، أذكر موقفى أمام المعبد وقد أمسك القسيس بالجدى وطرحه أرضاً ، وسرعان ما تقدم رفيقه ففصل رأس الحيوان بسيفه بضربة واحدة سال على أثرها الدم تحت أقدام الآلهة ، وصاح القسس منادين (قالى قالى قالى) مرات عدة ، وهنا أسرع بعض النسوة إلى الأرض يلعقن الدم كى يمن الله عليهن بمولود ، والبعض أخذ يبلل منه خرقاً يضمها إلى صدره العارى ، وعلمنا أن عدد الذبائح تتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ فى اليوم .

وفى مقاصير المعابد وأزقتها يصطف جماهير الأولياء فى أشكال قذرة منفرة ، بجسوم ممتلئة عارية ، ولحى ورؤوس كثة يعاف المرء النظر إليها ، وكلهم من



(شكل ١٣) معبد (السن المقدسه) وترى الفيل المقدس يحمل السن تغطيها مظلة من ذهب

المتسولين ، وفى ناحية أخرى من المعبد محرق الجثث وهو بسيط من الأرض تتوسطه وهـدة مستطيلة فى شكل الجسم . ويبطن أسفلها بالخشب ، وكنا نرى إلى جانبه جثة سـيدة لا بأس بملامحها ، وقد خضبت قدماها ويداها وجبهتها بالحناء ، ودثرت رداء أحمر ، وعلمنا أن هذا دليل على سعد طالعها لأنها ماتت قبل زوجها ولم تصبح أرملة بائسة ، وكان يحوطها جمع من أقربائها و بعض النائحات المأجورات وجمهرة من المتسولين ، وسرعان ما حملت الجثة ووضعت على الحطب وكدس فوقها حطام الخشب ، وهنا تقـدم أقرب الناس إليها وكان ابنها ، وأمسك بشعلة وطاف حولها سبع مرات ثم ألقى الشعلة على كومة الحطب فالتهمت كل شيء ما خلا جزءا من عظمة القص ، وتلك التقطها بعض القسس ووضعها فى كرة من طين إلى جانب قطعة من ذهب يقدمها أهل الفقيدة ، وألقاها القسيس فى النهر أسفل المكان .

وهنا كنا نرى جماهير الناس يغتسلون فى مائه ليطهروا من ذنوبهم ، وكان بعضهم يغترف من الطين و يفحصه عله يعثر على بعض القطع الذهبية التى تلقى فى

النهر مع بقايا الموتى ، ومن الناس من يغسل الجديان قبل تقديمها للآلهة ، ومنهم من يملأ أوانى من ماء النهر المقدس ليصبه على قدمى (فالى) داخل المعبد فيسيل إلى عين يتلقف الماء منها جمهور الزائرين و يحتسونه تبركا على مابه من أوضار وهم يؤثرونه على ماء النهر لأن أقدام الآلهة قد زادته طهراً . ومما زاد المنظر قذارة أن غالب عباد سيفا وقالى من الطبقات الفقيرة . أما الأغنياء فآلهم (فشنو) وله معابده الخاصة .

الى دار جيلنج : فمنا بعد الغروب فوصلناها ظهر اليوم التالى (ومعنى دار جيلنج مقر الصواعق) ، وابثنا الليل كله نخترق سهول شرق بنغالة كثيرة المناقع ، كثيرة العشب الزاحف الذى يكافحه القوم فى جهد شديد ليفسحوا مجالا للغلتين الرئيسيتين : الأرز واليوت والشجر لا ينقطع وأظهره المانجو والنخيل والبامبو ، وقد عبرنا الكنج بقنطرة (سارا) الهائلة التى تعد من الأعمال الهندسية الجليلة ، وقبل أن نصل الجبال مررنا بمنطقة (دوارز) وهى من مزارع الشاى الهامة وعند محطة صغيرة اسمها (سيليجورى) ركبنا قطار الجبال الصغير الذى قطع بنا ٥١ ميلا فرفعنا إلى نحو سبعة آلاف قدم وهو يتلوى فى صعوده الوعر ، ولذلك لم أعجب لما علمت أن ا كلاف الميل الواحد من هذا الخط بلغت ٣٥٠٠ جنيه ، وكنا نسير أسفل الجبل فى حقول للشاى لا آخر لها دخلنا بعدها وسط الغابات الكثيفة وكان أظهرشجرها خيزران البامبو الذى يناهز علو قصبه الثلاثين مترا ، وهنا علمنا أن النمر ووحيد القرن والجاموس البرى تمرح بكثرة هائلة . أما مساقط الماء فحدث عن جمالها ، وكنا كلما علونا تغير النبت فكثرت أشجار البلوط والتوت ثم تبعتها أشجار اللوز والخوخ بزهورها البديعة ، ثم فصائل من الصنوبر والسرخس .

وعند ما دخلنا دار جيلنج ألفيناها كالوهدة وسط الجبال وتكاد تغطيها أشجار الصنوبر أما جمالها المحيطة بها فقد أذكرتنى بجبال سويسرا لكنها فاقتها



(شكل ١٤) عروس سهاليه صغيرة فى كامل زينتها وتقرأ فى وجهها الملامح العربية

فى الضخامة والعلو الشامخ ، فحولها عشرون ذروة علو الواحدة يزيد على عشرين ألف قدم وأبهاها طلعة وأجلها روعة (كنتشنجنجا) ثانية ذرى العالم علوا (٢٨١٥٦ قدم) وتكسو الكل عمائم الثلج الوضاء وتحف بجوانبها كومات من دخان أبيض هو سحاب السماء يجلو تارة ويتقل أخرى .

أما قمة افرست فلا تبدو من دار جيلنج بل من محطة تبعد عنها بنحو سبعة أميال وتسمى (تل النمر) يصعد المرء إليها محمولا على الركشا يجرها رجلان أو على كرسى يحمله أربعة أو على مهر صغير ، ومنها تبدو روعة افرست أعلى ذرى الدنيا (٢٩١٤١ قدم) تلك التى يطمع فى ارتقائها الكثير من رواد الجبال ، لكن عبثاً يحاولون ففيها من الوحشة ووعورة المسالك مالا يمكن اختراقه ، ولقد ظلت القمة طوال الوقت تغطيها حجب كثيفة من السحاب التى لم تكد تستبين خلاله .

أما سكان دار جيلنج فأخلاط من الهنود وأهل الجبال نخص منهم النباليين والبوتانيين والجركا الذين يختلفون اختلافا بينا عن الهنود فى لونهم الأصفر الشاحب وسحنهم المغولية وقاماتهم الصغيرة وغالبهم بوذيون من اتباع قسس

(اللاما) فى التبت ، ولهم هناك معابد عدة يصلى القوم فيها وسط رقصة اللاما وصبيتهم وهم فى أرديتهم الصفراء الفضفاضة ، وقبعاتهم تحكى منقار الببغاء ، وفى بعض المعابد يلبسون أزياء العفاريت برؤوس عجيبة ووجوه مزعجة وهم فى سذاجة الهندوس وقذارتهم لولا ما أحاطهم من هواء جبلى عليل و بيئة صحية بديلة .

الى بنارس : بعد أربع عشرة ساعة من مغادرتنا كلكتا وصلنا بنارس وكنا نسير فى سهول صفراء جافة يعدها القوم بالحرث استقبالا للمطر ، وكنا نخترق كثيراً من مزارع الكنج الصغيرة ، وكان بعضها كامل الجفاف بحيث بدا وكأنه الصحراء ، وكان الجو متربا قائظا لافحا يحكى جو أقاصى صعيد مصر فى هجير الصيف بل و يزيد .

بنارس « كعبة الهندوس » : لعل بنارس هى خير المدن التى تتمثل فيها الهند بأجلى مظاهرها إذ لم يكد يدخلها من المستحدثات شىء قط فهى مقر الزهاد والحكماء والخيرين والمتدينين من الناس الذين تبدو لنا عقائدهم كأنها خرافات ، ولا يسع من يرى أولئك إلا أن يعطف عليهم و يتألم للسعادة الموهومة التى هم فيها ، وهى تفاخر بأنها أقدم المدن المقدسة فى العالم لأنها كانت مقدسة قبل أن تخلق روما بقرن ، وهى أقدم من مكة المكرمة بألفى عام وكانت من المدن الهامة فى سنة ٥٥٨ ق م ، ولقد اختارها بودا بعد ذلك بقليل مقراً لتعاليمه ، ولقد أغار عليها جيش المسلمين سنة ١١٩٤ وأباد كثيراً من معابدها وأقام المساجد فى مكانها وظل يدمر فى مبانيها القديمة حتى أنك لا تكاد ترى اليوم بناء أقدم من عهد الإمبراطور (أكبر) أى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وفى أقاصيصهم أن المدينة أقيمت من الذهب الخالص الذى استحال صخراً بسبب روح الفساد الذى ساد العالم بعد ، و يخيل للمرء وهو يسير فى سراديبها أنها مدينة محوطة بالأسرار الغامضة ولا يتمالك أن يأسف لبؤسها و ينفر من قذارتها .



(شكل ١٥) زعيم برهمى يستجدى وهو يعزف على قيثارته
وقد لطخ جسمه بالتراب المقدس

مدينة يتمنى كل هندى حتى أحط المجرمين أن يموت بين جدرانها كى ينتقل إلى الجنة عاجلاً ، لذلك يؤمها من الحجيج نحو مليون كل عام بينهم جماهير المرضى والكهول الذين يتوقعون الموت ، يسجد الجميع إرضاء للآله سيقا ، والأيمان العميق يبدو على وجوههم ، و بمجرد وصولهم وافدين من أقاصى بلاد الهند يبدأون بزيارة المعابد التى يقال إن عددها يفوق الألف ، و يطوفون بأسوار المدينة كلها ، و يبلغ امتدادها ٣٦ ميلاً فى ستة أيام متوالية وهم يسيرون فى طريق تظلله الأشجار وتزينه المعابد وتماثيل الآلهة ، و يطلقون عليه اسم (پانش كازى) .

وأقدس ما فى بنارس نهر الكنج الذى رصف جانبه فى مدرجات رائعة تسمى (Ghats) يؤمها القوم للطهر من الذنوب ، وعجباً ألا يكون للضفة الأخرى شىء من هذا الامتياز ، و يلقون فى النهر أكاليل الزهور ، و يلقون ما تخلف من الرماد بعد حرق موتاهم .

وأجمل ما رأيت المدينه من زورق وسط النهر . هنالك بدت بقايا القصور القديمة والمعابد البالية الأثرية يرتطم بها موج النهر الهادئ في مائه القذر نشو به الأوضار ، وإن أنس لا أنسى منظر المعابد المطلة على النهر ، وكأنها الأهرام الذهبية صفت في كثافة بعضها فوق بعض ، ودرجات النهر التي أقيمت من الجرانيت العاني تتدلى من دونها ، ونقام المقاصير التي يؤمها الأتقياء حتى تكاد تلمس الماء مهما بعد غوره ، ويستظل القوم بظلالات من الخوص كبيرة تميل إلى النهر كي تقي القوم وهج شمس الشرق المحرقة ، فيخيل للمرء أنها من كثرتها وعظيم امتدادها على جانب النهر ، وكأنها الدروع في ميدان للجهاد حافل بالأجناد ، وإذا ما مالت الشمس إلى الغرب بدأت تلك الجموع الغفيرة تتلاشى ومن بينها بائعو الفاكهة وأكاليل الزهور والهدايا التي يقدمها القوم قرباناً للنهر المقدس ، لذلك تراها طافية مع طائفة منتنة من الأعشاب والأوضار ، تشوب ماء النهر الكدر المنفر ، وكلما خف الجمع وفدت أسراب من الطيور المختلفة عرفت منها الغربان والحمام تجثم فوق أهرام المعابد ، وكلما أقبل الغروب زادت عفونات النهر لحد لا يحتمل حتى ليخال للمرء أنه وسط مدافن منتنة . ويؤيد هذا الشعور قرب المدرجات المعدة لحرق الجثث وكنس فضلاتها وإلقائها إلى اليم . ويزيد الموقف وحشة صيحات الطيور المنفرة ، وكأنها كانت تنعى من مات وأحرق سحابة اليوم وإذا ما بزغ الفجر تغير المنظر وبدأت المدينة تقذف بسكانها في مجموعهم إلى المكان من آدميين وعجماوات ، فترى الناس مقبلين على النهر وقد أرخوا على أجسادهم السوداء البراقة مقاطع من قماش مهفهف مختلف ألوانه ، وقد زينت بالمعادن والجواهر والأحجار رقابهم وآذانهم وأنوفهم وأيديهم وأصابعهم وتكامل زينتهن ينغمس النساء في مائه المقدس . أما الرجال فيخلعون أرديتهم والجميع يقدم أكاليل الزهور التي تطفو فوق سطح الماء بكثرة تكاد تخفيه ، وأسراب الحمام ومختلف الطيور تؤم المكان فيحط بعضها فوق الماء والبعض فوق كواهل الناس ، وكأنها



(شكل ١٦) البرهميون وأقاربهم فى الاستجداء على قارعة الطريق

أيقنت أن عباد براهما لا يمسون الحيوان بأذى . كذلك ترى قطعان البقر مقبلة إلى النهر لتغتسل ، وهنا يفسح الجميع لها الطريق فى احترام عجيب ، وبعضهم يسرع فيقدم للبقر عقوداً من الغاب والزهر . ثم تبصر بعض الأغنام والكلاب والقردة مقبلة على الماء . فيختلط الإنسان بالحيوان ولا يكاد يفرق المرء بين هذا وذاك .

ولكل جزء من تلك المدرجات اسم خاص ، فمن ضمنها مدرج الخيول العشرة حيث يؤمه الناس عند حدوث خسوف أو كسوف ، وفى طرفه الجنوبى معبد سيتالا آلهة مرض الجدرى ، وهناك تماثيل لفشنو على شكل إنسان فى جسم الأسد . ومدرج الموتى حيث تحرق الجثث ، وهنا أذكر موقفى المزعج نحو طى خمس جثث بعضها لسيدات ألبسن أقمشة ملونة ، والبعض لرجال فى أردية بيضاء ، وبعد أن دهنت الجثث بالسلى غمرت فى النهر . وبعد تغطيتها بقطع الخشب تقدم أقرب الناس من كل جثة يحمل نار وطاف حولها سبع مرات ثم أخذ يشعل النار فى أركان كومة الخشب فتصاعد الدخان وعبقت الجو رائحة اللحم الآدمى تأكله النيران ، وكل يحاول كل جهده ألا تطفأ النار قبل تمام احتراق الجثة وإلا كانت تلك وصمة مخزية للفقيد وعائلته . وبعد تمام الاحتراق



(شكل ١٧) الروح العملاق شاب روحه ولم تبلغ سنها العاشرة

ينفص الوحد مابقى من الرماد إلى النهر كى تتم سعادة الفقيد . على أنا كثيراً ما كنا نرى الكلاب تحوم حول الضفاف فتلتقط قطعاً من اللحم الذى لم يتم حرقه ، وكنا نرى جثث الأطفال طافية بين جماهير المستحمين ، لأن الدين يحرم احتراق جثث الأطفال ويأمر بالقائها فى النهر المقدس كاملة .

منظر مزع وقفت فى جنباته ساعة ، وأنا لا يكاد يستقر بى المكان خوفا وجزعا . وكنت أستم شيئاً من الرائحه العطرة التى علمت أنها لبعض الأغنياء الذين يحرقون موتاهم بخشب ثمين كالصندل والعود وما شاكلها .

ولعل أقدس المدرجات (مدرج القرط) وبه بئر ألقت فيها الآلهة (ديفى) بقرط ، وإليها يتقدم القوم بقرابين من الزهر واللبن وخشب الصندل والحلوى كلها ترمى فيها ، وبجانبها تجد قطعة مشرفة من رخام عليها طابع قدمى فشنو وهنا يحرق الوجهاء موتاهم وذلك شرف لا يناله الفقراء .

ومن المدرجات الهامة مدرج الأنهار الخمسة لأنهم يعتقدون أن فى أسفل هذا المكان تتلاقى خمسة أنهار وتشرف على هذا المكان مسجد أورانجزيب بمآذنه

الدقيقة العالية التى خيل إلىّ أنها تميل إلى النهر فى غير استقامة .

برحت النهر لأتجول داخل المدينة فبدت قديمة بأطلالها وأرقنها القذرة المتربة ومن المعابد التى زرتها بها :

المعبد الذهبى :

وتزينه قبة بجانبها برج كأنه (الباجودا) ويكسى الانسان من الخارج بالذهب الخالص وهو معبد سيفا إله الكون ، وكان القسس فى داخله

(شكل ١٨) المحراب الرئيسى فى المعابد الهندوسية

يحرقون البخور ويقدمون الزهور ويرتلون فى صبحات منفرة وفى جانب من المعبد (بئر العلم) وسط دائرة تحوطها الأعمدة الجميلة وتتوجها قبة ، ويقول القوم إن شعار سيفا احتمى فى أعماقها يوم أن دمر الأعداء المعبد ، فكل من تطلع إليه نال قصارى أمانيه ، ولقد نظرت إلى أعماقها بتلهف زائد فلم أر إلا سطح ماء قد غطاه رم العشب وورق الزهور ، ويجلس بجانبها مشعوذ يبيع الماء للناس الذين كانوا يتهافتون عليه كل يملأ يده ويقطر ثلاث قطرات فى فمه من طرف أصبعه ويغسل رأسه بما بقى ، وفى ذلك مفتاح الذكاء والفطنة وتطهير للذنوب كائنة ما كانت وإلى جانب البئر تمثال ثور يعبدونه قدمه (راجا نال) ويحوطون رقبته بعقود الفل والياسمين ويرشون عليه ماء النهر المقدس .



(شكل ١٩) البناء التذكارى للملكة فكتوريا يزين جانب (الميدان)

ومن أمثال تلك المعابد كثير فادنا الدليل إليها فى سراديب يكاد يكسو أرضها جماهير المتسولين فى قذارتهم الكاملة ، وقد راقنى منها معبد درجا أو معبد القردة لكثرة القردة الطايقة فيه والتى تمرح وتأكل وتنعم على حساب السذج من المدينة ، وعند المدخل ترى الطبول يدقها القسس ثلاث مرات فى اليوم . وهنا تذبح الجديان قرباناً لزوج سيفا التى تلذ لمنظر الدماء ، وترى هناك حوضاً علوه ٥٤ بوصة يعتقد القوم أنه ينكمش فى كل يوم مرة حتى لا يزيد حجمه على حبة السمسم .

الى دلهى : أخذت القطار صوب دلهى تلك المسافة التى استغرقت ٢٨ ساعة ، وكان يبدو على غالب الحقول الجفاف الشديد الذى أيد لنا مبلغ سحر الرياح الموسمية وأمطارها فى خصب تلك الجهات التى بدت ظامئة مجدبة ولما يتخلف المطر عن ميعاده سوى أسبوعين ، ولقد وقفنا طويلا بمحطة (مغول سراى) ، وكان الشجر من حولها كثيراً وجموع القردة تمرح فى الغابات و إلى جوار السكة الحديدية فى كثرة عجيبة . وكم كانت دهشتى عظيمة عند ما باغتنا سرب من الطاووس يناهز المائة والخمسين عدا كان يسير بجوارنا كأنه هادئ أليف ، وقد

جاز القطار محطة (كونبور) التاريخيــة الشهيرة مقر الثورة الهندية (سنة ١٨٥٧) ، وقبيــل دخولنــا دلهى استقبلتنا زوبعة رملية عاتيــة كأنها وافدة من صحارى (ثار) إلى جنوبها و بدت المدينة والحر بالغ أشده فقد كانت الدرجة ١١٣ ف وكان الهنود مغتبطين بذلك لأنه كلمــا اشتد الحر بشرهم بأمطار وابلة .



(شكل ٢٠) أمام النصب التذكارى الذى أقيم فى موضع (الجحر الأسود) فى كلكتا

دلهى : قمت بجولة فى المدينة فبدا لى أنها من المدن القديمة التى غالبت الزمن وقاست من هجمات المغيرين الشىء الكثير حتى قيل إنها تقام على أنقاض احدى عشرة مدينة ازدهرت من قبل ، ولا تزال لها بقية من أطلال ، وغالب أحيائها شبيه بالأحياء الوطنية فى القاهرة ، وكانت كثرة المساجد بمآذنها العديدة تكسب المدينة مظهراً إسلامياً بحتاً إذ حلت هـذه محل القباب الناقوسية الذهبية . وهنا يصلى القوم لله بدل الخضوع لشعوذة البرهمى والخشوع للأنصاب ، على أن غالب تلك الأنحاء تعوزه النظافة ، و إن كانت فى الجمال خيراً من سابقاتها ، أخذت أزور أماكنها التاريخية . و بدأت بزيارة القلعة وقد بناها شاه جهان بعد أن قرر نقل عاصمته من أجرا واختار مكانها هذا ، وهو يبعد خمسة أميال عن (دلهى القديمة) عاصمة جده همايون ، وضع أول حجر سنة ١٦٣٨ وتمت فى تسع سنين ، فانتقل إليها فى حفل عظيم وأطلق عليها اسم (شاهجاهاناباد)

وكانت آيات الأبهة تفوق كل ما تقدمها حتى أصبحت عند الغربيين مضرب الأمثال ، فمن مساجد إلى مقاصير إلى إيوانات إلى قصور كلها من الرخام المرصع باليواقيت والجواهر تفرش بالحرائر والطنافس الثمينة .



(شكل ٢١) جثة عروس فوق محرق الموتى
فى معبد قالى فى كلكتا

ولعل أشد الأهوال التى قاستها دلهى سنة ١٧٣٩ حين أمر نادر شاه بذبح أهلها لأنهم أغاروا على كتيبة صغيرة من جيشه ، وكان يرقب ذلك بنفسه من شرفة المسجد الذهبى من شروق الشمس إلى الساعة الثانية مساء ، وبعد ذلك تنحى هذا الفارس منتصراً إلى بلاده وحمل ما قيمته خمسون مليون جنيه ، ومن بينها عرش الطاووس الشهير وماسة كوهنور ، وقد سقطت دلهى فى يد الجنرال (Lake) سنة ١٨٠٣ وأباح لسلائل المغول بعض الحقوق والمظاهر على أنها سحبت منهم نهائياً عقب الفتنة ، ونفى آخر ملوكهم (باداهور شاه) إلى رانجون حيث مات سنة ١٨٦٢ ، ونقلت العاصمة إلى كلكتا ، لكنهم أعادوها سنة ١٩١١ بعد أن أمر الملك جورج الخامس بإنشاء دلهى الجديدة بجوارها .

دخلت القلعة التى يحوطها خندق فسيح (سعته ٧٩ وعمقه ٣٠ قدماً) وسور يتراوح علوه بين ٦٠و١١٠ قدماً ، وبها بابان أحدهما صوب اجرا ، والثانى صوب

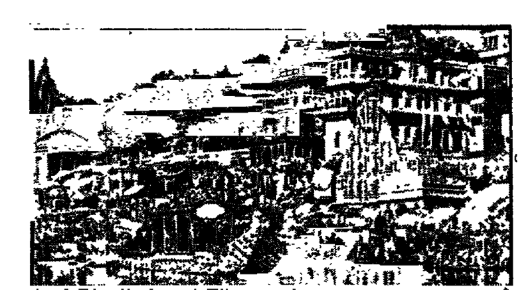
لاهور ، وهى بلدة كاملة فى داخلها إذ تقوم فيها المبانى الفاخرة والمساجد العامرة والمتنزهات البديعة ، وكانت مقر الملوك ، ومساحتها تزيد على ضعفى أكبر قصر ملكى فى أوروبا ومن أكبر مبانيها :



(شكل ٢٢) قمة كنتشنجنجا ثانية ذرى العالم علوا ويرى فوقها قطار المرتفعات فى لياته العجيبة

الديوان العام : ذرعه ٦٠ × ١٠٠ قدم ، يقوم سقفه على بوائك وعمد تخطف البصر بنقوشها الرائعة وهو يعد من آيات فن العمارة المغولية ، وكان يجلس الإمبراطور على عرشه ليستمع للمظالم التى يعرضها عليه وزراؤه نائبين عن الشعب

الديوان الخاص : ذرعه ٧٦ × ٩٠ قدماً من الرخام الأبيض يرصع بالأحجار الكريمة فى زخرفة فارسية مغولية ، وكان سقفه من فضة لكنه استبدل بالخشب اليوم ، وهنا يحار اللب حقاً لما يرى من مظاهر العظمة شبيهة بما نقرأ فى (ألف ليلة) وقد نقش على جانبيه بالذهب ما معناه : إذا كان للأرض نصيب من الجنة فهو لا شك فى هذه الدار ، وتتوسط البهو قناة من رخام كان يطلق فيها الماء المعطر ليرطب المكان ويعبقه ، وكان يتوسطه عرش الطاووس الساحر الذى نقله نادر شاه إلى فارس ، وسمى كذلك لأنه محاط بطاووسين قد نشرا ذنبيهما



(شكل ٢٤) المبانى والمعابد تغص بها مدرجات نهر الـكنج فى بنارس كعبة الهندوس

مسجد اللؤلؤة : أمامه ارامجزيب داخل القلعـة ، وكان خاصاً بشاه جهان الذى أسرف فى زخرفته وتنسيقه حتى أضحى أجمل مساجد الهند وأصغرها ، وكان يشبه بالدرة أو اللؤلؤة لصغره وجماله .

المسجد الجامع : يتوسط ميـداناً من المدينة فسيحاً يشرف عليه من ربوة تناهز ستة أمتار ، ويرتقى المرء إليـه بسلم عظيم الامتداد فى جميع جوانبه وأبوابه من نحاس ثقيـل وسط بوائك فاخرة تؤدى بنا إلى فناء رحب يتوسطه حوض الوضوء ، والايوان يقع تحت قباب ثلاث بجانبها مئذنتان دقيقتان علو كل منها ١٣٠ قدماً ، وحول الجوانب الأخرى بوائك ذات سقف منقوشة ، وفى ركن منه غرفة صغيرة بها بعض آثار النبى صلعم توضع فى علب من فضة وذهب وزجاج تملأها الزهور من داخلها ، وأهم تلك المخلفات التى تبركنا بلمسها : شعرة واحدة حمراء من لحية الرسول وقطعة من رخام عليها طابع قدمه وحذاء من جلد الجمل فى شكل الخف ، ومخطوطان للقرآن الـكريم كتبا بالـكوفة ، أحدهما بخط الامام على كرم الله وجهه ، والآخر بخط ابنه الحسين عليـه السلام ، والمسجد فاخر يشرف على المدينة فتراه أينما كنت فى لونه الأحمر من الخارج وإن كان يبطن



(شكل ٢٥) جماهير المغتسلين فى ماء الكنج المقدس

كله بالرخام الأبيض أقامه شاه جهان ، وخص بنفسه باباً يواجه القلعة والمسكن الخاص فيها ، وكان يفتح يوم الجمعة لمروره ماشياً وعندئذ تفرش الطريق كلها بالطنافس الثمينة ، ويخال البعض أن هذا المسجد أكبر مساجد الدنيا .

ومن المساجد الأخرى التى زرتها مسجد سهرى الذهبى الذى جلس فيه نادر شاه أكبر ملوك الفرس السفاحين وهو يراقب جنده يذبحون الناس يوم دخل المدينة سنة (١٧٣٩) .

منار قطب : برج بصر بناه قطب الدين سنة ١٢٠٠ على بعد ١١ ميلا من المدينة وأكمله حفيده (التمش) ويتألف من خمسة أدوار فى علو ٢٣٨ قدماً وقطره من أسفله ٤٧ ، ويختنق فى أعلاه إلى ٩ وقد أصلح أعلاه فيروز شاه سنه ١٣٦٨ ، أقيم لتخلد انتصار الإسلام على الهندوس ولبث يغالب الزمن طويلاً يعد من عجائب بلاد الهند لقدمه وعراقة هندسته . وإلى جانبه مسجد قطب الدين أقدم مساجد الهند بناه من أنقاض المعابد الهندية التى دمرها المسلمون وفى داخل مقصورته قطعه من حديد مرن نرجع إلى القرن الثالث الهجرى وظلت عرضة لعوامل الزمن طوال تلك المدة ولم تصدأ ولا يعلم شىء عن أصلها سوى



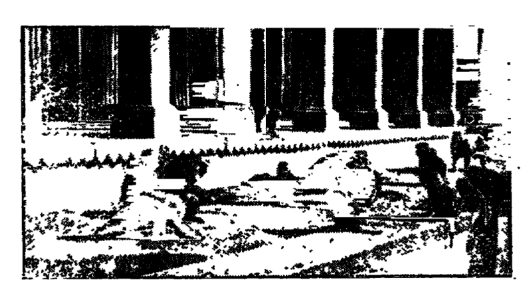
(شكل ٢٦) مدرج الموتى فى سارس وترى به الجثث التى تأكلها النيران

العبارة الآتية التى كتبت عليها : هو صاحب الصيت (راجا داقا) الذى حصل ساعده على ملك العالم بغير شريك .

وفى ناحية أخرى مقبرة هومايون على نمط سبه تاج محل وهو أقدم مثل للعمارة المغولية بنى سنة ١٥٥٦ ودفن فيها باقى عظماء المغول و بجانبه أقرباؤه وابن شاه جهان الذى قتله أخوه اورانجزيب طمعاً فى الملك وهنا سلم شاه باداهور آخر المغوليين سيفه للميجر هدسن سنة ١٨٥٧ و بجانبها مقبرة التمش ابن زوجة قطب الدين

ذلك مثل مما يراه السائح فى دلهى تلك البلدة التى تقوم عظمتها على منشآت الإسلام التى لولاها لما استحقت الذكر حيث لا ترى غيرها سوى بيوت حقيرة ومعابد هندوسية صغيرة ولذلك لم ترها انجلترا صالحة لتكون مركزاً لإدارة البلاد فأقامت بعيداً عنها مدينة دلهى الجديدة على أحدث النظم التى تحكى إحدى المدن الأوروبية تماماً

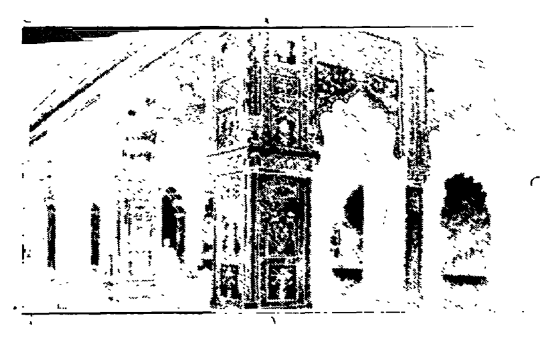
الى أجرا : قمت إلى أجرا التى وصلتها فى أكثر من ثلاث ساعات فبدت مدينة حقيرة كأنها من مدن الريف القذرة المترية ، وكان هجير القيظ خانقاً لدرجة



(شكل ٢٧) القردة المقدسة داخل معبد (درجا) فى بنارس

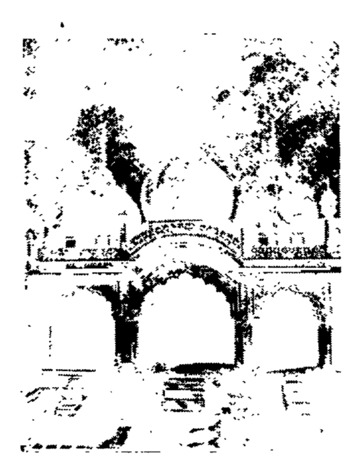
أن خادم النزل سألنى أن كنت أرغب أن يعد لى سريراً فى الخارج (أعنى فى الشارع) فدهشت ورفضت أول ليلة مرتكناً على (المروحة) لكنى سارعت برجائه فى الليلة الثانية أن يفعل ذلك إذ لم تغمض عينى من شدة الحر فنمت ليالى الباقية على جانب الطريق على أن بها من الدرر القديمة آيات بينات تحوطها تلك الأطلال والأقذار وفى مقدمتها :

تاج محل : حق للهندسة المغولية أن تفاخر بتلك القطعة الفنية فما أن وقع ناظرى عليه حتى ذهلت من عظمة ما رأيت . جلال فى دقة صنع ورواء فى حسن تنسيق وآيات للفن بينات فى كل ناحية من نواحيه ، فهو وحده خير مبرر لزيارتى للهند ، تلك البلاد التى كنت حتى الساعة لا أذكرها بالخير الكثير . دخلت من الباب الرئيسى وهو وحده قصر فاخر بأقبيته وقبابه ومناراته فانكشفت حدائق التاج الفسيحة التى نسقت بالنافورات والمنحدرات والطرقات الملونة والنقائع يزينها زهر البشنين وورقه صفت من حولها مخاريط الشجر الباسق وفى وسط كل أولئك يقوم التاج كالعروس ولكن أنى لقلمى الكليل أن يصور بدائعه ويحكى أعجازه فقد تنقل الكلمات والصور إلى القارىء شيئاً عن المكان ولكن أنى لها أن تشعره



(شكل ٢٨) جزء من الديوان الخاص فى زخرفه الفاخر
وهندسه المعمارية الاسلامية فى دلهى

بالذهول والإكبار الذى يحسه من يراه بعينه ! صور لنفسك قصراً فاخراً أقيم كله من الرخام الوضاء والمرمر البراق تحوطه فى الأركان مآذن دقيقة رشيقة وتتوسطه قبة كبيرة رائعة تحوطها القباب الصغيرة والمنائر الرفيعة والأرض والجدران قد رصعت كلها بالزهور والزخارف الفارسية لا بالرسم الزيتى بل بالياقوت والزمرد والزبرجد وما إليها وتزين الجدران إلى جانب هذا آيات الذكر الحكيم كلها لا بالمداد بل بمقصوص الرخام الأسود ألبس الجدران البيضاء ، والمدهش أن المهندس قد راعى المنظور فى كتابتها بحيث أنك تراها تبدو فى أعلى المكان وفى أسفله بحجم واحد رغم علوه الشاهق ، وفى بعض الصفحات ترى الرخام قد خرط فى أشكال شتى بين بارز وغائر ، أما النوافذ والفتحات فأشبه بشباك المخرمات فى دقة فائقة وهندسة عجيبة قدت فى الرخام وكان يغطى غالب الفتحات الزجاج الطبيعى (الميكا البيضاء) ولم يبق منها اليوم سوى لوح واحد ، وفى قلب المكان ترى المقبرة من المرمر رصع بمختلف الأحجار الكريمة يحوطها سور من مقصوص الرخام وهذه تضم رفات زوجة شاه جهان (ممتاز محل) وكان يحوطها سور من فضة ويكسو القبة غشاء


(شكل ٢٩) مسجد اللؤلؤة فى قاعة دلهى

ثقيل من ذهب خالص كانت زنته ٢٦٥٠ رطلا ، ويدخل الضوء من الباب فقط فيسقط على المقبرة رأساً فتشرق وسط الأركان المظلمة ، وقد الصقت بجانبها مقبرة أخرى فيما بعد دفن فيها زوجها وكان قد بدأ يقيم لنفسه مقبرة على مثال التاج فى الجانب الآخر من النهر .

وقد قيل إن السلطان استدعى عباقرة الفن من العرب وفارس والهند وأوروبا فاستلزم البناء ١٧ سنة ، وكان طوال هذه المدة يشتغل عشرون ألف عامل حتى بلغت أكلافه أربعة ملايين من الجنيهات فى ذاك الوقت الذى كانت الأموال فيه نادرة .

وللقبة الرئيسية أثر ساحر فى ترديد صدى الصوت يفوق ذاك الذى لاحظته فى بيزا بأيطاليا ، وقفت داخلها وكأنى طربت لما أن تصورت المقرئ بصوته الرخيم يردد الآيات البينات أو يصيح بعبارات التأبين والندبة فى أنغامها الشجية التى تبدو وكأنها دوى أصوات الملائكة تردده تلك القبة من السماء ولا أنسى زيارتى الثانية للتاج فى المساء وكانت ليلة مقمرة فبدا وجهه فى ضوء القمر الشاحب وسكون الليل الرهيب فأثار فى النفس من ذكريات وأهاج من شجون .

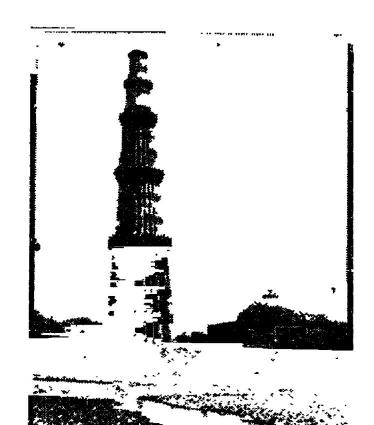
تلك هى آية تقدير شاه جهان لزوجه الفاتنة التى أحبها حباً جماً وأخلص لها فشاركها الرأى فى مهام الحكم وكان خاتم الدولة بيدها وكانت رحيمة بالناس



(شكل ٣٠) المسجد الجامع فى دلهى وفى ركنه الأيمن بعض مخلفات النبي صلعم

تتدخل لمصلحتهم وكانت تلازم زوجها فى حملاته الحربية حتى كانت الحملة التى غزا بها ثائرى الدكن فاختطفها الموت لما أن جاءها المخاض فى طفلها الرابع عشر فعاد محزوناً كسير القلب حتى حرم على رعاياه كل مظاهر السرور طويلاً وحبس نفسه عن الناس وعطل أعمال الدولة وقيل أنه سئم الحكم واعتزم التنازل لابنه .

مقبرة اعتماد الدولة : أقامتها (نور محل) زوج الامبراطور (جهانجير) مدفناً لأبويها وكان أبوها من كبار رجال الدولة وفد مع زوجه من فارس تحت اسم (مرزاغياث) طلباً للجاه والثراء فى بلاد الهند فنفدت ذخيرتهم فى الطريق وزادهم الحظ ارتباكاً بمولودة ترددوا طويلاً فى التخلص منها حتى مرت بهم قافلة فأنقذتهم جميعاً فلما جاءوا السلطان نالوا لديه حظوة وأحب جهانجير — وكان إذ ذاك أميراً — فتاتهما ذات الجمال الفتان لكن أباه الامبراطور رفض ذلك وزوجها من أحد قواده فلما مات وولى ابنه الحكم كلف الضابط أن يطلق زوجته فأبى فدس له وقتله وحبس الزوجة فى القصر حتى قبلت أن تتزوج منه فغير اسمها (نور محل) أى نور القصر وسماها (نور جهان) أى نور الدنيا ، والمقبرة آية فنية أخرى تلى التاج فى العظمة ودقة الصنع .



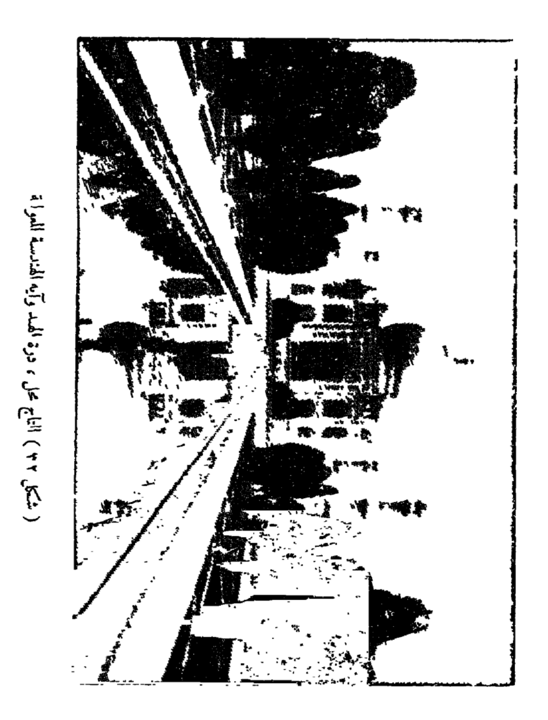
مقبرة الأكبر :
وهى من المبانى الجديرة بالزيارة أقيمت من الصخر الرملى الأحمر تبطنه من داخله رقائق الرخام الأبيض فى رواء كبير وهى تضم رفات (أكبر) مؤسس أجرا ولذلك يطلق على المدينة أحياناً (أكبر باد) .

القلعة : شبيهة بتلك التى فى دلهى فى شكلها ومحتوياتها وتزيد قصر الياسمين وسمى كذلك لكثرة أزهار

(شكل ٣١) منار قطب وهو برج نصر مغولى فى دلهى

الياسمين التى رصع بها المكان ، وقد أعده جهانجير مقر زوجته (نور محل) إذ كان يشرف على نهر الجمنا ويكشف التاج محل بحدائقه على الجانب الآخر من النهر ، وقد أقامت به سيدة التاج (ممتاز محل) زمناً طويلا .

الى بمباى : غادرت أجرا صوب بمباى (فى ٣٨ ساعة) ، وكنا نمر غالب الطريق على بقاع شبه صحراوية هى حافة صحراء ثار فى مقاطعة راجبوتانا ، ولذلك كان الجو مؤلما والتراب خانقاً والجفاف بالغاً أشده ، فما كدنا نرى للنبت أثراً سوى بعض الشجيرات القصيرة المنتثرة ، على أنا كلما قاربنا جانب البحر إلى بمباى زادت ثروة الاقليم بالنبت وتحسنت الوجوه الآدمية وقل الحفاة وتقارب الزى (سروال أبيض وجاكته طويله) ، ومما ألفت نظرنا بوجه خاص زى السيدات وقد بدت الألوان الزاهية الصافية فى ملاءاتهن ، فكثيراً ما كنت أرى جمهرة



(شكل ٣٢) التاج محل ، درة الهند وآية الهندسة المعمارية

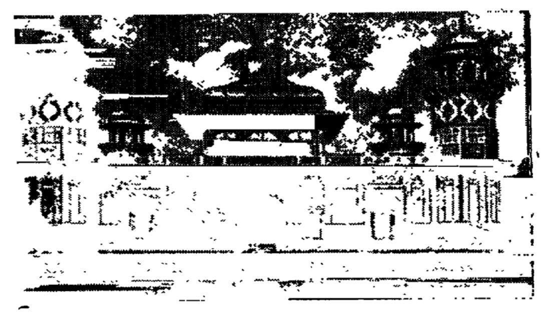
منهن يسرن جماعات كل منهن فى لون خاص كأنهن قوس السماء يتحرك فى بريق ورواء ، وقد عبرنا قنطرة نهر نابتى الذى يبلغ انساعه ثلاثة أمثال النيل على أنه كان جافا لا يكاد يجرى له ماء شأن سائر أخوار الهند التى كنا نمر بها كل آن وهى ناضبة مما يشعر بأهمية الرياح الموسمية ، فلولا أمطارها لما كانت بلادهم فى الخصب شيئاً مذكوراً .



(شكل ٣٣) أمام عظمة (التاج محل)
الخالدة فى ضوء القمر

بمباى : أو الخليج الجميل

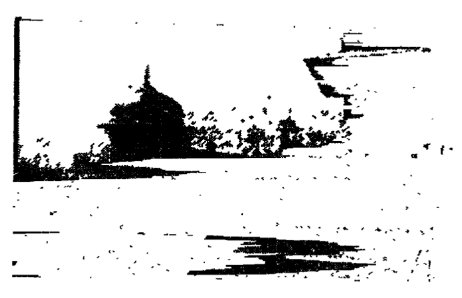
كما سماها البرتغاليون ، وقيل إن الاسم مشتق من آلهــة البلدة (ممباديفى) فى أكبر معابد المدينة بدت مدينة عظيمة حقاً ذات مبان فاخرة وقصور شامخة وطرق معبدة فسيحة ، فهى فى نظرى المدينة الهندية الوحيدة التى تحكى مدائن أوروبا وجاهة ونظاماً وهى العاصمة التجارية للهند ، فالحركة فيها صاخبة أبداً وبها محطتان للسكة الحديدية من أفخر محاط العالم وهما محطة فكتوريا ومحطة الوسط ، ولعل أجمل نواحيها صخرة ملبار تشرف على الخليج فى منظر رائع وهى مسكن الطبقــة الارستقراطية كلها فلات فاخرة تحوطها الحــدائق اليانعة والمتنزهات الأنيقة أخص منها : (الحديقة المعلقة) التى تشرف على البحر وتنكشف من دونها أبراج السكون الخمسة حيث ترى رصيفاً حفرت به فجوات يضع فيها شيعة (البارسى) موتاهم وسرعان ما تنقض عليها العقبان من الأشجار المجاورة فتأكل اللحم وتترك العظام ، وهذه توارى فى بئر بدون حرق ، ذلك لأن هذا المذهب يعتقد فى طهارة العناصر الثــلاثة (المـاء والتراب والنار) لذلك لايصح تدنيسها ، ويحمل الجثث وهى عارية عباد ملتحون إلى ذرى تلك الأبراج ومحيط أكبرها ٢٧٦ قدما وعلوها ٢٥ ، وعنـد حمل العظام يلبس القوم القفازات ويقف أهل الموتى طويلا فى الحدائق هناك للتفكير فى الموت وحولهم كثير من أشجار (السرو) ، والقوم يعتقدون أنه يشير دائما إلى السماء ليذكرهم بالموت ، وعامتهم يبيحون استخدام النار فى الطبخ لكن غلاتهم



(شكل ٣٤) مقبرة اعتماد الدولة ، وهى من آيات الهندسة المغولية الاسلامية فى أجرا

يحرمون ذلك ، وجماعة البارسى من عبدة النار ، وهم أتباع الفيلسوف الفارسى (زردشت) عددهم يناهز المليون ، و يعرفون باستعدادهم العظيم للتقدم وهم فى مقدمة تجار العالم خبرة وأمانة .

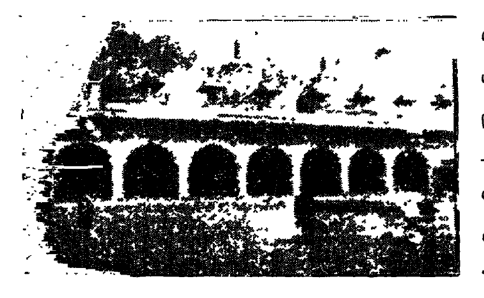
البقر المقدس : وقد استرعى نظرى فى الهند عامة وفى بمباى خاصة كثرة البقر الذى يترك طليقاً يجوب أمهات الطرق فى غير حصر ذلك لأن الهندوس يقدسونه و يعدون قتل البقرة لا بل ومجرد ضربها جرما لا يغتفر ، فكم من مرة كان يفاجئنى سائق السيارة أو الترام بالوقوف لأن هناك بقرة تنام وسط الطريق فلا يجرؤ أحد أن يضربها و إن طال وقوفه نزل فمسح عليها برفق حتى تقوم ، ودهشت مرة وأنا فى محطة (راتلام) لأنى رأيت قطار السكة الحديدية أخذ يدوى صفيراً وهو مقبل على المحطة ثم وقف فجأة و بالبحث وجد الناس بقرة تمرح بجانب القضبان ، وقد حدث مرة أن أميراً هندوسياً صدم بقرة بسيارته فقتلها فظل يكفر عن ذنبه هذا بالهدايا الباهظة للبراهما أمداً طويلا حتى غفر ذنبه ، وكل فرد وهو على سرير الموت يمسك بذنب البقرة حتى تفيض روحه إن أراد الجنة .



(شكل ٣٥) على شرفة برج الياسمين فى أجرا

بلغنى أنه لما حضرت الوفاة مهراجا كاشمير الأخير طلب أن تساق البقرة إليه فى غرفته ، فلما لم يفلحوا فى ذلك حمل الأمير إليها فأمسك بذنبها حتى فاضت روحه ، وقد قيل إن العصيان الهندى الكبير كان من السهل تلافيه لو أن بريطانيا منعت ذبح البقر ، وكان ولا يزال بعض الجند يأبون حمل السلاح لظنهم أن دهن البقر يدخل فى تركيبه ، وثار الكثير لأنهم كلفوا أن يفرغوا قطراً تملأها لحوم البقر المحفوظة فى علب جئ بها من استراليا .

ويقدس الجميع خمسة منتجات فى البقرة وهى : اللبن والمسلى واللبن المتجبن والروث والبول ، وتلك توضع فى أوان ساعة الصلاة ثم تمزج ببعضها ويشربها القوم تبركاً كأعظم مطهر من الآثام ، وهذا المزيج يسمى فى عرفهم (Panchagavia) وغريب أن يكون أثر البول فى الطهر أبلغ لديهم ، فكثيراً ما كنا نرى الناس يقفون أثر بقرة لكى يحملوا البول وهو دافئ فى آنية ، ويسرعون بها إلى بيوتهم ليشربوه على الفور أو ليدهنوا به وجوههم ورءوسهم . وقد يتلقاه الرجل فى يديه ويحتسيه أمامنا وهم يعدوننا أنجاساً لأننا نأكل لحم البقر ، ولذلك فهم لا يسلمون علينا باليد مطلقاً وإن اضطر وجهاؤهم لبسوا القفازات ، فكم من مرة

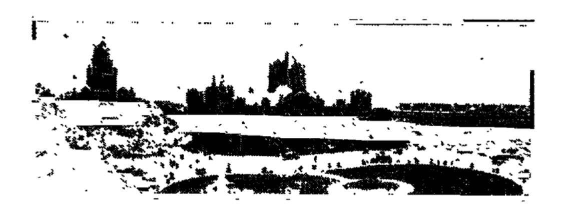


مددت فيها يدى لأصافح بعض من تعرفت بهم من زملاء القطار من بين المتعلمين فكان خجلى شديداً عند ما كنت أراهم

(شكل ٣٦) فى فناء مسجد القامة فى أجرا

يرفضون ذلك ويضمون أيديهم إلى صدورهم لرد تحيتى لهم ، وحدث مرة أن خادم القطار قدم لى الطعام فى العربة التى كنت أركبها ، وما كاد يقع نظر إخوانى الهنود من حولى على اللحم الذى آكله حتى تنحوا عنى ، وأخذت ترمقنى نظراتهم بشىء من الاشمئزاز ، وقد عانيت طويلاً حتى استعدت علاقتى الحسنة معهم كرة أخرى ، وصارحنى بعضهم أنه يرى فى ذلك الرجس كله ، وأن نفسه تتقزز ويعروه الشعور بالقىء لمجرد رؤية اللحم ، وكثيراً ما كنا نرى البقر تطوق جيده العقود ، وتخضب قرونه بالألوان وتزينها أطواق النحاس البراق ، ويقبل المارة على البقر لثماً وتقبيلا .

ومن عجيب أمرهم أنهم يهملون إطعام البقر على قداسته ، ويكتفون بتركه يجوب الطرق ويرعى ما ألقى فيها من قمامات ، لذلك نرى غالب الأبقار عجافاً هزالاً قد أصابتها مختلف الأمراض ، ومما ساعد على انحطاط نوع البقر هنالك أن من يهب عجلاً أو بقرة للمعبد تبركاً أو لمناسبة موت عزيز لديه يبتاع أرخص الأنواع وأردأها وتطلق هذه وتظل ماكثة للمعابد بدون رعاية أو استغلال ، وقد قدر عددها بنحو سبعين مليوناً لا يستفاد منها بشىء ، ولو استغل هذا العدد لأنتج ما قيمته ١١٧½ مليون جنيه فى العام ، وطالما تقع المشاحنات المبيدة بين الهندوس



(شكل ٣٧) محطة ڤكتوريا فى بمباى من أخرمبانى "العالم ، وإلى اليسار دار البلدية

والمسلمين يوم عيد الأضحى بسبب ذبح العجول ، وإن نعجب فعجبنا من تناقضهم ، فالبرهما هو الذى يبيعها للمسلمين أحياناً إلى ذلك تضاف قسوة الهنود جميعاً فى معاملة ذلك الحيوان المقدس عند استخدامه فى جر العربات ، والعجول هى دابة الجر الرئيسية فى الهند ، فلا تكاد ترى حيواناً سليم الذنب لأن السائق يضغط على فقرات ذنبه طول الطريق يستحثه على مواصلة السير لذلك تراها تتكسر ، إلى ذلك تعذيب البقرة ساعة حلبها إذ يُدخل الحالب فى دبر البقرة عصى زودت بأهداب خشنة ولا يفتأ يحركها معتقداً أن ذلك يدر اللبن (Phuka) غير آبه بما يحدثه ذلك فى البقرة من الآلام المبرحة .

عبر الدكن : قمنا نتساق الغات الغربية ونعبر هضبة الدكن إلى مدراس (٢٥ ساعة) فجرتنا قاطرة كهربائية ، وأخذت تصعد بنا فى سرعة مخيفة والمناظر من حولنا كأنها من مناظر سويسرا أو اسكندناوه أوالراكس فى النمسا بين ربى تكسوها الخضرة الوفيرة وخوانق وهوى غائرة سحيقة ومجارى وغدران ونقائع آسنة وكأنها من لجين ، ظل المنظر هكذا ساحراً زهاء أربع ساعات حتى وصلت پونا ، وهنا عادت المناظر مملة موحدة إذ أصبحنا فوق هضبة الدكن ، على أن الجو قد تحسن ونقصت الحرارة نقصاً محسوساً ، والسكة الحديدية إلى هنا عمل هندسى عظيم غاص بالليات والمطاوى العجيبة والانفاق المتعددة ، والكهرباء تستمد من



(شكل ٣٨) برج السكون حيث يعرض جماعة (البارسى) جثث موتاهم
فتنقض عليها تلك العقبان فتنهش لحمها على الفور

منحدرات للماء حبس ماؤها فى أنابيب ضخمة لتزيده قوة ، لبثنا نسير فوق الدكن طويلا تلك البلاد التى تكاد تكون جافة إذ لا يصيبها من المطر إلا النادر ، لذلك كنا نرى فى الحقول شبه آبار أو أحواض مستديرة يملأها المطر ويدخر فيها ليستقى منه القوم ، وقلما كنا نمر بالقرى والدساكر مما يؤيد ندرة السكان هناك ، على أن بقاعا من الأرض كان يعدها ذووها استقبالا للمطر الضئيل المنتظر ، والناس هنا أكثر همجية من سواهم ولا يزال غالبهم من سلائل (الدرافيديين) سكان الهند الأوائل ، ومن أعجب عاداتهم أن يشاطر فى الزوجة الواحدة أكثر من زوج واحد وبخاصة الإخوة ، وكانوا إلى أمد قريب يتعقبون أنسابهم من طريق الأم لذلك كان الميراث الرئيسى لابن الأخت أو ابن بنتها أو لأى شخص من فرع الأناث أما الابن فلا يرث ولا تزال لتلك العادة اليوم بقية بين قبائل (تودا Toda) هناك ، ويعد الهندوس أولئكم القوم من الطبقات النجسة المنبوذة .

الطبقات والمنبوذون : لما أن أغار الهندوس على الدكن من



(شكل ٣٩) فريق من عبدة النار في فارس

الشمال قسموا الناس طبقات بعد أن تملكوا الأراضى ووضع زعماء الدين (البراهما) أنفسهم موضع وكلاء الآلهة ، ويليهم فى المقام المقاتلة (Kshattriyas) ثم الزراع (Vaisyns) وكان يحتقرهم أفراد الطبقتين السابقتين ثم يلى أولئك طبقة (Sudra) السدرا وهم الخدم والأتباع ، ومن كل أولئك يتكون الهندوس ، وأخذت تلك الطبقات الأربع تتشعب إلى شيع ومذاهب عدة ، فكانت إلى سنة ١٨٧٢ ٦٩ ونما عديدها حتى أصبحت ٢٣٧٨ فى سنة ١٩٠١ ولا تزال تزيد فى كل يوم . ويعتقد الهندوس أن الرجس يصيبهم إن اقتربوا من أحد أفراد طبقة أدنى منهم ولا يتبادلون المصاهرة قط ، ويقاطع الجميع كل فرد فقد شرف الانتساب لطبقته فلا تقبله حتى الطبقة التى هى أدنى منه ولا يغفر ذنبه إلا بعد تقديم القرابين الباهظة (للبراهما) ، وكثيراً ما كنت أرى القوم فى عربة القطار ينتحون جانباً ، ويخبئون طعامهم عن أعين الأجانب أمثالى خشية أن تدنس نظراتنا طعامهم الطاهر ، وكنا نرى جميع الناس حتى المدقعين منهم يحملون أوانى من نحاس بها ماء يشرب المسافر منه ولا يأمن لغيره قط أن يمسها مخافة تدنيسها وإذا فرغت ينزل فى المحاط بنفسه فيملأها بيده من صنبور محكم الغلق تعده مصلحة السكة



(شكل ٤٠) البقر المقدس يعترض أمهات الطرق فى بمباى

الحديدية فى جميع المحاط لهذا الغرض، وفى السجون يأبى المجرم تناول الأرز حتى يتأكد أن الطاهى من أفراد طبقته.

وهناك طبقة تعدها الطبقات السالفة دون الجنس البشرى ويطلقون عليها كلمة پارياه (Pariah) خصت بهم الأعمال الوضعة ولحق اسمهم العار، من بينهم الكناس والحانوتى والحلاق والمولدة وغيرهم، وقد حرموا التعليم، فلا يباح لهم القراءة حتى فى الكتاب المقدس ولا يدخلون المعابد، وليس لهم أن يستقوا من الآبار العامة، ولا يتقاضون أمام المحاكم، ولا يدخلون صيدلية ولا حانوتاً، وفى بعض المقاطعات لا يباح لهم المرور فى بعض الطرق العامة مخافة تدنيسها. فيبتاعون حاجاتهم بوساطة قوم يؤجرون على ذلك، ولهم أن يمارسوا مهنة التسول وعندئذ لا يقفون فى الطرق بل يصيحون وهم على بعد فإن ألقى إليهم المارة بالصدقات انتظروا حتى يفرغ الطريق من المارة وأسرعوا لالتقاطها والعودة عاجلا، ويعد البعض ظل أولئك نجساً فإن سقط على طعام وجب إتلافه، ومن هنا فهمت السبب الذى من أجله كنت أرى كل ركاب القطار يحملون (أعمدة الطعام) من أربع (طاسات) أو خمس، كلها من الأرز ذلك مخافة أن يصيب الدنس



(شكل ٤١) احدى نساء طبقة المنبوذين الأنجاس

الطعام وعندئذ يمكن إتلاف (طاسة) واحدة لا الجميع ، وبعض أفراد تلك الطبقة يدنس غيره وهو بعيد عنه من أثر تنفسه أو رائحته ، لذلك يقف أولئك على بعد قد يفوق مائة متر عن الطريق العامة ، فإن قرب أكثر من ذلك وجب عليه أن يضع فى عرض الطريق ورقة شجر خضراء ، وعايها كومة من تراب ليدل الناس بذلك أن هناك فرداً نجساً على مقربة ، فإذا رآها (البراهما) وقف وصاح غاضباً ، وعندئذ يعدو النجس حتى إذا ما بعد عنه بالمسافة المعينة صاح هو بدوره معلناً (البراهما) بالمرور ، وفى بعض الجهات (كساحل مالابار) لا يباح لهم إقامة المساكن الثابتة بل أخصاص مؤقتة ، ولقد كان من حق سائر الطبقات الممتازة أن يطعنوا من يعترضهم من هؤلاء طعنات قد تودى بحياتهم ، وإن حرم القانون ذلك اليوم ، وعدد تلك الطبقة من المنبوذين ستون مليوناً ، أى نحو خمس سكان الهند ، ولقد تخصص فريق منهم اليوم فى الإجرام والتشرد والدعارة ، وعددهم نحو ٤½ مليوناً ينبثون فى طول البلاد وعرضها تحت اسم القبائل المجرمة .

ولقد منحت الحكومة طبقة المنبوذين اليوم كثيراً من الامتيازات على رغم معارضة الطبقات الأخرى ، لكنك تجد هذا محترماً فى المدن الكبرى ، أما فى

الأرياف فيسلبون عملياً جميع حقوقهم ، ففي مقاطعة مدراس مثلا يبيح القانون قبول أولادهم فى المدارس ، لكنهم لا يدخلون سوى ٦٠٩ مدرسة من بين ٨١٥٧ مدرسة ، ويرى كثير من المتعلمين ورجال التشريع من الهنود وجوب مساواتهم بالغير ، لكنهم يقولون أن عملا



(شكل ٤٢) مثل من أمراء الهند الذين ينعمون على حساب شعوبهم البائسة

كهذا يثير السواد الأعظم من الهندوس ، لأن نظام الطبقات فى صلب الدين ، وقد بدأ منبوذو بنغالة وعددهم مليونان يناضلون ليدخلوا أبناءهم المدارس ، ويعتنق كثير منهم الإسلام والمسيحية تخلصاً من ظلم الطبقات المبيد .

والعجيب أنك لا ترى فرقاً فى الشكل بين الطبقات النجسة وغير النجسة ، وقد ترى من أفراد الأنجاس من يروقك منظره أكثر من أفراد الطبقات الممتازة ، على أنهم لا يجرأون أن يدخلوا مكاناً به أحد هؤلاء ، والمدهش أن غالب المنبوذين راض عن هذا النظام ، لأن الدين هو الذى يأمر به ، وإن أخذ عدد الثائرين عليه منهم يزيد يوماً فيوماً خصوصاً فى مدراس ويكتب كثير من

المتنورين من الهنود فى ضرورة بقاء نظام الطبقات احتفاظاً بأوامر الدين وهم يرون أن الأنجاس يكفيهم أنهم لم يغمطوا حقهم فى الآخرة !

إلى مدراس : ظل القطار ينهب الأرض فوق الدكن ، واخترق جزءاً من مقاطعة (حيدر باد) أكبر المقاطعات المستقلة ، حاكمها أوتوقراطى شديد البأس وصاحب ثروة خيالية تحكى ثروة سليمان ، إذ يعد أغنى أمراء الدنيا ، قدرت كنوزه بأربعين مليون جنيه ، والعجيب أنه مسلم مع أن تسعة أعشار رعاياه من الهندوس ، وهو أكثر الأمراء ولاء لانجلترا ، ويطلق عليه (نظام حيدر باد) وهو الوحيد الذى يسك نقوداً خاصة به تغاير سائر نقود الهند ورعاياه فى الجنوب من الدرافيديين وفى الشمال من الآريين ، والأراضى هنا فقيرة ذات حزون غالبها مهمل ، ولم أر بها من دلائل الخصب والغنى الذى كنت أقرأه شيئا ، وعلمت أن الأهالى يدفعون للحكومة روبية (٧ قروش) عن كل فدان انجليزى فى كل عام ، وغالب الجهات المنزرعة ينمو بها بعض أنواع الفول ثم العظلم (النيلة) وكان يبدو عشباً كالبرسيم فى ورق عريض ، على أنه يكبر فى شجيرات قصيرة تقتلع وتعطن فى الماء ، ثم تغلى فتسيل العصارة السميكة وتجهز فى أقراص هى النيلج المعروف ، وكان أظهر الشجر هنا نخيل (بالميرا) وهى شجرة تؤتى ثمراً كالنرجيل يأكله القوم ويستخرجون منه السكر ، وإذا خدشوا الجذع سالت منه عصارة سريعة التخمر يعمل منها خمر الطبقة الفقيرة المسكر القوى الذى يسميه القوم (تودّى Toddy) وإذا زرع الشجر حديثاً كون جذوراً نشوية خلال الثلاثة الشهور الأولى تقتلع وتجفف ويستمد منها دقيق الحلوى .

وهنا زاملنى فى القطار رجل تعرفت به بمناسبة عجيبة ذلك أننى لاحظت بجانبى على زجاج النافذة حشرة تطير ولها طنين أزعجنى فعمدت إلى قتلها فتعرض الرجل ومنعنى ثم تناولها بمنديله وألقى بها من النافذة وبمحادثته علمت أنه يدين بمذهب :



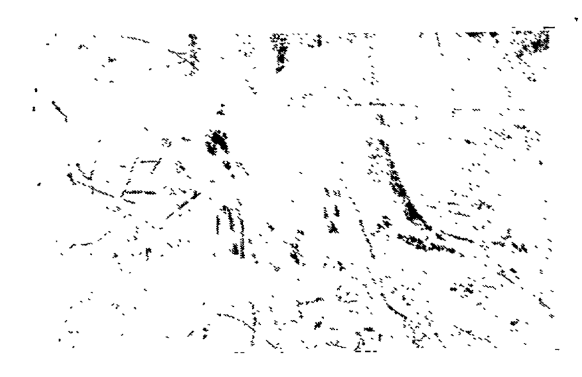
(شكل ٤٣) القردة تمرح آمنة حتى فى جوار السكة الحديدية

الجانيه : وهـذا يحرم إتلاف الحياة كائنة ما كانت من بينها الحشرات الضارة ، والنحل وما إليها ، حتى أنهم يحتمون كنس الأرض قبل الجلوس ، وعدم رش الأرض بمـاء كثير خشية قتل بعض الأرواح الطاهرة ، وتراهم يغطون أفواههم بقطعة من حرير خشية أن تدحل فيها حشرة أو بعوضة فتموت ، وهم لذلك يفضلون الاشتغال بالتجارة والصناعة ، ويكرهون الزراعة لأن المحراث يتلف كثيراً من الحيوان ، وتلك جريمة كبرى .

وعدد أولئك فى الهند يناهز أربعة ملايين ، وهم يدعون أنهم كانوا بوديين قبـل أن يخلق بودا نفسه ، وهم يتفقون مع عامة الهندوس فى الاعتقاد فى تناسخ الأرواح ، فهم يرون أن الروح تحل أجساداً أخرى قد تكون آدمية ، وقد تكون لطائفة من الحيوان بعضها من طبقة عاليـة ، والبعض من طبقة خسيسة ، فالرجل الفاسد قد تحل روحه بعـد موته سمكة أو حشرة ، ولما كانت جميع الحيوانات عرضة لانتحال روح آدميـة حرم الجميع قتلها حتى ولو كانت مؤذية ، فنى سنة ١٨٩٦ حين فتك الطاعون بالهند فتكا ذريعاً عين مجاس أمر تسار جوائز تصرف

لمن يمسك بالفيران كى تحبس بمـا فيها من براغيث ملونة حتى إذا ما انقضى خطر الطاعون أطلقت ثانية ، وفى كثير من البلدان تكثر الطيور الضارة كثرة هائلة فلا يتعرض لها القوم . فمثلا لمـا كنت فى كولمبو كانت صيحات الغربان المنفرة تلك التى تسير فى سحابات تكاد تكسو أعالى البيوت تقلق راحتى ، وكنت كل يوم أستيقظ حول الساعة الرابعة صباحاً على أصواتها المزعجة ، وكانت تقيم أوكارها فى جوانب الحجرات ، وزواياها بكثرة عجيبة ، و بعض الطيور يتلف المزارع ، ومع ذلك لا يمسها أحد بسوء ، وكأن طوائف الحيوان أحست ذاك الرفق ، فأضحت مستأنسة ، أذكر مرة أنى رأيت سربا من الطاووس يمر بجانبى فى محطة مغول سراى فى اطمئنان غريب ، وكم كنت أدخل من معابد أرى بها القردة تقف على كواهل الناس وتداعبهم فى غير خوف ، وقد رأيت قرداً فى سوق دلهى يسترق الفاكهة المعروضة و يأكلها ، والبائع يراه بعينه فلا يتعرض له ، وقد بلغ احترامهم للحيوان حد التقديس . فهم يقدسون القرد والفيل والنسر والطاووس والببغاء ، وحتى الأفعى التى يموت بسببها عدد كبير كل عام ترى لهـا معابد خاصة تمرح الأفاعى فيها ، وتنحت لها تمـاثيل يسجد القوم أمامها .

وصلت مدراس ومنها قمت صوب الجنوب فزادت الأرض فقراً وجـدباً ، ومررنا بمحطة ترتشنو پولى ذات الصخرة التاريخية المشهورة ، وهنا ركب إلى جانبى هندى بادن الجسم منفر المنظر ، وكأنه (الغول الآدمى) فجلس بجانبى ، ونصفه الأعلى عار ، ويطلى بشىء كالدهن لامع تعلوه وجبهته خطوط من التراب الدينى الذى كان يجدده بأصابعه بين ساعة وأخرى ليدل الناس على طبقته الدينية الممتازة خشية أن يدنسه من هو أدنى منه ، وهو من الوجهاء لمـا بدا من أتباعه وخدمه من ركاب الدرجة الرابعة الذين كانوا يفدون إليه فى الدرجة الثانية كلمـا وقف القطار ، وكان طوال الوقت يتمخط فى الهواء مرة كل دقيقتين ، و يبصق السائل الدموى من أثر العشب الذى يمضغه القوم جميعاً ، وكانت سيقانه وأقدامه عارية ،



(شكل ٤٤) ما زال قبائل الفدا أهل سرندب يجوبون الغابات بحالهم الهمجية

ولما حان ميعاد الغداء أخرج من جانبه قطعة من ورق شجر الموز ووضعها بجانبه وفتح عامود الطعام واغترف بكامل يده الأرز مرات ووضعه على ورقة الموز ، ثم صب عليه بعضا من مسلى البقر وعجنه بيده ثم أخذ يلعقه بسرعة واضطراب مخافة أن يقع نظرى على الطعام وهو يلتهمه فيفسده ، وقد أعاد الكرة من الطاسة الثانية ثم الثالثة وكلها من الأرز المسلوق ليس غير ، واختتم الوجبة بمسح يديه فى جسمه فى شكل قذر ، على أنى لا أغمطه حقه فى التأنق إذ كان يحلى يديه بالسوار العريض وأصابعه بالخواتيم الثقيلة وجسده بالعقود ، وأذنيه بالاقراط ، والشيب والشيخوخة قد نالا منه كثيراً .

وصلنا نهاية الهند الجنوبية ، وانتقلنا إلى جانب البحر كى نستقل السابحة عبر خليج منار إلى جزيرة سيلان ، وهنا جاء الطبيب وحجر على جميع الركاب الوافدين من مدراس لأنها كانت مصابة بالكوليرا ، وكاد يمنعنى من الدخول إلى الجزيرة لولا أن أبرزت له تذكرة السفر على الباخرة (فوشيمى مارو) إلى اليابان من كولمبو فى اليوم التالى مباشرة .

خاتمة : ذلك بعض ما رأيتـه فى بلاد الهند التى يخطىء الكثير فيعدونها قطراً واحـداً على أنها فى الحق قارة لا بل عالم بأسره إذ زاد عديدها على خمس سكان الدنيا ، وتعددت شعوبها الذين يتكلمون ٢٢٢ لهجة مختلفة ، ونحو خمسين لغة كتابية متباينة ، وقد اتسع نطاق عقائدهم من أعماق الفلسفة البرهمية الهادئة إلى سذاجة عبادة الطبيعة وتقديس الحيوانات الدنيا ، والهنود أكثر الناس تديناً و بخاصة الهنـدوس وهم ٢١٦ مليوناً ومجموع سكان الهند ٣٢٠ مليوناً ، وكانوا عباد الطبيعة منذ ثلاثة آلاف سنة ، ثالوثهم المقدس (المطر والنار والشمس) ، ثم أعقب ذلك اعتقادهم فى براهما روح القدس الذى يتغلغل فى كل شىء و يسود كل نفس ، ولا تكاد ترى عملا أو تصرفاً يتم فى معزل عن الدين ، لذلك مثلوا براهما فى رموز شتى نراها نحن مضحكة عجيبة ، فبراهما هو الخالق وله أربعة رءوس وأربع أذرع ، وهو فى معنى آخر يتمثل فى فشنو الإله الحافظ لكل شىء (يحمل طوقاً وصدفة ومضرباً وغصناً من البشنين كلا فى يد) ، وفى معنى ثالث يتمثل فى سيفا إله التـدمير والإنشاء يحوط أفخاذه جلد النمر ، ثم أعقبت ذلك رموز براهما المقدسة وهى : السمكة والسلحفاة والحلوف والإنسان يبدو فى صورة الأسد ، والبطل راما وكرشنا وآخرهم بودا الذى ضم إلى القائمة المقدسة استرضاء للبوديين ، أما البطل راما فكان له خادمه هانومان يعبده القوم فى شكل قرد عليه طلاء أحمر ، أما كرشنا فمخضب باللون الأزرق ويطأ أفعى بقدميه ويعزف على مزمار ، وكان له زوجات عدة وذرية لا حصر لها وتقدسه بصفة خاصة طبقة العمال وكانت زوج فشنو آلهة الجمال والثراء ظهرت من تحت ماء البحر وكأنها الزهرة ، ويقدسها أصحاب المتاجر والحوانيت ، أما سفا فمختاف إلى المقابر ومحارق الجثث وزوجته فالى (الفظيعة) التى لا يمكن استرضاؤها إلا بسفك الدماء ، وتقـديم الذبائح ، وابناها (جانش) مجـدد الحظوط بجسمه البادن يتوجه رأس فيل ، وكارتيكيا إله الحرب وقائد الأحياء من الجن .



(شكل ٤٥) أحد أبطال (الفقراء) خزم ظهره بين إعجاب مواطنيه

هكذا نشأت عقائدهم وتعددت آلهتهم وملأت آفاق الهند معابدهم وأنصابهم فى غير حصر حتى حق عليهم قول هيرودوت فى أجدادنا قدماء المصريين (أنهم أكثر شعوب الأرض تعبداً) لذلك أضحت البلاد مربى خصيباً للشعوذة والخرافات والمعجزات التى يعتقدها الجميع بإيمان وثيق ، فالقديسون فى زعمهم يستطيعون قطع الألسن وإرجاعها إلى حالتها الأولى ، وإلقاء حبل فى الهواء يظل عالقاً ثم يصعد عليه القديس ويعود وفى يده أشلاء ابن عاق لا يفتأ أن يعيده القديس إلى الحياة ، وأمثال تلك الخرافات عديدة بحيث يخيل للانسان أن كل شىء مهما بدا معجزاً يمكن حدوثه فى تلك البلاد المحوطة بالأسرار .

وعقلاؤهم يمضون وقتهم فى التفكير العميق ويضنون أجسادهم فى سبيل تغذية نفوسهم فتقتصر أمانيهم على خرقة تستر العورة ، وطعامهم لا يتجاوز سد الرمق ، وغلاتهم من مختلف المذاهب يسمون (الفقراء) و يقدسهم مواطنوهم لأنهم نبذوا الدنيا ورغبوا فى الآخرة ، فبعضهم يعذب نفسه و ينام على القتاد ، والبعض

يحزم ظهره ويعلق من جسده فى الهواء طويلا استرضاء للآلهة سيقا ، والبعض يدفن نفسه حياً أو يرفع ذراعه إلى السماء حتى تتصلب عضلاته أو يقف طوال حياته وهو يرعش جسمه ولا يتكئ على شيء يخفف من آلامه وتميز كل أولئك جدائل من الشعر ترسل فى غزارة منفرة .

ولا يفوتنى أن أشير إلى مبلغ الجهل المطلق والفقر المدقع الذى كنت ألمسه فى كل نواحى الهند حتى كدت أشك فيما قرأته طويلا عن تلك البلاد وما فيها من منابع للثروة والعلم لا تنفد . فالأمية هناك عامة والجهل منتشر ، وقد ساعدت على ذلك عوامل من بينها تعدد اللغات وتعدد حروف كل واحدة (بين ٢٠٠ و ٥٠٠ حرفا) وتعدد الطبقات وتعدد القرى وتفرقها بحيث يصعب أن تزود بالمدرسين إلى ذلك عدم الرغبة فى تعليم النساء وهن نصف السكان تماما وكذلك طبقة المنبوذين مما أخرج من دائرة التعليم نحو ١٥٠ مليوناً بين منبوذين ونساء إلى ذلك اعراض الأمراء عن تعليم الأفراد خشية أن يثوروا عليهم ، وعدم توافر المال للانفاق على التعليم .

أما جانب الثروة فهمل إلى حد كبير ، فالأراضى تزرع بطرق عتيقة و بغير تسميد ، والملكية مشتتة فى مساحات متفرقة ، وانتاج الماشية معطل لأن ٧٠ مليوناً منها فى ملكية المعابد إلى ذلك نفقات الزواج التى تلزم الآباء أن يدفعوا لبناتهم أموالا طائلة . أما الاستدانة بالربا الفاحش فشائعة بين الجميع حتى قدر الدين على الهند من تلك الناحية بنحو ٤٠٠ مليون جنيه (الربا بين ٣٣ و ٢٠٠ ٪) ويميل عامة الهنود إلى اكتناز المال و بخاصة الذهب ما استطاعوا بغير توظيف ، ولا يقل ما هو مكنوز عند الأهالى عن ٥٠٠ مليوناً ، فلو وظف هذا لأصبحت الهند من أغنى بلاد الدنيا ، و يقول رجال الاقتصاد إن الهند وحدها تبتلع ٤٠٪ من انتاج الذهب فى الدنيا و ٣٠٪ من الفضة فى كل عام ، ولا تنس أثر التسول فى فقر البلاد ، فالدين البرهمى يحث الناس على التصدق للمتسولين لأن ذلك يعد ديناً لهم

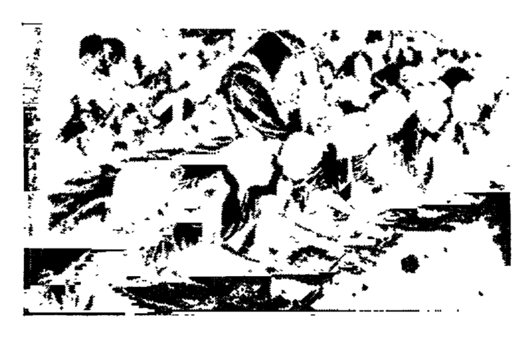
يتقاضونه فى الآخرة ، ولقد نما عدد أولئك حتى بلغ ٧½ مليوناً من بينهم طبقة الفقراء وهم مليون ونصف تقريباً هذا إلى عدد البراهما الذى يتعذر حصره .



(شكل ٤٦) الفقير المخزوم يتدلى من تلك الرافعة إمعاناً فى تعذيب نفسه

ويُعد كثير من الهنود نفقات الدفاع أكبر مبدد لثروة البلاد إذ تستنفد فى زعمهم ٥٩ ٪ من الميزانية فلا يبقى شىء يذكر لينفق منه على إصلاح شئون البلاد ، وإن قرر الانجليز أنها لا تزيد على ٣٠ ٪ أى بمعدل ٢½ شلن على كل فرد فى الهنديدفعها فى كل عام أعنى فوق ثلاثين مليوناً من الجنيهات .

على أنا يجب أن نذكر أن مدنية الهند بدأت قبل المدنيات الأوربية وإن ظل سيرها بطيئاً وتقدمها غير محسوس ويرى بعض أبنائها أن مدنية الهند لها فضل على العالم من الناحية المعنوية التى تسعى وراء المثل الأعلى لا المادة كما فى الغرب ، ويرى بعض الحكماء أن الهند منشأ الإنسان ومنبت فطنته ، ففى تلال (سيواليك) الواطئة جنوب سملا وما يليها شمالا بغرب إلى أفغانستان دفائن قيمة لفصائل بائدة من حيوان يرجع عهده إلى العصر الثالث الجيولوجى ، وهى أكبر مجموعة كشفت لحفريات الحيوان الثديى دلت على أن شمال غرب الهند هى المنطقة التى نشأت فيها ، ومنها تشعبت سلائلها إلى جميع الأصقاع ، ولذلك أصبحت تلك الزاوية من الدنيا



(شكل ٤٧) فى مواسم الحج تأكل كل طبقة من الهندوس وحدها وتقدم الصدقات من طعام الأرز على ورق الموز بدل الآنية حتى لا تدنسها

محط أنظار الباحثين من مختلف الأوساط العلمية ، وهم يرجحون أنها مولد الإنسان الأول .

المـــــــلايو

جنة الدنيا و بستانها اليانع

الى سـنغافورة والملايو : فى خمسة أيام بعد مغادرة كولومبو أقبلنا على سنغافورة وسط الجزائر المنثورة إزاء ساحلى سومطرة إلى اليمين ، وشاطئ الملايو إلى اليسار ، والبلاد صخرية على الجانبين ، و بخاصة سومطرة التى بدت فى شكل مخيف بر باها المعقدة التى تتعاقب كأنها عقد من جبال لانهائيه ، وكنا نقدم ساعاتنا كل يوم حتى بلغ مجموع ما قدمناه من كولمبو ساعة ونصفا ، وكأننا بذلك كنا نتعجل الأيام ونسابقها إذ كنا نقارب مشارق الشمس فيبكر ميقات الظهر كل يوم عن سالفه .

سنغافوره : (ومعناها مدينة الأسد) : بدت ممدودة الأرصفة على جوانب الربى التى ينلوى خلالها البحر فى عدة أجوان مكننها أن تؤوى من السفن شيئاً كثيراً ، كل طائفة فى مقصورة منعزلة عن الأخرى ، وعلى جوانب الربى تقوم المساكن بسقوفها الحمراء المتحدرة ، وتشرف عليها الحاميات العسكرية العاتية . حللت المدينـة فاسترعى نظرى بها حسن القيام على طرقها الفسيحة النظيفة ، تجانبها المجارى لتصريف مطرها الوابل المستمر ، والترام هناك يسير على الأرض فى غير قضبان يكسو عجله المطاط المصمت ، وله سنجتان متجاورتان تتصلان بسلكين ، وهو يسير بمهارة عجيبة ، ويتلوى من جانب إلى الآخر ، والسنجة لا تزال متصلة بالأسلاك وغالب البيوت فى هندسة بسيطة لا تزيد على طابقين ، وتشرف على الطرق ببوائك ضيقة بدل الأطارين اتقاء المطر ، وعليها تقوم المحال التجارية باعلاناتها التى تكتب بالصينية والانجليزية ،

فى شرائح مستطيلة ، وغالب السكان من الصينيين يليهم الهنود ثم الملايو ، ومن الغريب أن الذين يفهمون الانجليزية قليلون ، ويشق الجزيرة نهر سنغافورة الصغير تجانبه شعاب البحر الضيقة وكأنها القنوات تعبرها القناطر العديدة ، والمتنزهات الجميلة والميادين الجذابة لا تدخل تحت حصر ، والمدينة خفيفة الروح إلى حد يجعلها من المدائن النادرة ، وفى المساء دخلت ملهى تعرض به بعض ألعابهم أذكر منها مقصورة الغناء الصينى ، كان يجلس الفتيات حول مائدة عليها الأنوار وحولها المصابيح المعلقة من الورق الصينى الملون ، وكان يقف خلفهن قارع الطبل وضارب الناقوس وعازف (الرباب) ، أما الغناء فتوجع فى غير توافق ، وكانت تخفى شدة الطبول المزعجة تلك الأصوات المنفرة ، ثم مقصورة للرقص الصينى وغالبه بحركات الأرجل والأيدى ، وثالثة للتمثيل على النمط الهزلى المصرى ، ولم يكن تزاحم القوم على تلك الملاهى كبيراً رغم رخص أجورها ، وكانت تسترعى نظرى الثروة الهائلة فى النبت من حولى أينما حللت ، مما أيد القول بأن الملايو جنة الدنيا و بستانها اليانع ، وأخص أنواع النبات هناك (المطاط) بأشجاره الفضية النحيلة الباسقة التى تعد اليوم أعظم موارد الثروة هناك ، على الرغم من أن أثمانه قد تدهورت تدهوراً مخيفاً حتى بدأ القوم يفكرون فى استبداله بغيره ، وقد كانت النباتات متعددة وغلات البلاد منوعة ، لكن علو سعر المطاط حدا بهم إلى استئصال كل ما عداه حتى كاد شجره اليوم يسد الآفاق مع أنه دخيل أتى به القوم من أمريكا عقب أن كشفها كولمب الذى رأى صبية الأمريكان يلعبون بالمطاط الكرة فتساءل ماذا عسى أن تكون تلك المادة التى تبدو صماء ثقيلة فإذا ما لمست الأرض أضحت جوفاء خفيفة ، فأجابه القوم قائلين (كاوتشو) وأروه شجره وعصيره الذى إذا سخن جمد وكون تلك الكور والأقراص السوداء ، وكذلك رآه بتزارو فيما بعد فى بيرو وقد ضايقه المطر فرأى الأهالى يلبسون أحذيتهم وأغطية رءوسهم من (الكاوتشو) فنقلوه إلى الشرق ولم تعرف فائدته

فى مسح الكتابة إلا بعد قرنين ونصف ، وفى القرن التاسع عشر استخدم فى الأنابيب ، ثم صنع منه (ماكنتوش) رداءه الواقى من المطر بأن ألصق قطعتين من القماش بمطاط رخو لين وأخيراً عرفوا كيف يخلطونه بالكبريت ليحتمل تقلب الأجواء ، ولما زادت شهرة المطاط زرعه الانجليز فى حديقة (كيو) فى لندن داخل بيوت زجاجية ، ومنها نقل



(شكل ٤٨) أمام مسجد سنغافورة

إلى المستعمرات الشرقية ومن بينها سيلان والملايو ، وهنا أحرق القوم أشجارهم جميعاً ليخلو الجو لشجر المطاط ، وكنا نرى العمال فى المزارع يجوبون أرجاءها بمشارطهم التى يشقون بها خدوشاً تسيل منها العصارة إلى كيزان معلقة ثم يجمع العامل الواحد فى كل يوم محصول ٣٠٠ أو ٤٠٠ شجرة وينقله إلى المصنع وسط المزرعة ليغلى ويصير أقراصاً هى المطاط الخام ، وقد كان يباع الرطل قديماً بستين قرشاً فنزل اليوم إلى قرشين ونصف ، لذلك حل بالبلاد كساد لم يسبق له مثيل ، وأفلس فى المطاط كثير من كبار التجار هناك ، على أن البعض يرى بصيص أمل فى أن هذا الرخص سيزيد الطلب على المطاط ، فيعود إلى حالته المربحة رغم ثمنه الضئيل .

سلطنة جوهور : من ضواحى سنغافورة ركبنا إليها سيارة عبرت جزيرة سنغافورة كلها سائرة إلى الشمال صوب الملايو ، ولا تسل عن ثروة الطريق فى الأدغال والغابات بعضها غفل لم تمسسه يد الإنسان . وهنا كدنا نذهل لتعدد الفصائل من الشجر والعشب والسرخس إلى ذلك الحيوانات الوفيرة ، و بخاصة القردة التى كانت تطل علينا من جميع جوانب الغابات ، و يقول القوم بأن تلك الأماكن غنية جداً بالأفاعى والخفاش واليراعة و بعض الوحوش ، أما طريقنا فكان يتلوى كالأفعى وسط الغابات القائمة ، وحيث كانت تتعهد الأرض يد الإنسان ، كنا نرى أشجار المطاط فى صفوف متوازية تكاد تملأ ثلاثة أرباع الأراضى ، وقد مررنا ببعض المزارع وفيها بدأ ذووها يستأصلون الشجر ليفسحوا المجال لغيره كالخضر والفاكهة ، و بخاصة الأناناس الذى كان يبدو نباته وكأنه الصبار الكبير تتوسط كل شجيرة ثمرة واحدة فى طول (كوز الشمام) وفى لون برتقالى وملمس خشن محبب ، وكلما قطعت الثمرة أعقبتها غيرها ، و يستمر الاثمار طول العام .

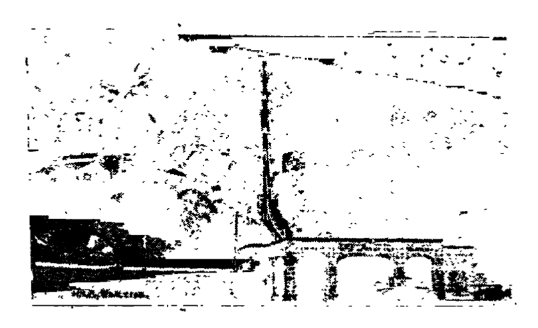
لبثنا نسير بالسيارة وسط تلك الجنة النادرة زهاء ساعتين ، و بعدها عبرنا البوغاز إلى الملايو فدخلنا ساطنة جوهور ، وهى إحدى ولايات الملايو التى يحكمها سلطان مسلم تحت إشراف الانجليز ، وعند ما فار بنا قصر السلطان دخلنا فى مجموعة من متنزهات أبدع تنسيقها ، يتوسطها قصر من طبقتين ، تمد فى الدور الأسفل غرف الولائم وعليها السمط الفاخرة وغرف المعروضات من الهدايا بين فضة وذهب وأسلحة ، وفى الدور الأعلى غرف الجلوس والنوم وكلها على النمط الغربى والسلطان زوج لأحدى الأوروبيات قلما يقيم هناك ، فهو يمضى تسعة شهور خارج بلاده يعيش عيشة بذخ و إسراف شديد ، والناس من دونه يكاد يقتلهم الفقر ، وهكذا سائر الأمراء أمثاله فى تلك الولايات ينعمون على حساب الرعايا البائسين . فسبحان مقسم الأرزاق ! و بجانب القصر مسجد فى هندسة شبه مغولية



(شكل ٤٩) فتيات الملايو فى سحنهم العربية الجميلة بجمعن المطاط

تقوم حوله أبراج بدل المآذن وبهوه فاخر النقش والأثاث ينزل الإنسان درجاً من رخام إلى المغسل (الميضة) الفسيحة للوضوء ، وفى عودتنا إلى سنغافورة زرنا حديقة النبات ذائعة الصيت ، وبخاصة فى مجموعة أشجار الفاكهة الممتازة

أبحرت الباخرة وظلت تسير خلال مجاميع الجزائر تكسوها الغابات والربى زهاء ثلاث ساعات مما يقنع المرء بعظمة هذا الموقع من الوجهة العسكرية فهو حقاً مفتاح الشرق الأقصى ، ولذلك ليس بعجيب أن وجدنا العمل سائراً على ساق وقدم فى إنجاز القاعدة البحرية الكبرى رغم أكلافها الباهظة التى لا تقل عن أحد عشر مليون جنيه ، وأول من احتل جزيرة سنغافورة (السير ستامفورد رافل) سنة ١٨١٩ وكانت تكسى بالغابات المهملة ، وبها قرية حقيرة فابتاعها الانجليز من سلطان جوهور بخمسة آلاف جنيه و ١٥٠٠ جنيه كمرتب سنوى يدفع مدة حياة ذاك السلطان ، واليوم تضخم سكانها فأضحوا ٤٢٠ ألفاً منهم ٣١٥ صينيون و ٥٤ ملايو و ٣٢ هنود ، ولكثرة التزاحم هناك بدأت الحكومة تفكر فى تحديد المهاجرة إليها واعترافا بفضل (السير رافل) ترى تمثاله يزين أكبر ميادين المدينة ، واسمه ذائع فى كثير من منشآتها .



(شكل ٥٠) صخرة پنانج تـكسوها الغابات ويتسلقها ترام الجبال

أما سائر الملايو فتتألف من ولايات بعضها مؤتلف والبعض تحت سلاطين مستقلين وجميعهم تحت إرشاد الانجليز ، وأول مكان احتله الانجليز من شبه الجزيرة مدينة ملقة التى انتزعوها من هولندة ، ثم پنانج وهى جزيرة على الساحل الغربى ، وكانت تدير كل ذلك شركة الهند الشرقية ثم انتقلت للتاج البريطانى ، ويغلب أن تكون الجهات التى تقام بها الحصون الانجليزية إلى الجانب الغربى من الملايو لتشرف على البوغاز .

رسونا على پنانج : فى عودتى لمصر ويفصلها عن الملايو بوغاز ضـيق يؤوى عدداً كبيراً من السفن ، والجزيرة صخرية يحيط بشاطئها طريق مبسوط محيطه ٢٦ ميلا ، وتقام غالب المساكن على جانب ذلك الطريق ، على أن بعضها كان يقوم على منحدراتها التى يعـلو بعضها إلى ثلاثة آلاف قدم . أما الطبقة الممتازة فتقطن الذروة التى تصلها بقطار كهربائى هوائى . ومن هنالك ينكشف منظر البحر وشتى جزائره فى رواء ساحر ، ومبانيها شبيهة بتلك التى فى سنغافورة وكذلك ساكنوها ، ولعل أجملهم سحنة الملايو فهم أقرب إلى الملامح العربيـة فى سمرة خفيفة ، وهم أخف روحا وأكثر جاذبية من الصينيين والهنود وتعوز الجميع النظافة

وعالبهم يبدو بجسمه العارى البراق المنفر ، وقد التصقوا بجدران دورهم فى خمول زائد ، ولعل للجو الرطب الحار المجهد أثراً فى هذا ، أما ضواحى المدينة فتكسوها الغابات الكثيفة وكان أظهر شجرها النرجيل والمطاط وبعض أشجار الفاكهة الغريبة كالمانجوستين والرامونداان والدوريان ، ولغالبها أهداب فى ألوان مختلفة ، كذلك فاكهة الخبز والأناناس



(شكل ٥١) تقوم بيوت الملايو على عمد من خشب وسط الغابات

وكثير غيرها ، وكانت تقوم مساكن القوم وسط تلك الغابات شأنها فى جميع بلاد الملايو على عمد من جذوع الشجر لاجتناب السيول والحشرات وليستظلوا بالشجر الكثيف من وهج الشمس الاستوائية ، وهناك حديقة للنبات شبيهة بتلك التى فى سنغافورة ، ولعل أغرب ما زرته هناك معبد الأفاعى ، دخلناه فراعتنا كثرة الأفاعى الطليقة التى لا تصيب أحداً بأذى رغم أنها كانت تسير حولنا وتزحف فوق أكتافنا بأحجامها المختلفة ونقوشها البديعة ، وكان كثير منها يتدلى من الأركان والمصابيح والشرفات وعددها مائتان تستهلك فى اليوم مائة بيضة ، وهى تخرج لتمرح فى الغابات المجاورة للمعبد ليلا ، وتظل طوال نهارها داخل المعبد ، وغريب أنها لا تؤذى رغم وجود أسنانها ، وكنا نرى كثيراً من جلودها الشفافة



(شكل ٥٢) معبد الأفاعى تمرح به الحيات وتتدلى من جميع الأركان

التى انسلخت عنها معلقة فى كامل طولها ونقشها ، وهناك فى قفص كبير أفعى بالغة الحجم والطول تنفر نفرات مخيفة كلما أحطنا بها ، ورواد المعبد يقدسون تلك الأفاعى ، ويقدمون لها المساعدات المالية إبقاء عليها و إجلالا لها .

ونفقات المعيشة فى تلك البلاد عالية إلى حد لا يطاق رغم أن المرء يزهد فى المقام فى جوها المحرق القتال .

غادرنا الملايو وسنغافورة صوب بلاد اليابان و بعد خمسة أيام وصلنا هنج كنج وفى ثلاثة أيام أخرى رسونا على شنغهاى . ثم تبعتها كو بى أول ثغور اليابان فى ثلاثة أيام أخرى .

اليـابان

آية العصر فى الاخلاص والنهوض

نبذة تاريخية : يبدأ تاريخ اليابان منذ عهد الامبراطور (كيماى رِتنو) سنة ٥٤٠ ميلادية ، وسبقه نحو ألف عام سادتها الأوهام والأقاصيص عن بعض الأبطال إذ لم يدون عنها شيء باليقين ، وفى القرن السادس دخلت البوذية البلاد وبدأت مدنية اليابان الحقة ، فلقـد أحضر القسس من كوريا كتبهم المقدسـة ، ونقلوا معهم فن الطباعة وتماثيل بوذا وطائفة من صانعى التمـاثيل وبناة المعابد والمصورين والمثالين والمدرسين ، ونشروا التقويم والحساب الصينى ، ولقـد ساد الدين الجـديد عقول البلاط حتى عدوه دين الدولة سـنة ٦٢١ ، وعد الأمير (شوتوكو) مؤسسه ، على أن دين البلاد — الشنتوى — قاوم الدين الجـديد فى البدء ، لـكن سرعان ماتهادن الإثنان لـما أن اعترف البوذى بالآلهة الشنتوية ، نهض عندئذ الفن اليابانى ، ونشطت العمارة فظهرت آثارها فى معبد (هوريوجى) أقدم بناء أقيم من الخشب فى العالم والأثر الوحيد الباقى اليوم الذى أقيم على نمط الهندسة الـكورية والصينية منذ ١٣٠٠ سنة .

وفى صدر القرن السابع سادت الحضارة الصينية الناس جميعاً حتى فى نظام الحـكومة الذى تغير من الحكم الإقطاعى إلى الملكية (سنة ٦٠٣) فقسمت فروع الادارة على النمط الصينى ، ونشأت طبقة من الأشراف ، على أن هذا النظام كان له خصوم فساعدت المشادة بين الفريقين على قيام هيئة عسكرية امتازت على جماعة الزراع واتخذت(نارا) عاصمة البلاد كلها سنة ٧١٠ وهنا ازدهر الفن ، يؤيد ذلك التمثال الأكبر (ديابوتسو) لبودا ولا يزال أكبر تمـاثيل اليابان من النحاس ثم الناقوس الأكبر وكذلك أقدم كتاب خط باليابانية .

وعلى أثر ازدياد الحماسة للدين الحديث كثرت المنشآت الدينية ، واتسعت أملاكها وثروتها تحرسها فئة مسلحة لم تلبث أن تدخلت فى شئون الدولة ، فلم تر الحكومة بدأً من نقل العاصمة إلى كيوتو سنة ٧٩٤ التى ظلت مهداً للحضارة أربعة قرون ، حتى كانت سنة ١١٩٢ حين أقام (يوريتومو) حكومة عسكرية فى كاما كورا فأصبح نفوذ الحاضرة الامبراطورية (كيوتو) صورياً بجانبها واختار وزراءه من زعماء عائلات خاصة طالما أدى التنافر بينها إلى قتال داخلى ، وآلت سلطة البلاد إليهم ، وأصبح الميكادو لا حول له ولا قوة .

أخضع (يوريتومو) البلاد جميعها وازدهر فى كاما كورا نوع من الحضارة ساذج يلائم الروح العسكرية إذ ذاك ، ومن العائلات التى سادت متعاقبة فوچيوارا ، وطايرا (هايكى) وميناموتو (جنجى) ، ومن الأسرات العامة عائلة (هوجو) التى سادت مائة سنة ، حتى غلبتها أسرة (تيتا) حين أحرقت العاصمة كاما كورا وأعيد الامبراطور (جودايجو) من منفاه ، فزادت حركة العصيان حتى قامت حكومة (شواجن آشيكاجا) فى كيوتو ، وهنا امتاز العصر بالتهذيب الذوقى والرقى الفنى ، وانتشرت حفلات الشاى والتمثيل والرقص على نمط (نو) القديم ، ونشطت التجارة مع الصين ، وتزاور القسس ورجال الفن بين البلدين ، وفى سنة ١٥٤١ وصلت أول باخرة برتغالية وتبعها الاسبان ، ثم أسست أول بعثة للجزويت سنة ١٥٤٩ .

سادت الفوضى البلاد مائة عام حتى جاء (هيديوشى) فهدأها وحاول فتح كوريا والصين سنة ١٥٩٢ ، لكن أهل كوريا بمعاونة الصين وقفوا فى سبيله وتبع هذا نزاع داخلى أدى إلى انتصار (أيياسو) من أسرة (طوكوجاوا) سنة ١٦١٥ وظلت حكومة شواجن تلك الأسرة ٢٥٠ سنة استمتعت البلاد خلالها بالسلم والانتعاش ، خصوصاً وأنهم أباحوا حرية الاتجار والعقائد ، فشجر النزاع بين الهولنديين والبرتغال سنة ١٦٣٧ فتدخلت الحكومة اليابانية وقاومتهم بالشدة

وحرمت على الأجانب الدخول إلى بلادها ، حتى كانت سنة ١٨٥٣ حين أقبل الكومودور پيرى من أمريكا يطالب اليابان بفتح ثغورها للتجارة الأجنبية ، فأسرع الشواجن إلى الميكادو ، وكان قبل مهملا ، فطلبوا منه السماح بذلك ، فرفضت الحاشية وقرروا طرد الأجانب جميعاً بقوة الدايميو ، فرجع الأجانب يطالبون بالتعويض عما فقدوا من بواخر ورعايا ، ولما ظهر الشجون (كايكى) إذ ذاك بالعجز عن معالجة الموقف تنازل عن حقوقه للميكادو الذى استعاد سلطته لأول مرة بعد أن سُلبها ألف عام .

ومنذ ١٨٥٨ أمضت البلاد عدة معاهدات مع الأجانب وبدأت تشعر بحاجتها للنهوض كى تمشى مع العالم المتمدين ، وكان فى عجزها أمام الأجانب حين أرغموها على التعويض خير حافز لها على بناء الجيوش والأساطيل التى زادت سمعتها فى انتصارها على الصين سنة ١٨٩٢ وعلى الروسيا سنة ١٩٠٤ حين بسطت نفوذها على كوريا وشبه جزيرة لياوتونج وسكة حديد منشوريا وجنوب سخالين وفى ١٩١٠ تم لها ضم كوريا نهائياً ، وتعاونت مع الحلفاء فى عصيان الملاكمين (Boxer) وفى الحرب الكبرى خطت إلى الأمام خطوات الجبابرة وأصبحت آية الدنيا جميعاً فى التقدم والنهوض .

اليابان

أصبحنا والجزائر الصخرية تنتثر من إيماننا وشمائلنا فى غير حصر ، وشعر اليابانيون أنهم فى دارهم لما كان يبدو على وجوههم من بشر وكبرياء وتفاخر ، إذ كنا نرى البواخر اليابانية تمخر عباب الماء بين الجزائر المترامية فى كثرة هائلة ، وكانت تبدو على ذرى تلك الجزائر الحصون العاتية وساريات البرق اللاسلكى ، وكلما أوغلنا فى تلك المياه اليابانية بدت منعة المكان ذاك الذى لن يدركه العدو كائنة ما كانت قوته ، ولا شك أن لموقع جزائر اليابان فضلا كبيراً فى دفع غائلة



الأجنبي عنها ، ويحظر القوم إظهار آلة التصوير فى تلك البحار ، وكنت أراهم طوال المدة يتطلعون بشيء من الإكبار لوطنهم والإخلاص له ذاك الإخلاص الذى أضحى مضرب الأمثال ، وكم كنت أغبطهم على موقفهم هذا وأتألم لنصيبنا من تلك العزة ، بدت إلى يميننا جزيرة كيوسيو (ومعناها أرض القارات التسع) ثم تبعتها جزيرة سيكوكو (أرض القارات الأربع) وكانت تبدو مداخن المصانع العديدة شامخة فى السماء ، ولبثنا النهار كله والجزائر تترامى والبواخر اليابانية تمر تباعاً ، أما مشاهد الطبيعة هنا فساحرة ، جزائر تترامى فى أشكال هندسية متباينة تميزها الخاريط البركانية وتكسوها الخضرة المدرجة والسماء تنتثر بالسحب الخفيفة التى تنعكس عليها أضواء الغروب فى بريق يستهوى القلوب ، ويسمون ذاك القسم البحر الداخلى وهو يمتد بين الجزيرتين السالفتين جنوباً وجزيرة هندو (القارة الرئيسية فى لغتهم) شمالا وامتداده ٢٧٠ ميلا ويتسع ما بين ثلاثة أميال وثلاثين ومجموع جزائره تناهز ثلاثة آلاف ، ولعله أجمل بحار اليابان طراً .

أقبلنا على كوبى : أكبر ثغور اليابان التجارية ، وهى تقوم فى حجر جبل مشرف تكسوه الغابات وتزين منحدراته مبانى المدينة فى رونق جذاب ، وما كدت أطأ أرضها حتى بدت الحياة اليابانية فى مظهرها العجيب الجميل ، الناس يسيرون فى سيل دافق ، كل إلى عمله بنشاطه المشهور ، وأنت لن ترى

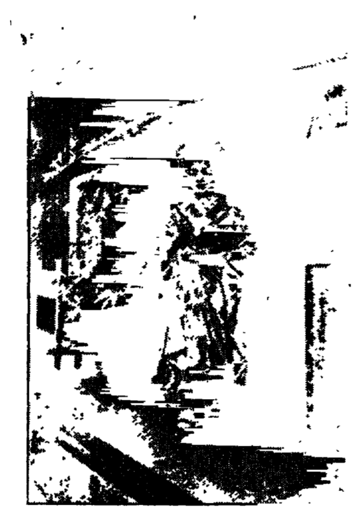


(شكل ٥٣) البحر الداخلى وحزائره الأنيقة المترامية

منهم عاطلا أو خاملا ، ولا تسمع لكثرتهم جلبة ولا ضوضاء ، اللهــم إلا قعقعة أحذيتهم الخشبية (قباقيبهم) نساء ورجالا تلك التى تسترعى الأنظار ، وقد تثـير السخرية بادئ الأمر على أنها خير دافع عنهم أثر رطوبة جوهم إلى الاقتصاد فى أكلافها ، والعجيب أنك تراهم يسيرون بها فى سرعة عجيبة وإن اعوجت مشيتهم حتى ليخيل إليك أن فى أرجاهم غمزاً ، والجميع يلبسون الأردية الفضفاضــة التى يسمونها (كيمونو) وكأنها (القفطان) بأكمامه الهادلة المتسعة وحزامه العريض والرداء يكاد يلمس القدمين لطوله ويغلب أن يكون من قماش خشن بسيط اللون للرجال لأنهم يمتدحون الخشونة والتقشف ، أما النساء ففى حرائر مهفهفة وألوان فنية ساحرة وتحاول كل سيدة ألا تلبس من لون سبقتها إليه غيرها ، لذلك اضطر النساجون أن يحيكوا هذه الأقمشة قطعاً مختلفة تكفى كل لرداء واحد ، ولعل أعجب ما فى السيدة حزامها وشعرها ، أما الحزام (أوبى) فبالغ الطول والعرض عرضه فوق ثلث المتر وطوله أربعة أمتار إلا قليلا ، يلف حول الجسم مرتين ، ثم يربط الباقى فوق الظهر فى شكل منتفخ كأنه الفراش بديع اللون ، خلته بادئ الأمر وسادة تحملها السيدة كى تتكىء عليها إذا ما جلست ، وما كان أشد خجلى عند

ما سألت أحدهم : لماذا تحمل السيدات تلك الوسائد الثقيلة ؟ فخبرنى وهو يضحك أنه رباط الزينة والتجمل (فيونكا) ، وقد علمت أن متوسط ثمنه لايقل عن عشرة جنيهات .

والنساء سافرات ، ورؤوسهن عارية يكسوها تاج طبيعى من شعر أسود براق ثقيل ، يعنون بتنسيقه العناية كلها وهو الذى يعد مقياس الجاه والجمال ، وتراه يكور ويطوى فوق شباك من السلك فى أشكال هندسية عجيبة جذابة تختلف باختلاف الطبقات والأعمار ، والأغنياء يستقدمن الماشطات فى كل أسبوع لتعده ولا يقل أجرهن عن جنيه ، وتظل شباكه الأسبوع كله أو تزيد .



(شكل ٥٤) حسناء يابانية فى كامل ردائها القومى

أما الوجوه فمصفرة اللون منحرفة العيون ، ويغلب أن يستخدمن الأدهنة البيضاء لا الحمراء ، وجمال الوجوه نادر وإن كانت الرشاقة والجاذبية بالغة حداً كبيراً يزيدها حسناً ذاك الهندام العجيب فى ألوانه الرقطاء الزاهية ، وتلك المشية التى تخب بها السيدة وكأنها البجع الساحر .

قمنا بجولة فى جهة ريفية تسمى : أراشياما فى قاطرة كهربائية سلكت طرائق

متاوية تحوطها الغدران والتلال تجللها الغابات فى مناظر ساحرة شأن سائر الريف هناك ، وأخيراً حللنا القرية التى تقوم على جدول ماء يتلوى يمنة و يسرة وسط الربا الشاهقة تتخللها البيوت من خشب فى شكل نظيف أنيق و بعض أجزائها تتخذ حوانيت ومقهى صغيرة ، وكنا نرى السلع تعرض وعليها أثمانها فيمر الواحد ويتناول ما يريد ويلقى بدريهماته فى صندوق مغلق فى غير حاجة إلى رقيب ، فانظر مبلغ الأمانة



(شكل ٥٥) الشعر آية التجمل عند اليابانيات

والثقة المتبادلة بينهم ! أخذنا زورقا وذهبنا فى الغدير بعيداً وسط الخضرة الوفيرة والجنادل والمنحدرات تحوطها الزهور ، وهكذا طبيعة اليابان فى كل ناحية منها ، فليس بعجيب أن يقدرها أهلها و يعشقوها بل و يعبدوها ، وهم ينقلون عنها أسماءهم إذ تراهم يحملون اسم جبل شامخ أو ذروة سامقة أو حقل ممتد أو مرج جذاب ، كذلك فهم يقدسون المكان الجميل ، فتقوم عند مدخله أقواس من خشب هى شعار التقديس لديهم ، ولا يخلو مكان جميل من معبد لأنهم عبدوا طبيعة بلادهم الطاهرة ، و يخال بعضهم أن تقديسهم لوطنهم أثر من آثار جمال بلادهم التى استمالتهم فعبدوها وقدسوها ، إلى ذلك الزهور التى نبغوا فى تميقها وترتيبها حتى الأطفال منهم فلهم فى تنسيقها نظم تختلف باختلاف البيئات والمناسبات فكل تصنيف منها يدل على معنى خاص يفهمونه لمجرد النظر إلى باقة من الزهر ، وهى فى مقدمة ما يتعلمه النشء فى المدارس و بخاصة الفتيات ، ولا يكاد يمضى شهر لا بل أسبوع لا ترى به طائفة جديدة من زهور وهم لذلك يحبذون الحساب

بالتقويم الزهري فتراهم يؤرخون الخطاب مثلا بزهرة كذا بدل كتابة التاريخ لأن لكل أسبوع طائفة خاصة من زهور يعرفها الجميع .



(شكل ٥٦) تربية الزهور يدرسها حتى الأطفال منذ نشأتهم

آوينا بعد تلك النزهة الساحرة إلى نزل يابانى وما كادت تقف بنا السيارة أمامه حتى أسرع أصحابه رجالا ونساء ملاكا وأتباعا يتقدمهم رئيسهم لاستقبالنا شأنهم مع كل ضيف وصاحوا جميعاً صيحة ترحيب أعقبتها سلسلة انحناءات عاجلة متكررة تكاد تلمس فيها جباههم الأرض احتراما وتأدباً ، والعادة أن يرد الضيف التحية بأحسن منها وإلا عد ذلك من سوء الأدب فأخذنا ننحنى مرات كنت خلالها موضع سخرية أمام نفسى لأنى لم أكن أعرف كيف تكون وما حدودها . بعد ذلك تقدمنا نحو المدخل فراعنا صفيف (القباقيب) والأحذية على جانبيه وكلها لنزلاء الدار إذ يجب خلع الأحذية جميعاً أمام البيوت والفنادق فخلعنا عنا أحذيتنا وناولتنا الفتاة (خفا) من الخوص وكلها صغيرة الحجم لأن أقدامهم أصغر بكثير من أقدامنا ، أخذنا نسير به فى دهاليز الدار وكلها تقام من خشب يطلى بأدهنة براقة غاية فى النظافة ويهتز تحت أقدامنا وكان النزل من طبقتين ، ولما أن وصلنا غرفتنا خلعنا الخف أمامها ودخلنا غرفة صغيرة تفرش أرضها بقطع من الحصير السميك الطرى يحوط كل واحدة افريز أسود ، ولا تكاد ترى داخلها من الأثاث إلا منضدة واطئة فى الخرط اليابانى

حولها الحشيات (الشلت) الوثيرة يجلس القوم عليها ركعاً طوال الوقت ، وخلف الضيف مقصورة هى لديهن موضع التجلة والتقديس (توكونوما) بها (ڤاز) ثمين يملأ بالزهر المناسب للمقام ويغلب أن تطل الباقة نحو الضيف علامة الترحيب به وهم يقرأون فى كل باقة معنى جديداً لمجرد النظر ، وعند المدخل حاجز (باراڤان) قصير أنيق ، وتتدلى من الجدران ألواح مصورة (كاكيمونو) برسوم يابانية ثمينة ، أما النوافذ فمعدومة لأن جانب الحائط ينفتح كله بالانزلاق وراء الذى يليه بحيث يمكن أن تصبح الحجرة شرفة (بلكونة) أو تزال فواصل الحجرات كلها فتظهر اللوكاندة كلها بهوا واحدا ، كذلك الحالة فى مساكنهم جميعاً فى الريف والحضر .

أخذنا مجلسنا (القرفصاء) من المائدة فتقدمت منا فتاة بكوبين صغيرين من شراب أخضر يعتقدون أنه قاتل للعطش لم يرقنى طعمه وعلمت أنه مسحوق الشاى يغلى فى الماء ، ثم دنت منا فتاة ثانية وبيدها سلة صغيرة من خيزران (بامبو) وبها قطيلة (فوطة) مبالة بماء مغلى يتصاعد منها البخار فتناولناها ومسحنا بها وجوهنا وأيدينا فشعرنا بانتعاش كبير فى ذلك الجو الحار وتلك تقدم فى كل مكان حتى فى المحال التجارية ، وبعد هنيهة أقبلت فتاة أخرى تحمل الشاى اليابانى المخفف الذى لم يكد يصفر ماؤه والذى يتناوله الجميع بدون تحلية قط (بدون سكر) فى قعاب صغيرة مكورة من الخشب اليابانى الثمين (اللاكيه) وما كاد يستوى بنا المجلس حتى أقبلت الفتاة تهمس فى أذنى فلم أفهم اليابانية فخبرنى صاحبى أنها تريدنى أن أخلع حلتى لأرتدى (الكيمونو) فقمت وهى تلازمنى وتتقدم بنفسها لتخلع عنى ملابسى وترخى الكيمونو على جسدى وكان يملكنى الحياء لولا ما رأيته من جرأة صديقى الذى علمت منه ألا حرج فى ذلك فتلك عادة القوم هناك ، ولما أن عدت إلى المائدة أقبلت فتاة الحمام تقول أنها أعدته لى فقلت لصاحبى لا حاجة لى به ، لكن علمت أن ذلك ينافى طباعهم إذ هم يرونه

فرضاً على الجميع أن يستحموا مرة أو اثنتين فى اليوم ، قادتنى هى وجمع من صويحباتها إلى الحمام وهنالك دخلت غرفة صغيرة صفت بها الحشيات والتكآت للاستراحة قايلا بعد الحمام ومن داخلها حوض الحمام من خشب نظيف يملؤه ماء ساخن جدا فى درجة حرارة تتراوح بين ٤٠ و ٥٠ م و إلى جانبه مقاعد صغيرة من خشب وأكواز ومناطيل خشبية ، وقفت الفتاة وانتظرت فى حيرة حتى تخرج لأوصد الباب فما كادت تجتاز الباب إلى الخارج حتى أسرعت بغلقه لكنى لم أجد به ما يحبسه عن الفتح فخلعت ثيابى و إذا بالفتاة تدخل وتنظر إلى كأنها تريد أن تخدمنى فى شيء ، فجلست خجلا إلى جوار الحوض ، ولما أن أدركت ما كنت فيه من ربكة خرجت فأسرعت بدعك جسمى بالصابون ، وما كان أشد دهشتى حين دخلت مع زميلات لها وكأنها شكتنى إليهن ، فما كان منى إلا أن رميت بنفسى فى الحوض رغم مائه المحرق ، هنا علت صيحة الضجر منهن وأسرعن إلى الخارج ، ولم أدر ما الخبر فعجلت بالخروج ، و إذا بالهرج قد زاد وعلا وعلمت بعد أننى ارتكبت خطأ فاحشاً ، لأنه لا يجوز النزول فى الحوض مخافة تدنيسه فكانت منى اعتذارات لا أظن أنها كفرت لديهم عن سيئتى هذه لأنى حرمت الاستحمام كل نزلاء اللوكاندة سحابة اليوم حتى يطهر و يجدد ماؤه وعجبت لما علمت بعد أن رؤية الأجساد عارية من الجنسين أمر طبعى لا غبار عليه عندهم ، فالفتيات يناولن الرجال ما يطلبون ، و يغسلن لهم ظهورهم وهم عرايا وكثيراً ما يغتسل اليابانيون نساء ورجالا أمام بيوتهم فى جانب من الطريق لا ينظر إليهم أحد خصوصاً بين الطبقات الفقيرة ، وقد كانت الحمامات العمومية خليطاً من الجنسين معاً ، ولما أن كثر نقد الأجانب لهم أمروا بوضع حبل يفصل بين ناحية النساء والرجال ، أمر نراه نحن شائناً وهم يرونه عادياً لا يقع بسببه فساد قط ! ولا يأمن الغريب وهو فى الحمام أن يطل عليه الجميع من شقوق الدار الخشبية خصوصاً وأنهم يعجبون لأجسادنا الطويلة وسحنتنا الغريبة عنهم !



(شكل ٥٧) جانب من بيوتهم الخشبية المنسقة

ويستنكر الأجانب رؤية أجساد اليابانيين أو اليابانيات عارية ، على أن اليابانيين يرون ذلك أمراً طبيعياً ، فهو مهدئ للميول الجنسية التي تبدو واضحة في غالب الأوروبيين . حدث مرة أن نادى أحد القناصل خادمه الياباني فجاءه يرتدي قميصاً ونصف جسمه الأسفل عار ، وكان في مجلس القنصل بعض السيدات فنفر من هذا وطرد الخادم لوقته .

عدت إلى المائدة فأحاطت بنا الفتيات يحاولن مسامرتنا وتلك عادتهم في كل مكان حتى في البيوت إذ يجلس حول الضيف فتيات الدار يسامرنه إمعاناً في التأدب والتظرف ، وفي عرفهن لا يجوز أن يترك الضيف وحده لحظة واحدة حتى يحين وقت النوم ، ولما كانت ساعة الطعام أقبل الفتيات يحملن القرامير (الصواني) الصغيرة من الخشب اللامع ، عليها الأواني المكورة الصغيرة من خشب براق ، وفي مقدمة الجميع (برميل) نظيف من خشب يملؤه الأرز المسلوق .

ملأت الفتاة لي آنية الأرز وسلمتنيها ، وفيها عصوان دقيقتان أتناول بهما الطعام وكان أول صنوف اللحم قطعاً من سمك نيء عليه قطع الثلج ، لك أن تغمس القطعة قبل تناولها في سائل أحمر قاني حريف كالخل ، وما كنت أخاله

نيئاً فما كدت أعض على قطعة السمك حتى عافتها النفس ، وجزعت جزعاً شديداً وآثرت أن أزدردها صحيحة لأنجو من رائحتها وفساد طعمها ، ثم تبعها صنف من حساء السمك البارد ثم الساخن ثم شواؤه فنوع يحكى (الجنبرى) إلى جانب شيء كالبطاطا الحلوة و بعض الأعشاب ، أخصها أعشاب البحر التى يحبون رائحتها المنتنة والخضر (المخللة) ، كل هذا نتناوله فى مجاورة الأرز الذى كلما فرغ إناؤه عجلت الفتاة بملئه من جديد ، ولما انتهى اللحم قدم صنف من الفالوذج (مادته من الأرز) لا تكاد تحس حلاوته ثم أعقب ذلك بعض الفاكهة وكانت من خوخ ونوع آخر لم أره من قبل ، وكأنه قرون البازلاء البالغة ، وخلال كل ذلك كانت الفتاة تملأ لنا كأس النبيذ اليابانى (الساكى) الذى يتخذه القوم من الأرز فى طعمه المنفر ، وتعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع و بين آونة وأخرى يجب علينا بعد احتسائه أن نغسله بالماء ونملأه ثم نقدمه للفتاة فتشربه ، ثم تعود فتغسله هى وتقدمه لنا ثانية ، وتلك من آداب المائدة لديهن لا يصح إغفالها ، وفى نهاية الطعام نبقى فى آنية الأرز قليلا ونصب عليه الشاى ونرتشفه بصوت مرتفع منفر علامة على ختام الطعام ، فترفع (الصوانى) و يقدم الشاى المر نشرب منه ما نشاء ، موقف ساحر حقاً لولا ما كان يحوطنى من ارتباك شديد فى أداء التحيات المتكررة على الوجه الأكمل ، وفى استخدام العصى بدل الملاعق والشوك فهى تتطلب مراناً طويلا .

وكان فى الغرفة المجانبة لنا قوم لعب (الساكى) بعقولهم — واليابانى سريع التأثر بالخمر على خفته — فأخذوا يصيحون و يغنون وهم جلوس وأمامهم (الصوانى) الصغيرة والفتيات يعزفن على الآلات الموسيقية اليابانية (الشامسين) شبيه (الطنبور) الكبير برقبته الطويلة و (قصعته) المربعة وله ثلاثة أوتار منفردة رنينها يحكى رنين المزهر (العود) القوى ، والعزف يكون بقطعة من خشب كالمروحة ، وهذه لا يكاد يخلو منها بيت أو منزل ، والقطعة الثانية تحكى (القانون) من ثلاثة عشر



(شكل ٥٨) أحب الآلات الموسيقية لديهم الشامسين
إلى اليمين والكوتو إلى اليسار

وتراً منفرداً ويسمى (كوتو) والأنغام متشابهة بسيطة فى غير تعقيد على أنها تعوزها الجاذبية ، أما أغانيهم فمنفرة للغاية حتى الفتيات اللاتى يهززن فى أصواتهن بتقطيع منكر وكأنها أصوات (الماعز) ، اعتزمت الارتحال فودعنا الجميع بأدبهم الجم ، ثم قدم لنا رب النزل هدية صغيرة منديلا منقوشاً يلف فى غطاء من ورق أبيض ثقيل يربط بشريط نصفه أبيض والنصف أحمر ، وفى عقدته قطعة من سمك مجفف تيمناً ، ومثل تلك الهدايا يتبادلها الجميع كلما تزاوروا فى مناسبات كثيرة ويغالى بعضهم حتى يبيح الاستدانة كى يؤدى هذا المظهر من الكرم ، ولذلك كثرت المحال التجارية الخاصة ببيع تلك الهدايا .

عدنا إلى كوبى وتفقدنا بعض معابدها وجلها متشابهة تعوزه الفخامة ، ومن أجلها معبد القمر فى قمة ماياسان (ومعناه الجبل المحترم) ، ويتوجون بتلك الكلمة (سان) كل الجهات الطبيعية الجميلة ، وهذا المعبد فى ذروة الجبل المشرف على المدينة تسلقناه بترام هوائى كان يديره سويسريون إلى أمد قريب واليوم يديره اليابانيون بعد أن استغنوا عن معونة الأجانب شأنهم فى جميع المنشآت الكبيرة

الأخرى ، لذلك ترى الأجانب حانقين عليهم . من هـذا العلو الشاهق بدت المدينة ممدودة على شاطئ البحر فى رواء بالغ ، وكنا نرى مبانيها على بعد تتصل بضواحى أوزاكا أكبر البلاد الصناعية ، وفى نهاية الترام كثير من المقاهى والمطاعم زهيدة الأسعار ، رغم نظافتها التامة وفخامتها الرائعة ، حتى أنى تساءلت عن سبب ذلك فعلمت أن الجهة يعدها الجميع متنزهاً شعبياً يشجع الفقراء على حب الرياضة والاستمتاع بالطبيعة ، وللناس أن يستأجروا خياماً زهيـدة الأجر للمبيت فوق منحدرات الجبال حيثما شاءوا ، من هنا بدأنا بصعود الدرج الموصلة للمعبد وعددها ثلاثمائة وسط الأدغال والنبت الوفير ، كابدنا كبير المشقة فى ارتقائها فكان لنا فى سحر المناظر هنالك خير عوض عما صرفناه من عناء وجهد ، ويحج إلى هـذا المعبد نحو ثلث مليون فى السنة إجلالا لتمثال صغير لأم بودا ، وعند ما أظلم الجو بدت المدينة من دوننا تحكى بسيطاً من الجر المتلألئ ، أو قبة السماء وقد انقلبت بنجومها ، فبـــدت من تحتنا وكانت ثريات الخط الكهربائى تبدو كالعقـد الرائع البديع .

وفى المساء زرت بعض دور الملاهى ، ولعل أحبها لديهم الخيالة (السينما) التى لا يكاد يخلو منها شارع ، وللقوم بها ولع شديد ، وأعجب ما يسترعى النظر بهـا رجل يقف بجانب اللوحة ويشرح باليابانيـة فى صوته المنفر كل ما يعرض من المناظر ، وكان سبب ذلك عرض أفلام أجنبية ، لكنهم يتبعون نفس الطريقـة رغم أن غالب الأفلام اليوم تصنع فى اليابان وتكتب إيضاحاتها باليابانية ، وقد يرفع الستار عن مسرح يظهر فيه فتياتهم وهن يرقصن ويغنين ، وقد يمثان روايات بلباقة لا تنقص عن الأوروبيات ، رغم أنه لم يسمح للنساء باعتلاء المسارح هناك إلا قريباً .

ومن أكبر دور الملاهى التى زرتها ملهى (تكاراسوكا) فى قرية بين كوبى واوزاكا يتسع لألف وخمسمائة ، وهو فاخر إلى حد كبير ، على أن أجوره زهيدة



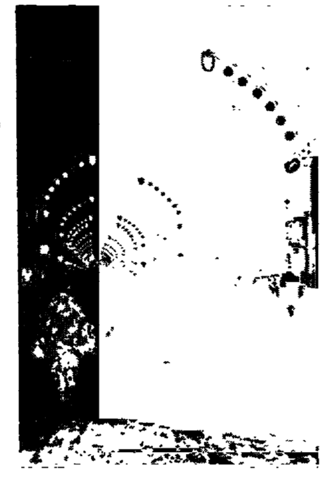
(شكل ٥٩) طريقة اليابانيات فى حمل الأطفال وراء ظهورهن

للغاية ، رغبة منهم فى الترويح عن عناء الفقراء . وكأنه مدينــة صغيرة تمون أهلها بكل شيء من مطاعم وملاعب وحدائق وحمامات وما إليها ، والتمثيل فيه على النظام الحـديث فى الغالب ، والممثلات كلهن فتيات وقد يلبسن أثواب الرجال وقد يمثلن على أنغام الموسيقى ، وأجمل ما هناك الأزياء الخلابة وسرعة تغييرها رغم الـكثرة الهائلة فى عدد الممثلات ، كما أن مشاهد المسرح رائعة وأضواءه خاطفة ممـا يشهد لهم بالتقدم العجيب .

وممـا أدهشنى فى هذا المجتمع الهائل ميل الناس إلى الهدوء وبخاصة الأطفال فقد كنت أرى السيدات يحملن أطفالهن وقد ربطوا إلى ظهورهن ، فلا يكاد يرى منهم سوى رأس ناتئ — وتلك عادتهم فى حمل الأطفال — ولم أكد أسمع همساً طوال الوقت ، والمعروف عن اليابانى أنه هادئ الأعصاب بارد الطبع ، ويظهر أن تلك فطرته منذ طفولته ، لذلك لا تكاد تسمع لسيل الناس الدافق

فى الطرق من جلبة اللهم إلا قعقعة (القباقيب) هـذا إلى صفير السيارات ودوى الراديو المنبعث من غالب المحال التجارية .

أذكر أننى تركت آلة التصوير هنا بين فصول الرواية ولما عدت لم أجدها فأبلغت الأمر لرجل البوليس وهنا رأيت عجباً إذ عرت الرجل هزة قومية وساده هو وإخوانه اضطراب وخجل وأخـذ يدافع عن اليابان ويعتـذر للحادث بأن عامة الناس هناك من طبقة العمال فقد يسف بعضهم إلى حد السرقة على أنه أكد لى أنه لا يمكن أن يضيع شىء فى بلاد اليابان ، وأنه سيرسل إلى الفتوغرافية قريباً أينما كنت بعد أن أخذ عنوانى وهو مضطرب متألم لأن فى ذلك جرحا للعزة اليابانية التى يقدسها الجميع .



(شكل ٦٠) سوق موتوماتشى الزاخر ليلا ومصابيحه تحكى البوائك شأن أسواق اليابان طرا

عدنا إلى كوبى وتجولنا فى إحدى أسواقها (موتوماتشى) الذى لا يكاد المرء يشق طريقه وسط جماهير الغادين فيه والرائحين ، وأجمل ما يرى فى المساء حين تضاء مصابيح الأسواق فى بوابات من حديد ترص عليها الثريات الكبيرة فى تلألؤ شديد إلى ذلك أضواء المحال التجارية بمفروشاتها اليابانية الجذابة وهذه



(شكل ٦١) ثغر يوكوهاما وترى طريقتهم فى الترحيب والاستقبال

تظل إلى ساعة متأخرة من الليل ، وفى فروعه أزقة تحكى خان الخليلى عندنا يلذ للمرء التجول فيها طويلا لغرابة المناظر وجمال الألوان وشدة بريق المكان ونظافته ، وهنالك دار وطنية للسينما يجلس المتفرجون فيها على الحشيات (والشلت) على نظام البيوت اليابانية .

الى يوكوهاما : قمت بالباخرة ظهراً صوب يوكوها التى وصلتها الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالى ، أما البحر فقليـــل الجزائر ، موحد المناظر ، ممل ليس فيه شىء من جمال البحر الداخلى سالف الذكر ، حلت المدينـة فبدت ثغراً عظيم الحركة نظيف الطرق فسيحها ، وهى مدينة تحكى فى كثير من الوجوه المدن الأوربية ، لولا هنـدام الناس وسحنهم لذلك لم ترقنى كثيراً ، ولقـد أنشئت منذ ١٩٢٣ حين دكها الزلزال عن آخرها ، وفى ثلاث سـنين أعيد بناؤها على

أساسها الجديد ، و بلغت أكلافها عشرين مليون جنيه .

أما طوكيو العاصمة فقد دمر الزلزال نصفها وأهلك من أهلها ٥٨ ألفاً ، وكبدت خسائر بنحو خمسمائة مليون جنيـه ، وقد أنفقت الحكومة على تعميرها وإنشائها من جديد فوق السبعين مليوناً .

كاما كورا : ضاحية تبعد عن يوكوهاما بنحو ساعة بالسيارة التى مرت بنا فى طرق متلوية تعلو وتهبط ، ومن حولها الربى ذات المناظر الساحرة ، تجللها الغابات ، وتكسو مدرجاتها منابت الأرز ، ولقـد اتخذ المدينة (شوجون مينا موتو) عاصمة اليابان فى القرن الثانى عشر ، وظلت كذلك مائتى عام ، وكان سكانها يناهزون نحو ثمانمائة ألف ، لـكنها انضمرت اليوم وأصبحت مزاراً صيفياً ، ولا يزال بهـا بعض المعابد الهامة ، ولعل أجملها معبد بودا الذى يقوم فيه تمثال هائل لبودا يعد أجمل تماثيل اليابان طراً ، علوه خمسون قدماً أقيم سنة ١٢٥٢ وسط معبد دمرته عاصـفة سنة ١٣٦٩ ، واكتسحه المد سنة ١٤٩٤ — واليابان تعرف بقسوة عواصـفها المسماة بالتيفون وبعتو مدها — وكانت عيون التمثال من ذهب ، ونطاق جبهته من فضة زنتها ثلاثون رطلا ، وهو يمثل (Amida) أحب معبودات اليابان ، وتعجبك نظراته الهادئة ، ويداه المبسوطتان على حجره ، والأبهامان يتلامسان علامة الأيمان الراسخ — وفى بعض التماثيل ترى اليد اليسرى مبسوطة على حجره واليمنى مرفوعة وهذا دليل التبشير ، وفى غيرها تضم اليدان إلى الصدر دليل الجمع بين الحياة الروحية والمـادية . وثم معابد كثيرة فاخرة تزينها تماثيل بودا وحفظته فى أشكالها المنفرة المروعة ويحفظ فى بعضها شىء من مخلفات عصر كاما كورا من أثاث وأردية وأسلحة وما إليها .

(شكل ٦٢)
بودا فى نظراته الوديعة


(شكل ٦٣) أمام نصب بودا الرائع فى كاما كورا

عدت إلى يوكوهاما ، ومنها إلى طوكيو حاضرة البلاد فوصلنها فى ثانى ساعة ووسائل النقل إليهـا متعددة ، وفى اتقان ودقة ونظافة ترى المقاعد وقد أعدت بالفرش الوثيرة بعضها يسير بالبخار والبعض بالكهرباء وهـذه تكاد تعم البلاد كلها فى كثرة هائلة وأجور زهيدة جداً هذا إلى الترام والأتوبيس والسيارات .

والحق أن وسائل النقـل فى اليابان كلها مما يدعو للاعجاب والاكبار ، فهى ترعى صوالح الجمهور وتوفر له الراحة التامة والأمن المكفول فترى فى المحاط كافة وسائل الارشاد والهدى من خرائط ومصابيح إلى ذلك عناية حارس القطار وأدبه الجم ، فعند ما تقارب كل محطة يستأذن ويدخل العربة ، ثم ينحنى ويرفع قبعته احتراماً ويخاطبنا فى بشاشة قائلاً : سادتى نحن مقبلون على مكان كذا وقبل مبارحته العربة يدير لنـا وجهه وينحنى ثانية ثم يخرج ، إلى ذلك كنت ألاحظ أدب سائقى السـيارات فلا يمر أحدهم على زميله دون أن يحييه بانحناءاته الوديعة ، وهو يتقبل منك ما تعطيه أجراً مهماً قل ولا يناقشك قط بل يصيح قائلاً (آريجاتوسان) أعنى شكراً سيدى المحترم ويشيعك بانحناء وابتسام ، وإن سألت أحد المـارة شيئاً بالغ فى خدمتك وإكرامك فإن لم يفهمك استرشد بغيره فى الحال . أدب جم وتسامح جميل امتازت به اليابان على سائر الشعوب .

طوكيو : (ومعناها العاصمة الشرقية ، سكانها ٢½ مليوناً) بأى لسان أستطيع أن أقص ما أرى من عظمة ودقة ، تميق حسن وذوق سليم ، مدينة تتجلى فى كل مناحيها أبهة الملك وعزة السلطان ، هى تفوق فى نظرى كثيراً من عواصم أوروبا بقصورها الشامخة وطرقها الممدودة ، وحدائقها الورافة ، تكاد تمتد كل طرقها الرئيسية على نمط واحد واتساع رحب يتوسطها ممر الترام والعجلات الكبيرة . ثم أفريز من خضرة ثم ممر للعجلات الصغيرة فأطار للمارة ، والمصابيح تعلو فى عناقيد إلى مد البصر ، ورجل البوليس يتوسط مفارق الطرق ، ويسير الحركة بالمصابيح الملونة والصفافير واليدين فى دقة عجيبة ومهابة يقدرها الجميع . وتوزيع مخافر البوليس فى بلاد اليابان ، يغايره فى البلدان الأخرى إذ ترى جوسقاً صغيراً به ضابط البوليس ومعاونه ، وحولها التليفون والسجلات والخرائط ، وتتوزع تلك الجواسق فى مسافات متقاربة ، وحتى داخل الأزقة لتكفل الأمن من جهة ولتهدى المارة لما يطلبون . أما نظام البوليس المركز فى أقسام كبيرة نائية عن بعضها كما نراه عندنا فليس له وجود ، لذلك فإنك ترى البوليس ملماً هناك بكل شيء ، عالماً بدقائق منطقته الصغيرة وسكانها . حدث مرة أن أحد النزلاء من الطليان انتقل إلى دار جديدة ، فلما كان المساء عاد الرجل فاشتبه عليه الأمر وضل طريقه إلى داره الجديدة ، فباغته رجل البوليس وهو حائر قائلا : أأنت فلان ؟ ماذا تريد ؟ فخبره أنه ضل طريقه ، فقاده رجل البوليس إلى بيته الجديد ! لذلك قلما تفلت البوليس هناك جريمة لا يهتدى إليها عاجلاً .

حللت نزل (Chuo) الفاخر ، وهو على النمط الأفرنجى يديره اليابانيون رجالاً ونساء ، فقوبلت بالانحناءات والابتسامات وما أن حللت غرفتى حتى أقبلت الفتاة تقدم شاى التحية — وهذا يكرر كلما عدت إلى النزل وفى أية ساعة — ثم عقبته بأخبارى أن قد أعد الحمّام ، وحتى فى غرفة الطعام الافرنجية تراهن وقوفاً زرافات يحاولن تسليتك ولو لم يعرفن لغتك ، حدث أن مر فتاتان



(شكل ٦٤) المدخل الرئيسى لطوكيو فى وهج المصابيح الوضاءة ليلا

بباب النزل ، وأنا فى غرفة الطعام يعزفن على الشامسين ويرقصن ويغنين ، فأسرعت إليهن ومعى صاحب الفندق وفتيانه ، وقالوا إن تلك هى الوسيلة الوحيدة التى يباح فيها الاستجداء ، يؤيد ذلك أنى لم أر متسولاً واحداً فى جميع البلاد التى جبتها هنالك ، وما كدت أبرز آلة التصوير لآخذ صورتهن حتى غضب الجميع ومنعونى دفاعاً عن عزتهم القومية ، فاعتذرت لهم رغم أن الفتيات كن فى هندام نظيف جذاب .

هدانى تجوالى فى المساء إلى شارع (جنزا) بأضوائه الخاطفة وتنسيقه اليابانى الخلاب هو متنزه الشباب ، ومحط سروره حوى ٣٤٨ من الأنزال والملاهى ومشارب الشاى وما إليها ، إلى ذلك بعض المحال التجارية تعرض بها المستحدثات التى تروق الشباب ، ولن أنسى قعقعة (القباقيب) ولا سحابات الفراش الآدمى فى ألوانه الجميلة ، ومن المقاهى ما هو يابانى ترى الأحذية والقباقيب ، وقد صفت أمام الباب إذ يجب خلعها قبل الدخول ، ولعل أكبر مميزات هذا الشارع الباعة الرحل الذين يفترشون الاطارين بسلعهم طوال الطريق ، وهى نفائس الصناعات اليابانية الصغيرة التى تدل على مهارتهم الكاملة خصوصاً إذا علمت أن غالبها

يصنع فى البيوت (كلعب الأطفال وأشغال الورق والغاب وما إليها) ، وإذا ما انتصف الليل عكف كل يطوى معروضاته قطعة قطعة بثبات وصبر غريب ، ثم يحملها إلى بيته ليعيد الكرة فى الغد . نشاط وصبر إلى نظافة وتقشف امتاز بها اليابانى فكان مزاحماً قوياً لزميله الأمريكى والأوروبى .

قصدت قصر الامبراطور ، وهنا تجلت العظمة بأجلى معانيها ، هو شبه قلعة مشرفة كأنها الجبل يحوطها خندق تعبره القناطر تؤدى إلى القصر ، وهندسته مزيج من اليابانية والصينية فى طابق واحد ، وسقوف منحدرة خشبية تتقوس أركانها إلى السماء ، ولا يباح لأحد دخول القصر ولا تصويره تقديساً له وللامبراطور ابن السماء ، حدث أنى كنت أحاول أخذ صورة فلم أشعر إلا وفارس قد أقبل مسرعاً وأخذ الفتوغرافية وأفسد الفلم بيده وهو يعتذر بأن ذلك غير مباح وتركنى بعد أن بش فى وجهى وانحنى تأدباً ، أما الميدان الذى يتقدم القصر فعظيم لا يعرف مداه ، وتقوم عليه حول القصر كثير من دور الحكومة فى قصور سامقة أخصها دار البرلمان فى هندستها الغربية ووزارة الحربية والبحرية بأعمدة اللاسلكى تسامت السماء وتهول الناظر بضخامتها وتتناثر هنا وهناك تماثيل عليتهم ممن أبلوا للوطن البلاء الحسن .

وتقديس القوم للامبراطور يثير الدهشة فكل شىء هناك يتلاشى إلى جانبه فهو مطلق التصرف فى البلاد وسلطة البرلمان ضئيلة أمامه خصوصاً فيما يختص بالمالية والشئون الحربية ، ومجلس الوزراء مسئول أمامه فقط وهو الذى يعين رئيسه ولا يشترط اختيار الوزراء من رجال الحزب السائد فى البرلمان ، ووزير الحربية والبحرية يقابلان الامبراطور رأساً ولا يسقطان بسقوط الوزارة .

ويتساءل المرء كيف يقبل القوم هذا الخضوع والولاء الشديد لهذا النوع من الحكم المطلق ، على أن نظام اليابان الاجتماعى والدينى يساعد على ذلك حتى الهيئات التجارية والصناعية ، فهى تقوم على صوالح الأسرة والقرية والدولة ،



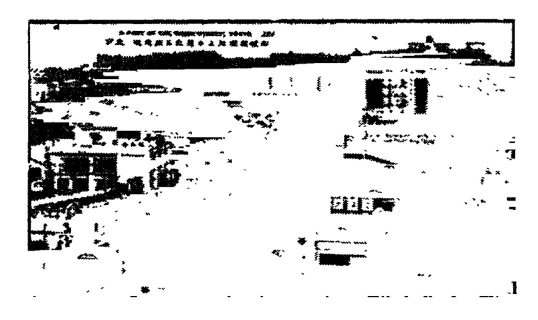
(شكل ٦٥) الموسيقيات المتجولات فى طوكيو ، وتلك هى الطريقة الوحيدة التى يباح فيها الاستجداء

وتلقين النشء الإخلاص للوطن فرض على الجميع خصوصاً منذ عهد الامبراطور ميجى (١٨٦٨ — ١٩١٢) جد الامبراطور الحالى وخالق النهضة اليابانية ، ذاك الذى حول مبادئ الديانة السائدة فى اليابان ، وهى الشنتوية — التى تعبد الأجداد — إلى عبادة الوطن ، فكل آلهة العائلات تمثل آلهة الشمس ، وهى جدة الأسرة الحاكمة ، فالامبراطور أذن هو ممثل الآلهة فى الأرض لا يُعصى له أمر ، وساعدهم على ذلك حماسته النادرة فى النهوض ببلاده ، لذلك عد البيت الامبراطورى مقدساً ، حتى أن القوم لا يصح لهم ذكر اسم الامبراطور بل يسمونه (Tenno Heka) أى ابن السماء ، حدث مرة أن سمى ريفى ابنه باسم الامبراطور على غير علم منه ، فلما عرف أن هذا هو اسم الامبراطور انتحر خجلا وخزياً ، وحادث آخر أن أحد أكابر الموظفين تعرض فى محاضرته لمستقبل اليابان ، وأشار إلى النزعة الديمقراطية التى تتزايد ، وتألم لما عساه أن يحل باليابان من الويلات إذا حدث لا قدر الله وزال حكم الأسرة المالكة ، فكان هذا مبرراً لفصله على الفور . ويحمل الجميع صور الامبراطور ويخفونها فى صدورهم إلى يوم عيد الميلاد حين تعرض فى حفل كبير يقام فى المدارس وغيرها ، وعند كشفها يخر الجميع ركعاً ، ويخالون أن روح الامبراطور تحل بعض المعابد أحياناً ، لذلك

علمت أن قاضى القضاة الذى كلف الحكم فى قضية خطيرة تمس الاشتراكية كان يذهب إلى معبد طوكيو كل صباح ليستمد الإلهام الصادر من روح الامبراطور ميجى لكى يوفقه فى الحكم .

وقلما يخرج الامبراطور ليراه الناس ، وإن حصل ذلك أغلقت جميع النوافذ على جانبى الطريق حتى لا ينظر إليه أحد من عل ، ويصطف الناس وعيونهم إلى الأرض ، ولا يجرؤ أحدهم النظر إليه مهما علت مرتبته ، ويقف البوليس وظهره إلى الامبراطور ، ويجب على مصلحة الصحة أن تطهر الطريق كلها قبل مروره ، وقلما يحضر الامبراطور بنفسه الولائم والحفلات الرسمية التى تقام فى القصر ، ويحضرها كبار الأجانب وسفراؤهم ، ويغلب أن ينيب عنه أحد الأمراء ، وقد يطلع عليهم وهم وقوف فى صف ويرفع لهم يده ، حتى قيل أن غالب السفراء لا يطيقون ذلك رغم أنها من تقاليد البلاد .

فليس بعجيب إذن أن يخلق هذا حكومة مركزية مدعمة الأركان فى أمد وجيز ، فإلى سنة ١٨٦٨ كانت اليابان مقسمة إلى اقطاعات تحت أمرة (الدايميو) الذين كان يرأسهم (الشواجن) ، أى الحكام العسكريون ، وهم حكام اليابان الحقيقيون ، وكانت أسرة (توكوجاوا) هى السائدة خلال ٢٥٠ سنة ، وكانت من قبل من أسرات (الدايميو) ، أما الامبراطور فكان فى كيوتو كأنه سجين لا دخل له بالسياسة ، وفى منتصف القرن التاسع عشر بدأت حكومة الشواجن تضمحل بسبب سوء الحكم وبدء تدخل الأجانب الذين هددوا استقلال البلاد إذ أرغموهم على فتح ثغورهم للأجانب سنة ١٨٥٤ فبدا جلياً (للساموراى) مديرى المقاطعات من قِبَل زعماء الأقطاع أن تغيير الحكومة واجب إذا أرادوا المحافظة على استقلال اليابان ، فأغروا الزعماء من الدايميو الذين كانوا حانقين على (الشواجن) ، فثاروا جميعاً بزعامة أسرتى (تشوشو ، ساتسوما) الذين ناشدوا رجال الحرب أن يخلعوا نير الشواجن ويعيدوا للامبراطور سلطته ، فنجحوا وبدأ العصر الجديد سنة ١٨٦٨



(شكل ٦٦ شارع جنزا مستراص التسباب فى طوكيو

حين تسلم الامبراطور (ميجى) الأمر بعد ماحرمته الأسرة تسعمائة سنة ، وفى ١٨٧١ زال حكم الاقطاع تماماً وسلم الدايميو بلادهم ثم تنازلوا عن جميع امتيازاتهم المالية الموروثة بمحض اختيارهم رغم عدم وجود موارد أخرى لهم ، وهنا تبدو متانة الخلق اليابانى فى التضحية والاخلاص ، إذ تركوا صوالحهم الذاتية وتعاونوا على معاضدة النظم الجديدة لصالح اليابان ، أما الشعب فلم يقم بشىء إيجابى قط .

ولكى تتمشى البلاد مع الدول العظمى شعروا بالحاجة للجيوش والأساطيل الحديثة والنهوض بالصناعة ، ووسائل النقل والتعليم ، وقد وقع جل هذه الأعمال على عاتق أسرتى (تشوشو ، ساتسوما) الذين أتوا بالمعجزات لإنقاذ البلاد من المخاطر التى كادت تحيق بها ، ولم يروا لازماً أن يقلدوا أوروبا فى كل شىء ، بل فى تنظيم الحكومة ووسائل الإنتاج ، وقد نقح الأمير (أيتوا) الدستور سنة ١٨٨٩ على أساس دستور ألمانيا ، وعين غالب زعماء الأقطاع (الدايميو) أعضاء فى المجلس الأعلى (والساموراى) فى المجلس الأدنى ؛ وخصت أسرتا (تشوشو ، ساتسوما) بالحربية والبحرية ، وكان لهم الرأى الأعلى حتى بدأ يناوئهم بعض الهيئات الأخرى. فلجأوا إلى تشكيل هيأة أسموها (Genro) ، أى جماعة السياسيين المحنكين لتقوم

بوظيفة المستشار الإمبراطورى ، وهم الذين يقترحون تعيين رئيس الوزراء ، وينصحون للامبراطور بكل التصرفات ووزيرا الحربية والبحرية يختاران من بين رجالها ، فالحكومة اليابانية نوع من الأجاركية ، لكنها مصلحة تعمل للرأى العام حساباً ، والرأى العام فى اليابان قوى جداً ، فلمجرد احتجاجه على تصرفات الوزارة سنة ١٩١٤ استقالت هى ، وكذلك التى تبعتها سنة ١٩١٨ حين احتجوا على وزارة (تيروشى) الذى كان ينتمى إلى (الجنرو) ويومئذ قام الناس باعتصاب الأرز الذى أسقط الوزارة لوقتها ، وفى سنة ١٩٢٣ استقالت وزارة (ياماموتو) على أثر اغتيال حياة الأمير نائب الملك ، الأمر الذى عده الشعب دليلاً على عجز الوزارة أن توطد الأمن فى البلاد ، وكلما حدث اعتداء من هذا القبيل أسرعت الوزارة أو رؤساء الشرطة بتقديم الاستقالة كما حصل فى يناير الماضى حين حاول شاب ثورى من كوريا أن يغتال الامبراطور بقنبلة انفجرت فأصابت أحد خيل المركبة فاستقال مدير الشرطة وكبار البوليس اعتقاداً منهم أنهم المسؤولون عن ذلك ، وكذلك انتحار الأميرال شنوازادى قائد أسطول اليابان فى مياه شنغهاى ، لما أن عزل بسبب سوء تصرفه هناك فى الحرب الحالية بينها وبين الصين .

على أن جماعة الجنرو ممثلى عهد الأقطاع اليوم بدأوا يشعرون بمناوئ قوى اليوم هو نفوذ رجال الأعمال التجارية والمالية والصناعية خصوصاً فى طوكيو المركز المالى ، وفى أوزاكا المركز الصناعى ، وكثير من أولئك من سلائل الساموراى وأسرة (متسوى) أغنى الجميع وهى تشتغل تحت إرشاد الحكومة ، وقد بدأ نفوذها يؤثر فى الحكومة ويسود رجال الهيأة العسكرية ، لذلك بدأت تنتعش سلطة المجلس الأدنى الذى يستمد المال من تلك الهيئات الصناعية لمناهضة رجال الحرب ، وقد نجحوا فى إسناد الوزارة إلى (كاتو) من نصرائهم سنة ٩٢٤ لذلك كان يطلق عليها (حكومة متسو بيشى) هذا وقد أدى نمو الصناعة إلى الدعاية الاشتراكية لصالح العمال ، وبدأ يظهر أثر هذا فى التحفز للاضراب ،



(شكل ٦٧) مدخل القصر الامبراطورى ، وفى أعلاه صورة الامبراطور والامبراطورة

وفى النزاع الذى بدأ بين المزارعين والملاك على أن الحكومة تقاوم كل ذلك مقاومة فعالة خصوصاً ، وأن غالب الصناعة ووسائل النقل تحت إشرافها المباشر .

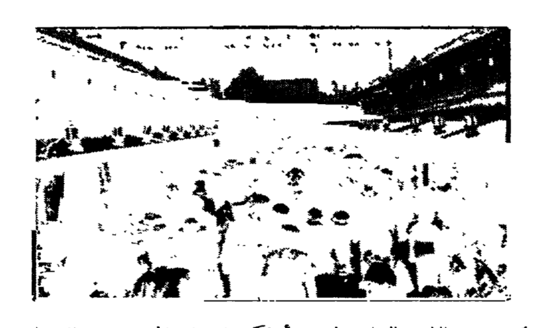
وتمتاز طوكيو بمتنزهاتها الكثيرة زرت فيها متنزه (هيبيا) عظيم الاتساع وفير الزهور وبخاصة (الأزاليا) ويجد القوم فيه مكاناً صالحاً للنزهة واللعب ، ولذلك ترى أدوات اللعب كالصوالج والأراجيح وما إليها منثورة فى أرجائه الفسيحة كذلك متنزه (شيبا) ويشتهر بمدافن أسرة طوكوجاوا من الشواجن ، وبعضها فاخر النقش فى الخرط اليابانى الغريب ، وأغشية الذهب والفضة فى إسراف لا يفوقه سوى مدافن نكو .

ولعل أكبر المتنزهات وأجملها (وينو) تزينه أشجار الكريز بزهرها الجميل ، وفى داخله كثير من الملاعب إلى ذلك حديقة الحيوان المتواضعة ، ودار الكتب ، والمتحف الفنى ، والمتحف الامبراطورى ، وهذا أهمها وإن بدا صغيراً قليل المعروضات بالنسبة لمتاحف أوروبا ، ومجاميعه فى الطابق الأعلى رسوم خيالية

مطرزة على ستائر ثقيلة . ثم منتجات اللاكيه المرصع بالصدف وجدائل الذهب فى إتقان كبير ، وفى الدور الأسفل تعرض الأدوات النحاسية والخشبية . ثم الزجاج والخزف والأحجار الملونة . ثم تماثيل كبيرة لبودا وحراسه وعفاريته بعضها من ذهب وفضة ، والبعض من خشب إلى ذلك بعض الأسلحة القديمة والنقود ، على أن الفن يعوز عالبها وفقر المعروضات لا يكشف للقوم عن ماض مجيد قط ، فهم لم يرثوا عن آبائهم من عظمتهم الحالية مما يزيدهم إكباراً وفخرا .

قصدت إلى متنزه (اسا كوسا) ، وفى مدخله معبد شعبى لآلهة الرحمة نصل إليه وسط طريق صفت على جانبه الحوانيت بمعروضاتها اليابانية الجذابة ، ومصابيحها الورقية الملونة وشرفاتها الخشبية وأنت تذهل هناك لسيل الناس الجارف صباحاً ومساء وكلهم فى أرديتهم القومية الجذابة ، والمعبد فاخر وأعجب ما رأيته هنالك لفائف ضخمة من شعر آدمى جدل فى حبال بالغة الطول والسمك تبرع به فتيات ذاك العصر كى يعاونوا على سرعة اقامة المعبد بعمده الضخمة التى لم تقو الحبال العادية على رفعها ، وفى ذلك مثل لميلهم الشديد للتضحية خصوصاً وأن الشعر أكبر ما تعتز به الفتاة اليابانية وتتجمل بمرآه ، وهذا المعبد هو المكان الوحيد من ذاك الحى من طوكيو الذى لم يحترق على أثر نكبة الزلزال الكبرى سنة ١٩٢٣ فعزا القوم ذلك إلى قدسيته ، وعجيب أن ترى خلف المعبد مباشرة أكبر مناطق طوكيو للمجون والملاهى الشعبية تلك التى يعدها الجميع خير مكان للتسلية ، لذلك لا تهدأ حركة المتنزه ولا تخبو أضواؤه الخاطفة طوال الليل .

فى المساء طلبت إلى صاحب النزل أن يدلنى على دار للتمثيل اليابانى القديم وهو أحب أنواع التمثيل لديهم فأرشدنى إلى (تياترو شمباشى) من أفخم دور التمثيل فى طوكيو وما أن وصلت الباب وهممت بشراء التذكرة حتى تقدمت إلى فتاة تجيد الإنجليزية تقول : أأنت يا سيدى المستر ثابت النازل فى لوكاندة شوو ؟ فدهشت وقلت نعم . فقادتنى إلى داخل المكان بعد أن رفضت بتاتاً أن أدفع ثمن التذكرة



(شكل ٦٨) الطريق التجارى إلى معبد أسا كوسا بحوانيته الحسية وسيل المارة الدافق

وأحلتنى مجلساً فاخراً ، وقالت بأن التياترو ملك لشقيق صاحب النزل ، وقد أعطانا إشارة تليفونية أن نكرم وفادتك ، فغمرتنى تلك الأخلاق الجميلة ، وظلت الفتاة تشرح لى بالإنجليزية كل مشاهد التمثيل طوال الوقت حتى برحت المكان !

أما التمثيل فغاية فى الإتقان ، ومناظر المسرح رائعة ، وكلما أريد تغيير مشهد دار المسرح كله على كبره حول نفسه ، فبدا منظر جديد ، والرواية كانت قصة لفتاة زوجها أبواها من صبى لا تحبه وهى طفلة كعادة اليابانيين قديماً ، ولا يزال للعادة أثر إلى اليوم ، وكانت تحب فتى آخر جندياً لم يسعها إلا أن تسير إليه مخالفة أبويها ، فتلاقى الفتى مع غريمه ، وكان معه أعوان كثيرون بارزهم جميعاً وغالبهم فصرعهم عن آخرهم ، وأجمل ما راقنى منظر (حمارة) ضمت القوم وهم يرقصون ويهللون ، وقد أخذ (الساكى) بلبهم جميعاً بشكل يدل على أن الأدمان كان ديدنهم (ولا يزالون يكثرون من تناول الخمر) وختمت الرواية بفصل المبارزة التى يفاخر بها القوم ويجلونها إلى اليوم ، وكان المتفرجون يصفقون بحدة تشجيعاً لهم ، وبقدر التكلف فى نعومة اللفظ والتدلل من جانب النساء ، كانت غلظة الرجال فى حديثهم وانتحالهم وجوهاً مقطبة وهم يتكلمون فى نغمة الآمر المستبد ، ولأقل

سبب كانوا يستلون سيوفهم ، وهـذا النوع من التمثيل يسمونه (نو) ، وتقام له أكبر دور التمثيل فى جميع البلدان ، ويتسابق القوم لاقتناء تذاكره فى تهافت عجيب .

زرت بعض معابد المدينة ، وأفخرها معبد الإمبراطور ميجى ، خالق النهضة اليابانية ، مداخله ممتدة تتخللها البوابات الخشبية الشامخة — وهى تتقدم مداخل لمعابد كلهـا — وفى قراره مقصورة الهيكل يسجد الناس أمامها ، ويلقون بقطع النقود تقرباً وزلفى ، ثم زرت معبـد (سنجا كوجى) ، وبشتهر بمدافن جنود (الرونين) ، أى فاقدى الرئيس ولهم قصة عجيبة إذ كانوا أتباعاً لرئيس لحقته إهانة من غيره فهم بطعنه ، لكن حيل بينه وبين رغبته وقضى عليه بالانتحار كعادتهم فهام أتباعه هؤلاء (وكانوا ٤٧) لا يهنأ لهم عيش حتى يأخذوا بثأر سيدهم ، ولما حققوا أمنيتهم أسرعوا إلى قبر سيدهم ، وأعلنوا أنهم أدوا الأمانة ثم انتحروا جميعاً بجواره خشية أن يحكم عليهم بالموت بشكل غير مشرف ، لذلك أقام اليابانيون لهم معبداً لأنهم يقدسون الشجاعة والوفاء ، ولو فى مظهرها الوحشى .

والأخذ بالثأر كان لديهم مقدساً لمحو العار ، فإذا أهان أحدهم غيره قتله ، لكن يعود القانون فيحكم على القاتل بالانتحار ، وإلاّ قتل نفسه قبل ذلك ، فإن نفذ فيه الحكم ظل الثأر فى رقبة أتباعه الذين لا بد أن يأخذوا بثأر سيدهم يوماً ما ، وعجيب أن كان قانونهم يبيح ذلك ، وكان يحتم على المنتقم أن يبلغ الأمر للمحكمة لكى تحدد له ميعاد الانتقام ، وإذا احتمى القاتل فى الأشراف أو أصبح جندياً سقط عنه القصاص وقيل أن تلك التعاليم أخذت عن (كنفوشيوس) . والانتحار أشرف لديهم من الاعدام ، لذلك كان يفضل القاتل أن ينتحر أمام الناس بيديه ، وكان القانون يعطى للمجرم الحق فى الانتحار أمام النـاس أو ينفذ فيه الاعدام ويؤثر المنتحر أن يموت بسيفه الخاص (Harakiri) وهاك وصف حادثة انتحار حدثت أمام جمع من الأوربين :



(شكل ٦٩)   أحد مشاهد التمثيل المدعة أحب أنواعه لديهم

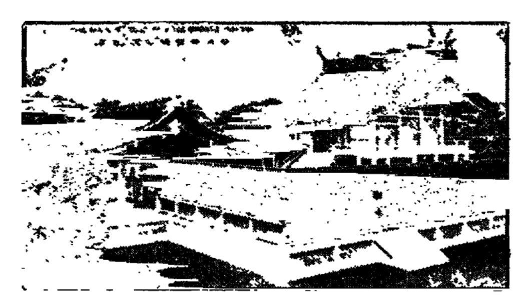
حكم على الأمير تا كى زنزا بورو بالانتحار ترضية للأجانب لأنه هو الذى أمر بضرب النار عليهم سنة ١٨٦٨ فدعا الميكادو الأجانب إلى أحد المعابد واصطف الجند وجىء بالمنتحر ومعه اثنان من أعز أصدقائه ليساعداه على قتل نفسه إن خانته قواه وتسلم الخنجر المدبب ماضى الحدين وجلس القرفصاء كعادة اليابانيين ، ثم رفع الخنجر فوق رأسه شجاعة واحتراماً وأخذ يعترف بجريرته فى جرأة واقدام وطلب معذرة الحاضرين وسألهم أن يسبغوا عليه شرف مشاهدتهم إياه وهو يبقر بطنه ، ثم انحنى مرات احتراماً ورفع قميصه ومال إلى الأمام قليلاً مخافة أن يقع على ظهره ساعة انتحاره ، وهو عار لا يعى ، ثم أخذ يرمق الخنجر بنظرات العجب والتيه وطعن به جانب بطنه الأيسر وطفق يشقه محركاً يده إلى الجانب الأيمن ، وهنا اجتذبه إلى أعلى إمعاناً فى الشجاعة والجلد ، وهو خلال ذلك كله لم يمتقع وجهه ، بعد ذلك انحنى إلى الأمام ساجداً ، وفى لمح البصر هوى سيف صديقه على رأسه ففصلها عن جسمه ثم مسح الحسام بورقة وأعاده إلى غمده بعد أن انحنى وانسحب .

منظر مزعج ؛ لكنه يدل على مبلغ ضبط النفس ، ورباطة الجأش ، وهدوء

الأعصاب فى المنتحر وأصحابه ، وعجيب أنهم يعدون ذلك أكبر فخر خصوصاً إذا قام أقرب المقربين بالاجهاز على حياة صديقه ، وهذا يقدسه جميع اليابانيين لدرجة أن بعضهم عرض على البرلمان سنة ١٨٦٩ إلغاء الانتحار فرفض اقتراحه بأغلبية ٢٠٠ ضد ٩ بحجة الإخلاص للمبدأ ، والشعور القومى وحفز الفضيلة ، وعجيب أن (أونو سيجورو) ، وهو الذى اقترح هذا الإلغاء مات بالطريقة نفسها بعد ذلك بزمن يسير ، هـذا ورغم تحريم القانون ذلك اليوم ترى الانتحار منتشراً هناك ، لمناسبات تافهة .

تفقدت بعض المحال التجارية الكبرى ، وأخصها (متسوكوشى) شـبيه لافاييت بباريس ، وشكوريل بمصر ؛ إلاّ أنه أفخم بناء وأعظم امتداداً حوى كل شىء حتى الطيور والفاكهة ، والمطاعم ، والمقاهى . إلى جانب مستلزمات النسـاء والرجال جميعاً ، وفوق سطحه بعـد الدور السابع حديقة يابانية أشـبه بالحدائق المعلقة ينمو شجرها و يتفتح زهرها وتتوسطها النافورات والصخور ، وترى المقاعد صفت للمتريضين ، وأراجيح الأطفال ، وملاعبهم منتشرة خلالها ، وأمثال تلك الحدائق تعلو غالب المبانى وتسمى بالحدائق السماوية ، وفى أقصى أركان الحديقة هيكل يقام لإله النجاح يزوره الجميع لكيلا تنسيهم المادة واجبهم المعنوى ، وللمحل عدد كبير من السيارات الضخمة الفاخرة تنقل رواد المكان إلى محطة سكة الحديد ومنها بدون مقابل .

الى نكو : مصطاف ملـكى ساحر صافى السماء — ومن ثم سمى نـكو أعنى ضوء الشمس — يقع وسط الجبال المعقدة تفصل ما بينها وديان متلوية سحيقة تغص بالشلالات والخوانق ، وغابات الصنوبر تـكاد تـكسو المدينة كلها ، وصلتها فى ثلاث ساعات بقطار الـكهرباء فبدت مناظر الطريق فى قسمه الأول سهولاً يكسوها الأرز الذى يخطط الأرض فى تماثل جميل و بين آونة وأخرى تبدو منابت الـكتان والحصر ، وعلى مقربة من نـكو ظهرت الربى والغابات وأخذنا فى الصعود



(شكل ٧٠) داخل معبد ميجى فى كامل روعته

حتى حللنا القرية ببيوتها الخشبية اليابانية التى يستخدم ظاهرها لعرض المنتجات اليابانية الدقيقة ، وأهم جانب هنالك ناحية المعابد فهى عديدة لا تحصى ، وعالبها جميل الهندسة موفور الطلاء ، سلكنا سبلنا إليها صعداً ، ومررنا بجانب قنطرة مقوسة صغيرة فى لون أحمر جذاب ، تقع على نهر دايا المقدس ، ويسمونها القنطرة الإلهية ، ولا يجوز أن يعبرها غير الامبراطور وأسرته فحسب ، وأفخر المعابد طراً معبد (ايياسو) ومدفنه ، وهو مؤسس أسرة شواجن طوكوجاوا (١٦٠٠ — ١٨٦٨) بناها حفيد ايياسو ثالث الشواجن سنة ١٦٢٤ ، وظل العمل ١٢ سنة يبذله من العمال ١٥ ألفاً كل يوم حتى قدرت نفقاته بمليونى جنيه ، أخذنا نجتاز بوابات من خشب باسق من خرط يابانى تطوقها رقائق النحاس البراق وطلاء الذهب الخاطف ، وتلفت النظر بنوع خاص ، البوابة الثانية التى تبهر النظر لكثرة زخرفها وبريقها ، ولا يكاد يفوقها جمالاً سوى (تاج محل) فى الهند ، وفى داخلها تقوم المقبرة فى هرم مدرج من نحاس يضم الرماد المخلف من احتراق جثة ايياسو ، وعندما تم بناؤه خشى مهندسوه حسد الآلهة وحنقها على الامبراطور من فرط جمال البناء ، لذلك أقاموا نماذج مصغرة للبناء فوق بعض الأعمدة وهى منكسة

دفعاً لذلك واتقاء غضب الآلهة ، وأغرب ما يذكره القوم عن ايياسو أنه أباح للزوج الطلاق بغير مبرر كما أباح اتخاذ أى عدد من الخليلات مع الزوجة ، على أن يكون أولاده منهن جميعاً شرعيين ، لـكن ابن الزوجة هو الوارث ، وإلا ورث أخوه أو أقرب الناس إليه ، وإذا لم تعقب الزوجة سوى الأناث تبنى أحد أفراد عائلة أخرى ، ولا يجوز لمن دون ١٦ سنة أن يتبنى غيره إلا إذا كان على فراش الموت خشـية انقطاع حبل الأسرة ، وكان يبيح للزوج قتل زوجته مع خليلها ، فإن قتل أحدهما عد مذنباً ، وحول المكان معابد لا تدخل تحت حصر ، وبجانبه (باجودا) تمثل برجاً يابانياً من سـبع طبقات ، وتعد من أجمل منتجات الفن اليابانى ، وترى فى مداخل أغلب المعابد خصوصاً البوذية تماثيل حفظة المكان وقتلة الجن فى أشكال مزعجة منفرة ، لا تسيغ لك نفسك النظر إليهـا ويسميها بعضهم (يأجوج ومأجوج) ، وكنت ألاحظ الزائرين اليابانيين يبصقون عليها قطعاً من ورق يمضغونها ، فان التصقت لبابة الورق بالتمثال كان خـيراً وإلا دل على غضب الآلهة وعدم قبول الصلاة .

وللمدينة مدخل رائع بين صفين من شجر (Cryptomeria) السامق الرهيب الذى يكاد يتعانق من أعلاه ويخط طريقاً قاتمـا رائماً يمتد ٢٢ ميلا فى تمـاثل جذاب أقيمت أشجاره سنة ١٦٤٨ فبلغت ٤٠ ألفاً وهى اليوم ١٨ ألفاً ، والسير فى الطريق يذهب بخيال المرء كل مذهب بحيث يترك فى المخيلة أثراً لا تمحوه السنون ، وهنا أقلتنى سيارة وسارت صعداً بين الربى والشلالات والنقائع فوق طريق لياته من الأعاجيب عددت منها ٣٥ لية ، وكانت السيارات تسير كأنها متوازية تمـاما كل درجة من الطريق تعلو الأخرى ، وكلما علونا بعد غور الوديان وفتر منظرها لـكن ظل دوى مائها يتردد فى أرجاء الربى من حولنا فى شدة رهيبة وبعد ساعة كاملة فى ذاك الصعود ، وقفنا إلى جانب شلال كوجون وغور مسقطه ٣٣٠ قدما ، وقد أعد القوم قبالته مشرب شاى جميل ، أخيراً وصلنا منبع النهر



(شكل ٧١) حديقة معلقة فوق الطابق السابع
من محل مسوكوسى التجارى فى طوكيو

من بحيرة (شوزنجى) على علو ٤١٩٤ قدم تنعكس على صفحتها اللجينية الآسنة الربى السندسية ، ومنظرها من داخل المعبدالذى أقيم تقديساً لها ساحر جدير بعبقرية الشعراء التى تستطيع ترجمته للناس فى جلاء وسحر بيان ويقينى أن نكُّو جمعت بين جمال الفن الأثرى والابداع الطبيعى فهى مقام هانئ لمحبى الفنون ورواد الهدوء وواسعى الخيال ، ولليابانيين الحق فى مثلهم السائر : — لا تقل نكو (Neko أى فخم) إلا بعد أن ترى نكو (Nikko) على أنى لاحظت افتقار مناظر اليابان الطبيعية لطوائف الحيوان على اختلاف أنواعه فهى لا تلائم الصياد قط ، وقلما يسمع المرء فيها تغريد طائر فأحراشها وغاباتها ساكنة سكون الموت مما يجعلها موحشة رغم جمالها الساحر .

قمت بجولة على ضفاف نهر (سوميدا) فى طوكيو فهالنى منظر المصابيح الملونة من الورق تصف على جانبى النهر ، وعلمت أن يومى هذا صادف حفلة يسمونها : عيد المصابيح حين تحرق سيقان جافة من الكتان فى مدفن العائلة وقبل خمودها يشعل فيها مصباح المدفن ، ومنه يضاء مصباح آخر ينقل إلى البيت ويضاء منه الهيكل ، ويزعمون أن هذه النار توقظ أرواح الأجداد فتسير على هديها إلى البيت


(شكل ٧٢) البوابة الفاخرة فى معبد أيياسو

لذلك يقدمون القرابين من المأكولات أمام الهيكل فى كل بيت ويركعون للآلهة ، وفى نهاية الليل تعود الأرواح إلى مقرها بعد أن تبارك الذرية وتكفل لها السعادة طوال العام ، وفى غالب البلاد تضاء مصابيح لاحصر لها فى شكل طيور الماء وتعوم فى اليم إلى المصب وسط تهليل القوم فى الضفاف والزوارق فى مشهد غريب .

وأمثال تلك الحفلات يقيمونها فى كثير من المناسبات من بينها : حفلة رأس السنة القمرية — لأن حسابهم القديم كان وفق التقويم القمرى [١] فتقام شجرة أمام كل بيت تدخلها الآلهة فى زعمهم فان حسن استقبالها كانت سنتهم سنة خير وبركة ، لذلك يقطع الجميع الشجرة المقدسة قبل نهاية السنة بأربعة أيام وتغطى بالعشب فى زاوية من البيت ، ويقدم (الساكى) حولها ، وفى ليلة رأس السنة تزرع أمام الدار ومنها تصنع عصى الأكل التى تستخدم فى حفلات السنة كلها ، وبعد أسبوعين تقتلع هذه الأشجار وتحرق خارج المدينة وسط تهليل الجماهير توديعاً للآلهة ، وفى هذا العيد يؤدى كل مدين دينه ، وإلا فقد شرفه بين الناس

(١) لا يزالون يقسمون اليوم إلى ١٢ ساعة مزدوجة يرمز لكل بحيوان : فمن منتصف الليل إلى الثانية صباحاً ساعة الفأر ، تليها ساعة الثور ، ثم النمر ، ثم الأرنب ، ثم التنين ، ثم الأفعى ، ثم الحصان ، ثم الجمل ، ثم القرد ، فالديك ، فالقنفذ ، فالثعلب ؛ فيقول لك أحدهم سأزورك ساعة الأفعى أى بين العاشرة والثانية عشرة وهكذا



(شكل ٧٣) فى مدخل معابد نكو ومن ورائنا البرج القديم

لذلك يحاول دفعه ، فان عجز عرض بعض ما يمتلك للبيع ويحاول اجتذاب المشترين ولذلك تكتظ الأسواق فى الأسبوع الأخير من السنة بالباعة والمشترين لوفاء دينهم، وعجيب أن يحل بعضهم السرقة لسد دينه لأنه يرى فى عدم الوفاء بعهده جرماً أكبر من السرقة ، ولهذا كانت أغلب الجرائم هناك فى هذين الأسبوعين ، وأعجب من ذلك أن الدائن لا يأخذ صكا على مدينه بل يقول له : إن لم تدفع فى الميعاد قلت الأمر لجيرانك ، وفى هذه الفضيحة الكبرى

ومن أجمل حفلاتهم : حفلات الأطفال : فحفلة الفتيات (هينا ما تسورى) تقيمها كل عائلة عقبت فتيات ، ويكون ذلك يوم ٣١ مارس وهو موسم أزهار شجر الخوخ ، ويشترك فيها جميع أوانس الأسرة ، ولا يشترك فيها الذكور قط ، فتقوم دميتان كبيرتان تمثلان نبيلاً وزوجته ومن حولهما دمى كثيرة تمثل الخدم والأتباع ، ويلبس الجميع ثياباً فاخرة وتعرض بجانب الدمى سائر أدوات المنزل فى حجم صغير دقيق ، وبعض تلك يتطلب نفقات باهظة لذلك قامت مصانع لاعداد ذلك ، وفتيات الجيران يدعون لتناول الطعام فى تلك الآنية الصغيرة وإلى جانبه شراب مخفف من (الساكى) ، وبعد ذلك يلعبن ويعزفن ويغنين ، وقبل بزوغ

الفجر تلف كل المعروضات لكى يعد ذلك فألاً بزواج الفتاة المبكر ، ويقولون إن تلك العادة خرافة قديمة نقلت عن تفاؤلهم بالبنات لأنهن بشير إنتاج الأرض الوفير ، لذلك كانوا يكافئون البنات بعمل الدمى لتدفن فى الحقول ثم تطورت إلى الاعتقاد بأن الدمى تمائم تقى الفتيات الشر ، وكان من عاداتهم القديمة أن تحلق الفتاة يوم الزفاف حاجبيها وتخضب أسنانها باللون الأسود علامة الوفاء ، لذلك تراهم يمثلون ذلك فى الدمى المعروضة فى هذا العيد



(شكل ٧٤) ندخل نكو من طريق تحفه أشجار (الكريتوميريا) إلى مدى ٢٢ ميلا

أما الفتيان : فيقيمون لهم حفلة (تانجونوسكو) كل معروضاتها من دروع وحراب وأعلام وأردية عسكرية يقدم أمامها الساكى والحلوى ، ويأكل الأطفال كعك الأرز تكسوه أوراق الشجر ، وفى هذا العيد يستحم جميع الأطفال فى ماء ساخن جداً تعطره أوراق شجرة خضراء ويقيمون أعمدة تطير فوقها مقاصيص الورق وكأنها الطير أو السمك يسبح فى الهواء

إلى ها كونى : قطعنا ٥٢ ميلاً إلى ضاحية تسمى ميانوشيتا (أعنى أسفل الجبل) فى مناظر لا تقل سحراً عن مناظر نكو وبها من المقاهى والانزال الشىء الكثير حلت أفخرها على نهر (هايا) وحول النزل كثير من الينابيع التى قد تبلغ



(شكل ٧٥) المصابيح الملونة تلقى فى اليم وهى تتلألأ فيذهب بها التيار بعيداً وسط تهليل القوم

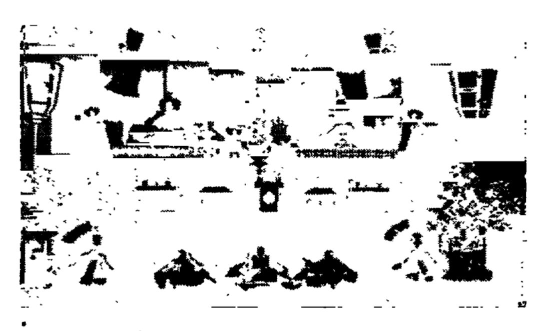
حرارة بعضها ٧٥° م يؤمها القوم للاستحمام والاستشفاء، ومن هنالك أقلتنى سيارة إلى بحيرة هاكونى التى تبعد بنحو ٨ أميال فوق الربى هنالك بدت صفحة من فضة ينعكس عليها (فوجى ياما) أروع مناظر اليابان وأعلاها ذروة وأسماها مكاناً حتى عده الجميع خير الجهات المقدسة قاطبة ويحج إليه الجميع فى مواسم معينة بمصابيحهم وقرابينهم ويتسلقون مخروطه القاتم تجلله خطوط الثلج الوضاء وهو أبداً يرتسم على محيا البحيرة حتى فى ضوء القمر لذلك أسماها القوم بحيرة (ساكاسافوجى) أعنى فوجى المزدوج، على أن يومنا كان غائما كثيف الضباب غزير الأمطار لذلك أخفى عنا جانباً من روعة المناظر، ولم أكد أرى من فوجى إلا قبساً ضئيلا لم يشف غلة، فكأنه آلى إلا أن يحرمنى الاستمتاع به كاملا لأنى غريب عن أهله مارق عن مذهبه، على أنى فى عودتى من طوكيو إلى أوزا كا كنت أراه بكامل روائه طوال الطريق.

عدت إلى طوكيو ورغبت فى زيارة بعض دور العلم بمعاونة صديق يابانى هو (المستر يوكوياما) أقام فى مصر سنتين فى رياسة المعرض اليابانى وهو كما بدا لى من أحاديثه من المحبين لمصر والمصريين ولا يذكر بلادنا إلا بالخير مما حببنى فيه، وقد عاوننى فى ارتياد كثير من نواحى العاصمة وضواحيها، ولقد كان واسطة التعارف بينى وبين أحد أساتذة الجامعة من الأمريكان، ولم يسعدنى الحظ



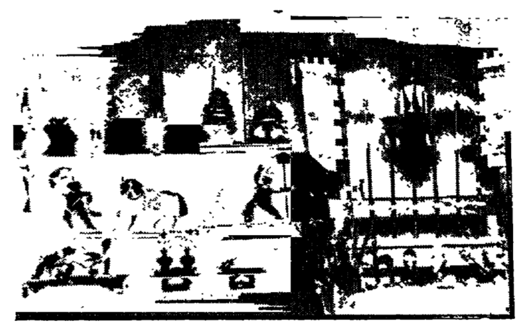
(شكل ٧٦) شجرة رأس السنة أمام الدار

بزيارة المدارس لأنها كانت في شهور العطلة ، غير أنى لم أحرم فائدة ما قصه على من أنباء التعليم فى تلك البلاد الناهضة التى نقلت غالب نظمها فى التعليم عن أمريكا ولقد نشط التعليم منذ سنة ١٨٦٩ حين أقسم الامبراطور انه سيعمل على نشر التعليم حتى لا تبقى عائلة جاهلة ولا يبقى عضو أمى من أية عائلة كائنة ما كانت ، ولقد نجحوا فى ذلك حتى لم يبق من الأميين اليوم مايبلغ الواحد فى المائة ، وللطلبة هناك شأنهم فى بلاد الشرق طرا : احترام شديد وتأثيرهم فى الرأى العام كبير ، وكثيراً ما يتدخلون فى شئون الدولة نفسها ، ولهم ملابس خاصة شبيهة بالملابس العسكرية ، وتلك نقلت عن ألمانيا ، وجميع المدارس تحت إدارة حكومية ، ونظام التعليم هناك ديمقراطى لا يفرق بين أبناء الطبقات المختلفة ، ويدرس التلاميذ فى المدارس الابتدائية لغتهم وتاريخهم وشطراً كبيراً من علم الأخلاق والكتب موحدة وترمى إلى حثهم على التضحية والولاء للدولة ، والتعليم الابتدائى اجبارى للذكور والاناث ومدته ست سنين ، ويليه التعليم المتوسط لمدة خمس سنين ويحكى المدارس الثانوية عندنا وهو مجانى هنا أيضاً على أنه غير اجبارى ، وعند الالتحاق بتلك المدارس يجب على الطالب أداء امتحان مسابقة ، لأن تلك المدارس لا تسع سوى ١٠ ٪ ممن أتموا التعليم



(شكل ٧٧) عيد الفتيات يجتمعن فيه حول الدمى الكثيرة ويقدمن مختلف الطعام والشراب

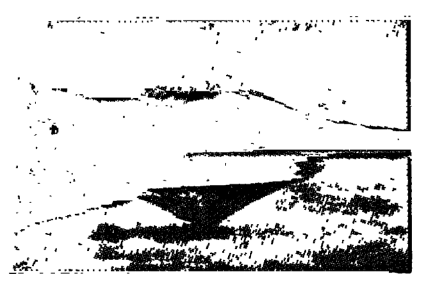
الابتدائى وهنا يبدأ تعليم اللغة الانجليزية ، ويلى التعليم المتوسط التعليم العالى لمدة أربع سنين ، ومن أراد دخول الجامعة اقتصر فى فرع آخر من المدارس العليا على ثلاث سنين ، وفى الجامعة يظل ثلاث سنين أو أربعاً . وبذلك لا ينتهى الطالب من دراسته إلا فى سن السادسة والعشرين على الأقل ، ولعل سبب طول مدة الدراسة هكذا راجع إلى أنه يتلقى نوعين من الثقافة : اليابانية والغربية ، وكذلك قد تكون صعوبة اللغة اليابانية من الأسباب فانها تؤخر الطالب نحو ثلاث سنين ، ومن مزايا نظام التعليم فى اليابان أنه يقوم على امتحانات المسابقة فالكفاءة هى الشفيع الوحيد فى دخول المدارس وليست الجاه والمال (كما هى الحال فى انجلترا مثلا) والطالب يجد نفسه فى التحضير لتلك الاختبارات من جهة ، ولدروسه المدرسية من جهة أخرى ، مما أثر فى حالته الصحية ، والتدريس هناك يقوم على المحاضرات فى المدارس العليا كلها ، وعدد الفرق كبير جداً ودروس الأسبوع ٣٥ مما لم يترك للطالب وقتاً كافياً للاطلاع فاعتمد على المدرس وما يلقنه إياه ، وفقد جانباً كبيراً من قوة الابتكار رغم ما أوتى



(شكل ٧٨) عيد الصبية وتعرض فيه الحراب والدروع والخيول والأجناد

اليابانى من توقد فى القريحة وفرط فى الذكاء يفوق أقرانه فى سائر الشعوب

ويلفت النظر ما للرأى العام بين الطلبة من الأثر على المدرس فان لم يرق الطلبة نقدوه علناً وطالبوا بتغييره ، ويغلب أن يجاب طلبهم ، ولا يعد المدرس ناجحاً إلا إذا استمال طلبته إليه ، ولهذا أثره السيء فى تغافلهم عن التعمق فى الدرس وهم يحاولون أن يظهروا بمظهر العلماء ، وفى هذا ما فيه من الغرور الأجوف الذى زاده احترام أهل تلك البلاد للرقى العقلى والثقافة أكثر مما يلاحظ ذلك فى بلاد الغرب التى لا تعطى للمتعلم ذاك الاحترام الكبير ، لذلك يحاول المتعلمون طلاء أساليبهم فى إغراب كبير ، وقد يدخلون بعض الكلمات الأجنبية زيادة فى التمنيق وحباً فى الظهور ، حدث مرة أن قام وزير يخطب فى دعاية دينية فلما انتهى من كلمته فى لغتها المتكلفة التفت أحد الحاضرين إلى جاره وقال : أنا لا أفهم الإنجليزية ! كذلك حدث لما زار إينشتين اليابان وحاضرهم فى موضوع النسبية أن كان يستمع له أستاذ ألمانى وتلميذ له يابانى تلقى عليه الألمانية لمدة نصف عام فلما انتهت المحاضرة قال الطالب لأستاذه : أنا أفهم كل شيء بالألمانية ولم تكن بنا حاجة



(شكل ٧٩) مخروط فوجى ياما الرائع ينعكس
على صفحة بحيرة هاكونى

إلى هذا المترجم فقال له أستاذه: إذن فأنت أقدر منى فى الألمانية لأننى لم أفهم من الموضوع إلا القليل !

ومنذ عهد ميجى كان غرض التعليم هناك نقل المدنية المادية عن الغرب لحفظ كيان الدولة . ولم تعترف اليابان بأن حضارتها ونظامها الاجتماعى دون حضارة الغرب مقاماً فكان هم الزعماء الوطنيين الجمع بين الاثنتين رغم ما بينهما من تنافر ، ففى أوروبا يرمى التعليم إلى ترقية عقل الفرد وخلقه بصرف النظر عن قومه وعائلته ؛ لكن اليابانى خاضع للأسرة وللدولة بحكم نظامه الاجتماعى لذلك كان الغرض من تعليمه خدمة السياسة القومية ومن ثم نجح التعليم هناك فى تخريج طائفة قديرة من رجال الإدارة والجند ورجال الصناعة والتجارة والأعمال المالية ؛ وبفضل هؤلاء بلغت البلاد هذا المستوى من الرقى . أما النابهون المبرزون العباقرة فيندر وجودهم هناك .

على أن التغير بدأ يسود طوائف الطلبة منذ الحرب الكبرى فقد تدفقت عناصر الحضارة الغربية تلك التى قوت روح النقد لتصرفات القدماء وأصبح موقف الشبان هناك شبيهاً بموقف شباب إيطاليا عهد النهضة حين ثملوا بخمر ما داهمهم من حضارة الغرب خصوصاً فى الفن والموسيقى والنظام الاجتماعى والسياسى فبعد أن كان يلقن الطاعة للآباء والولاء للدولة والخضوع لتعاليم الدين الشنتوى أخذ يدرس فى الجامعات الحرية الشخصية والحكومات النيابية مما يثيره على النظم

القديمة فتراه اليوم حائراً أى السبيلين يسلك مما أضعف إيمانه فلم يرم لغرض واحد ذلك الذى كان خير كفيل بتقدم اليابان الأخير ، وقد أحس بافتقاره لوسائل التسلية التى يتمتع بها نظيره الغربى ، وكذلك أحس بضيق فسحة الفراغ التى تساعد الاطلاع والبحث.

ولا يزال ينقد الأجانب نظام المدارس لكبر الفصول وحداثة عهد المدرسين ذلك الذى لا يوجد التعارف الشخصى بين المدرس وطلبته ويزيل التأدب الظاهر ويحل الحب المتبادل والإخلاص محله ، ولا يزال المدرس الذى يمتزج بالطلبة عرضة للإهانة هناك ، وقد أخذ الآباء يتهمون النشء بنقص فى الوطنية يبدو جلياً فى نفورهم من التجنيد ، وأوضح ما يظهر ذلك فى كراهية الطلبة للضابط الذى يخصص لتعليم الطلبة النظم العسكرية فى جميع الكليات ، على أن الفرنسيين عموماً والإنجليز خصوصاً يرون أن نظام التعليم اليابانى على ما به من عيوب أفضل من نظمهم لأنه يسوى بين الطبقات جميعها فلا يفضل طالب لجاهه أو ثروته بل لكفاءته مما ساعد الحب المتبادل بين أفراد جميع الطبقات . فكان لذلك أثره القومى الجليل .

الى كيوتو : (ومعناها عاصمة العواصم) : أخذت القطار السريع فوصلتها فى عشر ساعات ، أسست سنة ٧٩٤ وظلت عاصمة البلاد إلى ١٨٦٩ حين انتقلت إلى طوكيو (العاصمة الشرقية) وهى تقع وسط سهل تحوطه الربى من جوانب ثلاثة ، وقد كانت ولا تزال مقر الحضارة والفنون اليابانية البحتة ، وتكاد تعد خير المدن اليابانية التى لم تمسسها يد التجديد قط فغالب مبانيها خشبية واطئة كسائر القرى اليابانية أثاثها قليل تفادياً من أخطار الزلازل التى يبلغ متوسط هزاتها الشديدة ثلاثاً فى كل يوم حتى أثر ذلك على مجارى صرف المياه والأوضار فأفسدت رائحة بلادهم وحقولهم حتى اتهمهم الأجانب بضعف حاسة الشم ، والعجيب أن



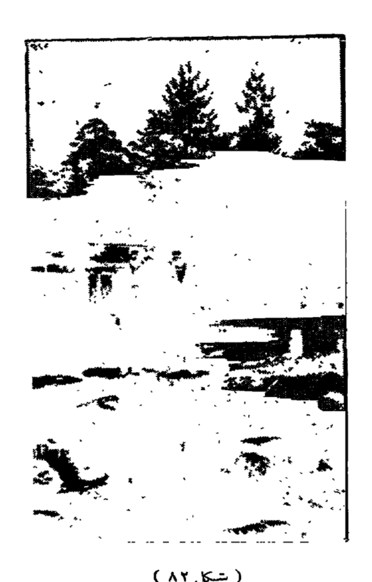
(شكل ٨٠) حفلة الشاى المنزلية وما يحوطها من مراسيم

البحث الطبى أثبت ضعف الشم والسمع والبصر فى المتوسط هناك ولعل للمناخ أثراً فى هذا . وحدائق البيوت نسقت على النمط اليابانى . والحديقة اليابانية نموذج مصغر لما يحوطهم من مناظر طبيعية فرغم صغرها توهم بوجود الجبال والبحيرات وقد يخيل للمرء أنه يرى شلالات على بعد رغم عدم وجود المياه ، وقد يعبر المرء صخرة أو قنطرة صغيرة تشعر بنهر وترى بقاعاً مهملة عليها الحصى والرمل كأنه جزء من شاطىء بحر ، وكثيراً ما يقلد البستانى منطقة طبيعية معينة ، وتقع حدائق البيوت غالباً خلفها تطل عليها الحجرات الهامة لأن الحديقة ملجأ العائلة فى سرورها وراحتها وتعبدها ففيها نوع من العزلة والحجاب وقد تكون الحديقة جبلية نقلاً عن منحدرات الجبال وقد تكون مبسوطة نقلا عن مرج أو وادى ، و بحيرات الحديقة يجب أن تشعر ببحر صغير بسواحلها الرملية الخشنة وصخورها المنثورة



(شكل ٨١) الفتيات يقطفن أوراق الشاى الأخضر فى مزارعه
الشاسعة فى اليابان

وسطها ، ولا تخلو الحديقة من العيون الدافقة ، ولكى توحى بالجمال الطبيعى وجب أن تقام المصابيح من الحجر لتتمشى مع الصخور والأشجار ، وقد كان الغرض منها الاضاءة واضحت اليوم للزينة ، ويراعى فى ترتيب الشجر والنبت الاندماج وعدم التماثل مع الجمال الفتان ، وينتقى نحو أربعة أخماس الشجر من دائم الخضرة أما النفضى فقليل ومن ذوات الألوان التى تشعر بالدفء فى الربيع والخريف ، ولا تخلو حديقة من شجرتى البرقوق والكريز ذوات الزهور الساحرة أما الشجر المزهر فلا حصر له ولابد أن تبعثر الأشجار المزهرة خلف الدائمة الخضرة لكيلا يخلو الزهر من الخضرة حوله ، ولكيلا تشعر بعض فصول السنة بشىء من الجدب والجفاف ، ولا يكاد يخلو الماء من شجر السوسن والبنفسج . ذلك نموذج من حدائقهم التى تحكى الطبيعة ، زرت بعضها فى الميادين وأخرى فى البيوت ، وهناك جلست فى مقصورة الشاى التى يغلب أن تقام فى كل بيت ومن تحتنا الحشيات (الشلت) من الحرير البراق ، وللشاى عندهم غرام عجيب يقدمونه فى أوانيهم الثمينة من الخشب المزركش بالذهب (واللاكيه) والفتيات يقدمن



(شكل ٨٢)
متنزه ماروياما فى كيوتو وهو مثل من الحدائق اليابانية

الكؤوس ونحن نقدم لهن كؤوسهن مجاملة وأدبا ، ويقيمون له حفلات فى مواسم خاصة ويعتقدون أنه من أكبر العوامل على تعليم القوم أدب الاجتماع وهو الذى نهض بكثير من صناعاتهم الدقيقة كالتصوير واللاكيه والخزف وتنسيق الحدائق وتميق الزهور ، وقد أصبحت أوانى الشاى لديهم من النفائس ، وقد نقلوا ذلك عن الصين منذ القرن السابع ، وكان شرب الشاى إذ ذاك قاصراً على القسس ثم انتشر بين الخاصة ، وكان يشرب مسحوقا كالبن ، وقيل إن الموسيقى كانت تعزف عند سماع صوته وهو يسحق احتراماً له وشاع بينهم أن شربه يطيل العمر ، وقد كشف الأستاذ سوزوكى سنة ١٩٢٥ أن الشاى الأخضر اليابانى يحتوى على مقدار من الفيتامين (ج) أكبر مما فى الفاكهة والخضر وهو ينشط الأعصاب ، لذلك يستهلك القوم ثلاثة أرباع ما يزرعون وهو مائة مليون رطل ، وأول ما نقله الأوروبيون عنهم سنة ١٥٦٥ بواسطة (المايدا) البرتغالى ويقصون أن بعض عظمائهم مد بساطاً للشاى بلغ ثلاثة أميال تكسوه الآنية الثمينة الفاخرة وحضره ٣٦٠ من المدعوين فى كيوتو وعن هذا النظام نقله الفرنسيون

ومن المتنزهات ذائعة الصيت فى كيوتو (مارو ياما) قضيت فى جناته طويلاً ثم عرجت على زيارة معبده الكبير ، وأعجب ما هنالك نار يقوم الجميع على إشعالها أبداً ومنها يأخذ الناس قبساً فى خيوط يبتاعونها من القسس ويذهبون مسرعين إلى بيوتهم لاشعال نار مستهل السنة كى تظل بركة النور المقدس تحل فى البيت وتستطيع أرواح الأجداد زيارته ، وبعد أن جبت كثيراً من المعابد عرجت على القصر الامبراطورى بأسواره الممتدة يحوطها الخندق ، وهنا يتوج الامبراطور إلى اليوم فى حفل كبير ، وبعده دخلت المتحف ولعله أكبر متاحف اليابان لكثرة معروضاته من مخلفات اليابان القديمة على أنها فى نظرى لا تشعر بماض مجيد ، وقد تناولت العشاء فى فندق يقوم فى بناء فاخر من خمسة طوابق شاهقة ويطل على النهر وكل طابق مقهى أعد على نظام يغاير الذى يليه فى التنسيق ، وفى نوع الطعام والشراب ، وفى الألوان والأضواء فتخيرت أعلاها لأن منظر المدينة من دونه بأضوائها الخاطفة ساحر لا أنسى روعته .

أمانوهاشداتى : (أعنى الجسر السماوى) احدى آيات الطبيعة الثلاث فى اليابان وهى مياجيما جزيرة المعبد وماتسوشيما أو جزائر الصنوبر وعددها ٩٠٨ تكسوها الأشجار اليابانية وهاشيداتى وهدة تتغلغل فى جوانبها أجوان البحر الشمالى وتنتثر جزائره الصغيرة ، وصلتها فى ست ساعات خلال طرق متلوية وفيرة النبت والغدران والشلالات شأن كل أرجاء اليابان ، وهنا يظهر جلياً أن الطبيعة جادت على اليابان بجمال وتنسيق بخلت به على سائر بلاد الدنيا . فكأن اليابان آية ما أبدعته يد الطبيعة فأينما سرت تباغتك الطبيعة بسحرها الخلاب ، وقد سميت بالجسر السماوى لأن هناك جسراً نحيلاً طوله ميلان وعرضه يتراوح بين ٤٠ و ٧٠ متراً يشق الماء وتكسوه أشجار الصنوبر ، تسلقت فى أحد طرفيه ربوة بواسطة ترام كهربائى هوائى على قمتها معبد ومن حافة الربوة وقفت كسائر الحجاج وظهرى للماء والجسر وانحنيت حتى أوشكت رأسى أن تدخل بين فخذى وهنا دهشت لأنى



(شكل ٨٣) الجسر السماوى ، وترى الآنسة قد أطلت من بين مخفيها لترى الجسر وكأنه القنطرة

رأيت بركة المـاء من دونى وقد انعكس عليها صفاء السماء فبدت هى سماء لألاءة ، والجسر كأنه القنطرة النحيلة قد بدت فوق لجتها .

الى نارا : وهى إحدى العواصم القديمة التى ظلت زهاء ثلاثة أرباع القرن حاضرة اليابان قبيل كيوتو ، بدت على كبرها كأنهـا متنزه واحـد وسط غابة ممدودة تتخللها المسـاكن ، والمعابد ، والمقهى ، يؤمها الحجاج فى زرافات ، وتراهم منكبين على تناول المرطبات ، وبخاصة (الثاج المبشور) فى غير طعام ولا شراب ، ويظهر أنه أحب المرطبات لديهـم ، لأنى كنت ألاحظه أينما حلات ، ويليه : أيسوكوريمو (جيلاتى) الذى يلتهمـه الجميع بشره زائد ، ولعل شهرة نارا اليوم فى معابدها وأجلها : تمثال بودا النحاسى ، وهو أكبر تماثيـل اليابان طراً ، وإن أعوزه الجمال والفن عن تمثل (كاما كورا) يعلو فى الجو ½ ٥٣ قدما ، ويزن خمسمائة طن ، وفى معبد آخر ناقوس ضخم زنته أربعون طناً ، وهو أكبر نواقيس اليابان ، يدقه المتعبد ساعة أن يلقى نقوده أو قرابينه للآلهة ليوقظها فترعاه وتكلأه

ولصوته المزعج الرهيب دوى تردده الربى طويلاً ، وأبنية المعابد كلها من خشب ضخم تكسوها السقوف المتحدرة ، تتقوس أطرافها إلى السماء دفعاً لغوائل الجن ، وترى آثار بودا الذى يوصى بالرفق بالحيوان جلية فى كثرة الحمام الأليف ، يبتاع له القوم الحب المقدس ، فيتهافت الطير علينا فى زرافات تختطف ما بأيدينا منه وما بأفواهنا وجيوبنا فى ألفة عجيبة ، وكذلك أسراب الظباء المقدسة التى تمرح فى أرجاء الغابة كلها ، نبتاع من أجلها أقراصاً من خبز (البازلاء) المقدد ، فتلتف حولنا ، وتلتهم الخبز من أيدينا فى هدوء واطمئنان ، وعند الأصيل يضرب الرجل بتاعورته فتغذ إليه من أقاصى الغابة ليطعمها ، ثم يقودها إلى حيث تنام ، ومجموعها اليوم سبعمائة ، وفى شهر أكتوبر من كل عام تقص قرونها كيلا يؤذى بعضها البعض . وفى أقاصيصهم أن أحد الآلهة أتى هذا المكان ممتطياً ظبياً ليتعبد فى معبد نارا الكبير ، ودعا إليه إلاهين جاءاه على متون الغزلان ، فأصبحت الغزلان لذلك مقدسة إلى اليوم .

الى يمادا ايسى : وصلتها فى أربع ساعات وهى مقر دينى ومتنزه بديع ، وفى طريقى إليها عرجت على قرية (توبا) وبها صخرة فوتامى أورا المقدسة وهى من حجرين وسط الماء تشرق الشمس من بينهما فى مشهد جميل ، ويحج الناس إليها لزعمهم أن إحدى الآلهة جلست فوقها وكانت تستقبل شمس الصباح ، لذلك تعلوها بوابة صغيرة مقدسة ، وفى يامادا زرنا معبدين رائعين يعتقد القوم أن أرواح البراطرة تحل فيها ، لذلك ترى العناية بهما فائقة فى النظافة والتنسيق ، ولا بد من هدمهما وإعادة تجديدهما كل عشرين عاماً ، وفى المداخل كلها يقف ضباط البوليس فى خشوع كأنهم يصدعون بأمر أرواح البراطرة ، والامبراطور نفسه والأمراء يزورون المكان لإبلاغ وحى أجدادهم كل أمر جل أو صغر ، فعندما ولدت للامبراطور بنته الأخيرة ذهب فأبلغ الأمر لروح أجداده ، كذلك لما عاد أخ الامبراطور تاكاماتسو وزوجته من رحلتهما حول العالم ذهبا تواً إلى المعبد



(شكل ٨٤) أكبر نواقيس اليابان يدقه المتعبد إيقاظاً للآلهة

وأعلنا الأجداد بحضورها ، والمعابد هناك كلها شنتوية ، لذلك خلت من التماثيل فليس بها سوى البوابات الفخمة فى غير تقوس (كما هى حال البوذية) ، والمقاصير المديدة التى تكاد تخلو من الأثاث ، وفى الهيكل يتدلى ستار أبيض من خلفه مرآة تمثل روح الله ، ويسجد القوم أمامها فى خشوع ، ولا تكشف المرآة إلا ثلاث مرات فى العام فى مناسبات دينية كبيرة ، ويكثر أن يعلق القوم حول المعابد قصاصات من ورق ، وقيل إن السبب اتفاق كلمة ورق باليابانية مع اسم للآلهة ، وطالما كنت أرى دمية من قش دقتها إلى شجرة المعبد زوجة هجرها زوجها وهى تعتقد أنها كلما أكثرت من دق المسامير فيها أنقصت الآلهة من عمر زوجها الخائن ، وهى تعد المعبد أن تقتلع كل ذلك بعد موت زوجها ، لأن فى بقائها جرحا للشجرة المقدسة ، ومضايقة للآلهة ، وأمثال تلك الخرافات تعزى إلى قسوة عوامل الطبيعة ، تلك التى توحى بالأوهام ، وخشية القوى الخفية ، والجن ، ولذلك كثر السحرة والعرافون بينهم ، على أن الطبيعة رغم ذلك هدأت طباعهم بجمالها الفتان ، فعقائد اليابانيين كانت تبدو فى نظرى ساذجة بسيطة مبناها الخرافات التى يتمسك بها القوم جميعاً فى عصبية لا تتفق

وتقدمهم العصرى المدهش ، وكنت كلما ناقشتهم لم يستطيعوا الإقناع بل أحالوا الأمر إلى تقاليدهم التى يجب عليهم تقديسها . وكان البوديون وهم عامة الشعب يقولون بأن بودا هو الله كان إنساناً فى الأرض ثم صفت نفسه وصعد إلى السماء وهم يؤمنون بالبعث والجنة والجحيم ، على عكس الشنتويين الذين يمثلون الطبقة الممتازة ، فهم يرون أن الموت النهاية الطبيعية للحياة لا بعث بعدها ، ويعتقدون أن الله روح عليا فى سماء اليابان فحسب ، وأفراد الديانتين يقدسون الأجداد ، ويرون أن أجداد الامبراطور من سلالة الآلهة ، ولست أعرف فى العالم المتحضر اليوم ديانة تسود أذهان ذويها فى العقيدة والقومية معاً وتوحد بين الروح الدينى والزمنى مثل الدين اليهودى ، لذلك شهر أهله بالتعصب فشتتوا وبغضهم الجميع ، ولعل اليابانيين اليوم كذلك ؛ فالدين الشنتوى لديهم هو رباط الوطنية ، غالب الزمن والمبشرين جميعاً وظل كما هو ، فهو ليس عقيدة فحسب ، بل رباط قومى قوى يؤثر على اليابانى فى جميع نواحيه ، وهو فى لبابه عبادة الطبيعة ، ورغم أنك لا ترى مظهراً للتعصب فان العقيدة راسخة دعمت قوميتهم إذ كانت أساس الطاعة والوطنية وملتقى فضائلهم من الشجاعة والتأدب وشرف النفس ، فروح الشنتوية : التقوى ، والطاعة البنوية ، وتضحية النفس فى سبيل المبدأ فى غير تردد ولا مناقشة ، فقد أضحى الدين حافزاً خلقياً متوارثاً ، وهو من أكبر العوامل فى التوحيد بين الناس والتأليف بين قلوبهم ، فليس فيه ما يدعو للجدل والنزاع كما نرى بين مذاهب الديانات الأخرى ، والشنتوية لا تعتمد على عقيدة معينة ، ولا كتاب مقدس ، ولا معبود خاص ، ولا شعائر محددة ، حتى ولا رجاء فى الآخرة ، لذلك لم تقع بينهم حروب دينية قط ؛ وأخص ما ترمى إليه الشنتوية عبادة الطبيعة ، واحترام الموتى والآباء ، وهنا سر إخلاصهم لبلادهم ، فالطبيعة هناك جديرة بالعبادة فى اختلاف مناخها ومناظرها الساحرة وثمارها الوافرة ، لذلك أقيمت البوابات المقدسة حيثما تفيض الطبيعة بروعتها ، ولو أن

في البـلاد كثيراً من البوديين إلا أنهم لم ينزعوا من قلوبهم الشـنتوية إذ عرف الجميع معناها في الوطنية والإخلاص لبلادهم ، لذلك لا يقوم خصام بين الشنتوية والبودية فـترى المعبـدين متجاورين ، وقـد يكون القسيس مشتركا بين المعبـدين ، وكل القواعد التي شذ فيها الدين البودى عن



(شكل ٨٥) الغزلان المقدسة تأكل أقراص البازلاء من أيدينا

الشنتوى مهملة غير مرعية من الجميع ، فالبودية تعاون على نشر روح التشـاؤم ، ورغم ذلك فانك ترى التفاؤل والانتعاش النفسى هو السائد بين الشعوب اليابانية على عكس أهل الصين . ويحض بودا على السلام والونام والدعة ، لكنك ترى اليابانى من أشد المحاربين مراساً ، فالبودية عندهم سـطحية ، رغم ما يبدو من إسراف فى تشييد معابدها ، وكثيراً ما كنت أرى الرجل الواحد يؤدى الصـلاة بالركوع فى معبدين متجاورين أحدهما شنتوى والآخر بودى .

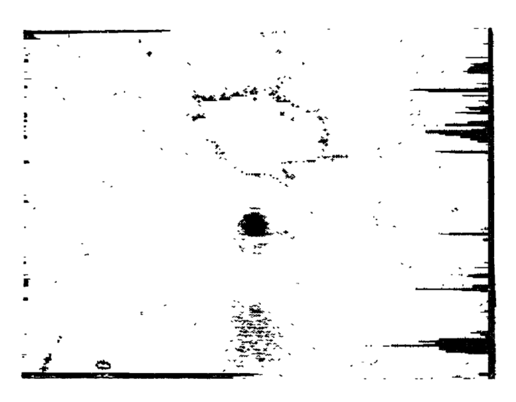
وإذا مات أحدهم أقبـل أصحاب الفقيد يقدمون بعض الهـدايا من كعك ونقود وطعام وزهور ، وفى اليوم التـالى يحضر القسيس ويضع الجثة فى حوض تحفه الزهور العبقة ثم تلف فى قماش أبيض ثم يحمله قوم فى أردية بيضاء يتقدمهم

بعض المرتلين ومن ورائهم المشيعون ، و إذا ما وصلوا المعبد وضعت الجثة على المحراب وقرأ القوم بعض الآيات وأخذ يمر المشيعون أمامها فرادى وهم يركعون ، و يلقون ببعض البخور فى كور متقد ، ثم توضع الجثة فى التنور حتى تصير رماداً تحت مراقبة المشيعين ، وهم خلال ذلك يأكلون ويشربون ويتحدثون عن فضائل الفقيد ، وكلما تم الاحتراق عاجلاً كان ذلك مدعاة للتهنئة ، منظر رائع لا محالة ، لكنا إذا علمنا أن عقيدة اليابانى فى الموت أنه النهاية الطبيعية للحياة ، لا يعقبها ثواب ولا عقاب زال العجب ، وكثير منهم يحمل ما تخلف من رماد فى زجاجة تدفن فى مدافن الأسرة و يقام عليها شاخص باسمه ، وقد تدفن الجثة بغير حرق ، و إذا كانت المتوفاة آنسة قص شعرها وحفظ فى البيت تذكاراً لذويها .

الى أوزاكا : قمنا بقطار الكهرباء ذاك الذى يكاد يشق جميع بلاد اليابان مما يدل على أنهم استغلوامنحدرات مياههم الكبيرة استغلالاً جعلهم فى مقدمة بلاد الدنيا استفادة بالكهرباء ، وترى غالب الخطوط الحديدية مزدحمة بين أمهات المدن ، سكة البخار إلى جوار سكة الكهرباء ، أما بلاد الريف فيغلب أن تتصل بالسكة الكهربائية .

و يلفت نظر السائح هناك أن كثيراً من القاطرات خصوصاً الريفية ذات مقاعد جانبية يجلس عليها القوم القرفصاء يواجه بعضهم بعضا لأنهم يكرهون الجلسة وأرجلهم مدلاة إلى الأرض مثلنا ، و يقال أن السبب قصر قاماتهم التى تجعل أرجلهم معلقة مما يؤلمهم كثيراً .

دخلنا أوزاكا فى أقل من ساعة فبدت غاصة بالحركة مكتظة بالسكان لأنها أغنى المناطق الصناعية ، و بخاصة النسيج حتى أطلقوا عليها إسم منشستر اليابان ، وهى أكثف المدن سكاناً ، لذلك لا تروق السائح كثيراً ، وأجمل مسالكها شارع (دوتومرى) التجارى قليل الاتساع ، عظيم الامتداد ، أضواؤه فى الليل تبهر النظر بأشكالها اليابانية المكورة عديدة الألوان ، تتخللها الاعلانات والأسماء



(شكل ٨٦) صخرتا فوتامى أورا المقدستان تشرق الشمس من بينهما

باللغة اليابانية فى حجم كبير ، وسيل الجماهير يثير الدهشة فهو لا يكاد يسمح بالمرور إلا والأكتاف متلاصقة ، وأجمل ما بدا منظر ذاك السيل الآدمى من قنطرة نهر أوزاكا التى تشرف على الشارع من وسطه ، وترى زوارق الرياضة فى النهر وقد علقت بها مصابيح النور الملون إلى مد البصر ، ويتقاطع مع ذلك الشارع آخر للملاهى والمراقص فى أضوائه الخاطفة وزخرفه وأثاثه اليابانى العجيب ، آويت ليلتى إلى نزل يابانى صميم ، وما أن حللت بهو النزل حتى رأيت حواجز الخشب والورق تزلق من حولى ، وفى لحظة حُصرت فى غرفة ضيقة وأحاطنى القوم بأدبهم الجم وكرمهم المعروف ، وبعد أن قدموا إلى شاى الاستقبال والقطيلة (الفوطة) المعقمة عرضوا على الحمام فرفضته — ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين — ثم أقبل رب النزل يسألنى : أتريد جيشات ؟ وتلك طبقة من السميرات المحترفات لها مدارس خاصة فى سائر بلاد اليابان فيها يتعلم الفتيات وسائل السمر وإيناس الأضياف بما فى ذلك الغناء والعزف على الشامسين والكوتو ولا يخلو منهن مجلس قط ، ويحتقر

اليابانيون جميع الأوروبيين الذين يصادقون الفتيات ويغازلونهن على قارعة الطريق وحقاً لم ألاحظ شيئاً من هذا فى الطريق قط رغم اختلاط الجنسين عكس ما كنت ألاحظه فى جميع بلاد أوربا إذ ليس للشبان هناك من عمل يقتلون به فراغهم سوى المغازلة للفتيات على قارعة الطريق . أما اليابانيون ففى ظنهم أن الرجال أكبر مقاماً من النساء ، لذلك لا يصح التريض معهن على قدم المساواة ، وهم لا يرون رأى الأوروبيين فى أن الجنس اللطيف حياة المجالس وروحها لذلك كثيراً ما كنت أرى جماعات النساء يقصدن إلى الرياضة فى غير صحبة الرجال ، أما الرجال فيغلب فى رحلاتهم أن يستحضروا الجيشات السميرات ، وكثيراً ما ترى حلقة من الرجال يجلسون القرفصاء إلى جانب غدير أو شجرة مزهرة يشربون الساكى ، وفى وسطهم السميرة ترقص لهم وتغنى ، وترى بعض المارة ينضم إليهم ، ويندر أن يخاصرها فى الرقص رجل لأنهم يستنكرون رقص النساء مع الرجال على النظام الأوربى ، وفى الحفلات والولائم لا بد من وجود الجيشات وأجورهن غالية بين جنيه وثلاثة جنيهات فى اليوم ، وكلما أقيم معرض أو انعقد مجلس فى إحدى المدن الكبرى كثر الطلب عليهن جداً ، ومن بينهن الممتازات بأسمائهن مثل (كوهاروسان ورين جوسان) وكلما علا صيتهن دل ذلك على زيادة فى إكرام الضيف ، ويقدم الأشراف لأمثال هؤلاء هدايا قيمة من ذلك ماسة قيمتها ٨٥٠ جنيه قدمها نبيل للجيشا (ساكا كوسان) فامتدحت الجرائد كلها تلك السميرة وأطرت المدرسة التى أنجبت مثل هذه الجيشا التى أصبحت من الشخصيات الممتازة فى طوكيو ، وفى الولائم الرسمية يجلس الجيشات أمام الجمع ركماً ويملأن أكواب الساكى كلما فرغت ، وبين آونة وأخرى يلعبن دورا موسيقياً ، وبعد نهاية الطعام يقمن بألعاب بسيطة مع الرجال ، أما فى الحفلات الخاصة العائلية فيرفع التكليف ويمتزج الجميع امتزاجا تاما . ويجب على الضيف أن يملأ كأسه بيده بين حين وآخر ويقدمها للجيشا ، وتظل شاخصة أمامه حتى يفعل ذلك ، وكثيراً ما يغفل الضيفان



(شكل ٨٧) اليابانيون شديدو التمسك بدينهم لكنهم بعيدون عن التعصب ، والكل يركع أمام المعبد حتى الأطفال

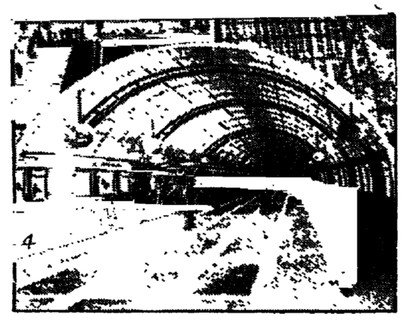
ذلك فيظل الفتيات مكانهن فى مضايقة شديدة ويرمى الضيف عندئذ بقلة الذوق ، وعلى الضيف أن يأتى على زجاجة الساكى بأكملها كى تملأ ثانية وألا عد ذلك شؤماً على المكان ، وليس لأحد أن يطيل النظر للسميرة التى تجانب زملاءه إذ يجب أن يلاطف السميرة الخاصة به ، ويغلب أن تكون أشهر الجميع لأن أدبهم يقضى بأن يخص الضيف بأكبر المزايا على أنه لا يشترط أن تكون أشهر السميرات أجملهن وجهاً بل أذكاهن وأقدرهن على التسلية ، ولا يكاد يخلو مطعم أو مقهى من الجيشات وأكثر ما يعنون به من التزين الملابس (الكيمونو) وتنظيم الشعر وطلاء الوجه بالمحسنات البيضاء ، أما الحلى من أقراط وعقود وسوار وخواتيم فلا تجد من ذوقهن قبولا ، ورشاقة الفتيات بالغة رغم ما يعوزهن من جمال ، إذ لا تزيد نسبة الجميلات على خمس فتيات اليابان جميعاً فى سن النضارة ، وهى ما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة ، وبعدها يبدو الهرم عليهن عاجلا كالمصريات والايطاليات ، وسائر فتيات البلاد التى يقصر فيها أمد الشفق ، إذ لوحظ أن جمال السيدات يظل

طويلا كلما طال زمن الشفق .

وأمر النساء فى اليابان يثير الدهشة والنقد من عدة وجوه : فأنهم يبيحون للفتيات — ما دمن غير متزوجات — كامل الحرية فى التريض والمصادقة ، وقد ناقشت بعضهم فكان منطقه أن العزوبة أمر غير طبيعى ، فان لم يكن للفتاة زوج فخليل ، وهم لا يعتدون بالبكارة والعرض اعتدادنا به فى الفتيات ، على أنها إذا تزوجت أصبحت مثال الوفاء لزوجها ، والعجيب أنها لا يصح لها أن تظهر الغيرة على زوجها من غيرها ، وكثيراً ما تخاطب زوجها عند أوبته من رحلته قائلة : أرجو أن تكون قد استمتعت ليلتك الفائتة ، فيقص عليها نبأ ما كان يحوطه من فتيات وجيشات وصويحبات سررن عنه كثيراً .

وأعجب من ذلك وأنكى أنهم يحترمون العاهرة احترامهم للزوجة ، فالأب هو الذى يتخير لها الزوج كما أنه هو الذى يدفع بنته إلى الدعارة إن أعوزه المال ، لأن فى عوزه هذا هدماً للعائلة ويجب تلافيه وإلا انهار ركن قومى يؤثر على كيان الدولة والوطن ، وهم يطلقون على العاهرة اسم (أوجوروسان) أى العاهرة العظيمة ، حدث مرة أن اقترض نجار خمسين جنيهاً من دار جيشات مقابل ارتهان بنته الجميلة فى سن الحادية عشرة لمدة خمس سنين بعدها يدفع الدين ويتسلم الفتاة ، فأصبحت تلك الفتاة من كبريات الجيشات فأكبرها الجميع . وإذا احتاج الرجل المال وكانت بنته كبيرة فوق السابعة عشرة دفع بها إلى بيت الدعارة فإن هربت ساعده البوليس على إرجاعها إلى بيت الدعارة حتى يتم سداد دينه لأنها ملزمة بذلك قانونا إذ قبلت الدين عن والدها ! تصرف نراه همجياً وحشياً لكنهم يبررونه بأن واجب الأبناء طاعة الآباء ، والعمل على إنقاذهم من الشدائد لأن فى ذلك معنى الإخلاص للأسرة والدولة التى يضحى فى سبيلها كل شىء ، ويتهافت الشبان على الزواج من أمثال أولئكن إكباراً لهن وتفاخراً بهن ! منطق لا تسيغه عقولنا البتة .

أضف إلى ذلك أن من أخص وسائل إكرام الضيف أن يقدم المضيف السميرات لضيفه ، وهل هذا فى زعمهم إلا واجب طبيعى ! وقد كانت العادة فيما مضى أن يبالغ المضيف فى إكرام ضيفه فيقدم له زوجته ، ولا خطر هناك من اختلاط النسل فكلهم



(شكل ٨٨) سكة حديد الكهرباء التى تسير تحت الأرض فى أوزاكا

أبناء الامبراطور ابن السماء ، ولم يقلعوا عن تلك العادة القبيحة إلا تفادياً لمرارة النقد الأجنبى وأنهم لا يطيقون أن ينقد بلادهم أحد قط .

تناولت العشاء ورغبت فى النوم وسرعان ما تقدم الفتيات إلى وسط الغرفة يفرشن لى حشية (مرتبة) قصيرة تتناسب مع قاماتهم القصيرة ، وإلى ناحية الرأس وسادة من خشب عليها غشاء رقيق من قش يحشوه القش ، وشدت (ناموسية) خضراء فى حجم الغرفة كلها إلى الأركان ، ووضع إلى جانب الفراش الشاى الذى يحسن شربه قبل النوم ليطهر الفم ويساعد الهضم ثم قدمت المبخرة وأشعلت بها فتائل خضراء حلزونية تظل متقدة طوال الليل طرداً للبعوض ، على أنى لم أطق رائحته المنفرة ، فمددت جسمى وكانت قدمى تتدليان خلف (الفراش) إلى نصف الساقين ، ورأسى لا تكاد تستقر على وسادة الخشب القاسية التى لا يلذ لهم النوم إلا عليها ، فترى الرقبة مشحوذة عليها ، والرأس يتدلى من طرفها الخارجى غالباً ، ويظهر أن الباعث عليها شدة محافظة السيدات على تنسيق شعر الرأس مخافة أن تعبث به الوسائد الأخرى . ويقولون إن نساء

اليابان امتزن بجمال الرقاب المشوقة غير الجعدة ، وتلك نتيجة النوم على هذه الوسائد ، ويغلب أن يوضع بجوار الفراش مصباح من ورق ملون ، على أنى لم أنم إلا غراراً ، وكنت أدهش لهم إذ ينامون نوما عميقاً رغم قعقعة أخشاب الغرفة ومصابيحها وطنين البعوض والفراش ، ويكاد يخيل للمرء أن الدار ستنهار أمام شدة الرياح فهى ترتجف أبداً وكأنها الخيام المؤقتة ، إلى ذلك أنى كنت أسمع كل همس يقع فى الحجرات الأخرى .

وفى صبيحة اليوم التالى قصدت القصر الامبراطورى القديم وكأنه القلاع العاتية بصخوره التى أذكرتنى بجلاميد الكرنك فى ضخامتها ، على أن مقاصيره كلها تتوج بالخشب فى الخرط اليابانى فى شىء من الضخامة فى غير علو ، ومن حوله خندق كأنه النهر العظيم تخترقه قناطر عدة ، ومن أشهر ما يزار فى أوزاكا ملهى الدمى (تياترو العرايس) وهو الوحيد من نوعه فى العالم ويسمى (بونراكو) ، وقد كان القسس فى الزمن القديم يستخدمون الدمى واسطة بينهم وبين الآلهة ، ويبلغون الناس رسائل الآلهة على لسانها كى تشعرهم بأنها ليست آدمية مثلهم ، ثم انتقلت فيما بعد إلى الملاهى ، هناك ترى جمعاً من الدمى الكبيرة فى ثلث الحجم الآدمى ، تظهر على المسرح يحركها أناس بمهارة تشعر بأنها أقزام بنى آدم ، فتمثل الدمى رواية كاملة ، وتنظم حركاتها على أنغام الموسيقى ، والعازفون يتكلمون ويغنون بدل الدمى التى تؤدى الحركات فحسب ، والعجيب أن عيون الدمى وشفاهها وأصابعها تتحرك فى دقة مدهشة ، وكل دمية يحركها ثلاثة رجال من خلفها يلبسون أردية سوداء ، وتكسى وجوههم بنقاب خفيف ، وهو من أحب الملاهى الشعبية لديهم . وقد قمت بجولة فى الحى الصناعى من المدينة فراعنى ما رأيت من دوى المصانع وعظيم امتدادها ، فهى التى لعبت الدور الهام فى تطور البلاد الصناعى ، ذاك الذى أعده خير مثل نحتذيه إن أخلصنا فى نهضتنا الاقتصادية الحاضرة .

النهوض الصناعى :



(شكل ٨٩) إحدى السميرات وهى ترقص على الطريقة اليابانية

خالفت اليابان فى نهوضها الصناعى سائر بلاد الدنيا من قبل ، ففى انجلترا مثلا كانت التجارة والصناعة خاضعة لقوانين حكومية إلى القرن الثامن عشر حين نهضت الصناعة على أساس المجهود الفردى والمنافسة الحرة ، وتلك تغلبت على ملاك الأراضى ونزعت منهم نفوذهم الحكومى وأصبح تدخل الحكومة فى الصناعة أمراً غير مرغوب فيه ، وعلى ذلك لم تقم الصناعة فى انجلترا على التعاون العام ولا على الإشراف الحكومى ، بل على مجهود الفرد ومزاحمته لغيره ، أما فى اليابان فقد قامت الصناعة على كواهل الدولة وذلك لعدم وجود طبقة من أغنياء التجار الذين أمدوا الصناعة الإنجليزية بالمال ، إلى ذلك احتقار طبقة التجار فى اليابان عندئذ وقلة خبرتهم بسبب عدم احتكاكهم بالأجانب كثيراً . فبينا نجد النهوض الصناعى فى الغرب هو الذى أثر فى النظم السياسية ، إذا بالأمر على النقيض من ذلك فى اليابان ، حيث كان الانقلاب الصناعى نتيجة مباشرة لتغيير نظام الحكم ؛ فالدولة هى التى فتحت المصانع ولا تزال تديرها ، وهى التى أوفدت الطلبة ليتعلموا الصناعة والتجارة فى الخارج ، واستقدمت الخبراء من الأجانب

وأنشأت المدارس الحكومية ، وفتحت الغرف التجارية ، ولا تزال تمنحها الإعانات المالية ، كذلك أقامت المتاحف الصناعية فى كل البلدان ، وهى التى تزود التجار بالمعلومات عن الأسواق الخارجية ، وحتى المصانع التى انتقلت إلى أيدى الأفراد لا تخلو من الرقابة الحكومية ، والحكومة تمون المصانع كلها بالقروض والإعانات المالية ، وتراها تشرف على الهيئات التعاونية التى تفوق الألف والتى تتعاون على تنظيم الانتاج والتصدير وظروف البيع ، ولهذه حق قانونى فى فحص صادرات البلاد محافظة على سمعتها الصناعية فى الخارج ، ومما ساعد الصناعة فى اليابان أنها نجت من مقاومة فئة المموالين الأقدمين الذين تعرضوا فى سائر الدول للخسائر الفادحة فناوأوا الصناعة زمناً ، أما فى اليابان فلم توجد تلك الفئة ذلك لضعف مالية الأفراد هناك ، إلى ذلك أن النهوض الصناعى فى اليابان جاء فى عصر ظهر فيه فضل الانتاج الكبير الذى لا يقوى عليه الفرد بل الجماعات والمتعاونات وشعر الكثير بضرورة معاونة الحكومات وتدخلها فى تحديد المزاحمة ، ولا يزال للنظام القديم أنصار يقاومون تدخل الحكومات حتى فى انجلترا نفسها ، أما فى اليابان فالاشراف الحكومى منطبق على نظمها الاجتماعية التى تقضى على الأفراد بالطاعة للأسرة والولاء للدولة فهم جميعاً يؤيدون التعاون بفطرتهم ولا يثقون بالجهود الفردى — رغم ما لهذا من أثر سىء فى القعود بقوة الابتكار —

فاذا كانت انجلترا قد ضربت المثل الأعلى للصناعة إبان القرن التاسع عشر فان اليابان هى المثل الأعلى فى هذه الأيام .

ولتطور الصناعة فى اليابان ثلاثة عصور الأول من بدء عصر ميجى (١٨٦٨) إلى انتصار اليابان على الصين فى حرب ١٨٩٤ ، وهذا العصر امتاز بنشاط الدولة العظيم فى بناء ما تتطلبه دعامات الصناعة . لذلك مد أول خط حديدى سنة ١٨٧٠ ، وفى ١٨٩٤ بلغت السكة الحديدية ٢١١٧ ميلاً ، وفى سنة ١٨٧٢ تأسس أول مصرف (بنك) على النظم الحديثة ، وأعقب ذلك نشر التعليم على أحدث النظم



(شكل ٩٠) مثل من الجيشات سميرات اليابان

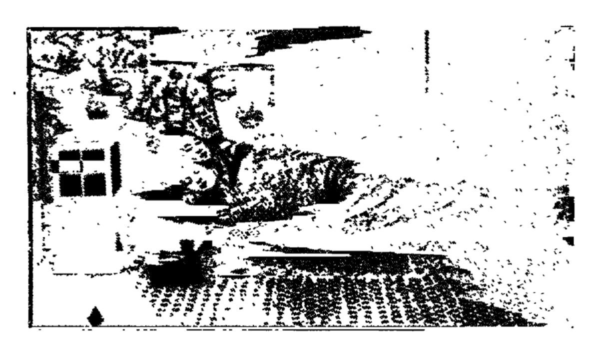
وبدأت السفن التجارية تبنى تحت إشراف الحكومة ومعاونتها ، وأقيم كثير من المصانع سنة ١٨٧٠ للحرير والقطن ، والصوف ، والورق والزجاج والآلات ، ثم أعقب ذلك بناء مرامى السفن ومناجم الفحم والنحاس ، على أن هذا العصر لم يغير شيئاً قط من ميول الشعب الزراعية ، وتبدو الحالة الاقتصادية جلية فى تجارة البلاد الخارجية إذ ذاك حين كانت جل وارداتهم من المصنوعات خصوصاً المعدنية والمنسوجات — وهذا شبيه بنا الآن — وجل الصادرات كانت من الخامات وبخاصة الحرير ذاك الذى كان انتاجه ضعيفاً عهد الاقطاع لما أن كان الحرير قاصراً على ملابس الطبقة الحربية والارستقراطية وحرم على غيرهم ، لذلك كانت زراعة القطن أكثر انتشاراً ، وكان ينسجه الكل فى بيوتهم ، لكن عقب انقضاء عهد الاقطاع وردت المنسوجات القطنية من الخارج رخيصة ، ثم أسست مصانع القطن فى البلاد فزاد الطلب على الخام من القطن الأمريكى والهندى والصينى ، ذاك الذى كانت تزرعه تلك البلاد بنفقات أقل من زراعته فى اليابان ، وسرعان ما زاد الطلب الأجنبى على الحرير اليابانى فأحال الفلاح اليابانى أرضه القطنية إلى أرض للتوت لتغذية دود القز

وساعدت رقى انتاج الحرير ملاءمة الأرض له ومهارة اليابانيين فى القيام بشئونه المتعبة ، واليوم نرى الحرير الخام أكبر صادرات البلاد ، كما أن القطن الخام من أكبر الواردات ، ويلى الحرير فى الصادرات الشاى والنحاس ومنتجات المصانع الصغيرة .

وعلى أثر حرب الصين زادت خبرة البلاد الصناعية واستطاعت محو القيود الأجنبية على الواردات ، وتلك القيود كانت ترغم اليابان ألا تزيد الضرائب على الواردات على ٥٪ (وتلك الخطوة شبيهة بما اتخذناه فى مصر فى العام الفائت) ، وقد ساعد هـذا النهوض الصناعى هبوط سـعر الفضة التى كانت أساس التعامل هناك إلى سنة ١٨٩٧ ممـا رخص أثمان المنتجات اليابانية فزاد الطلب عليهـا وتشجعت صناعاتها ، (هبوط الجنيه فى مصر اليوم شبيه بذلك) .

وعقب حرب الروس سنة ١٩٠٥ ضمت اليابان لها كوريا وجزءاً من منشوريا هذا إلى فرموزا ولوشو التى أخذتها من الصين من قبـل . وتلك البلاد تطلبت القيام بمشروعات اقتصادية كبرى كالسكك الحديدية والمصارف والمتاجر مما شجع الصناعة اليابانية التى أمدت تلك المنشآت ، إلى ذلك تنشيط استغلال الكافور وقصب السكر فى فرموزا ، والبنجر فى كوريا ومنشوريا ، وذلك يصح اعتباره الطور الثانى للصناعة وفيه بدأت تسلم الحكومة المصانع التى ثبتت أقدامها للشركات تعمل تحت إشرافها ، وظلت الصناعة الرئيسية إلى آخر القرن الماضى : السفن والنسيج ، أما المعادن فظلت متأخرة ، لذلك وجهت الحكومة همها إليهـا هذا القرن لكنها لا تزال متأخرة لنقص حاجاتها فى البلاد ، فالحديد نادر ويستورد من الخارج وبخاصة من الصين ، والفحم ردىء النوع بعيد عن مناطق التعدين .

فتطور اليابان الصناعى لم يظهر فعلا إلا فى الفترة بين حرب الصين والحرب الكبرى أى فى عشرين عاماً ، ولم تبدأ النظم الغربية فى البريد والسكك الحديدية والسفن والمصارف والقضاء والإدارة إلا سنة ١٨٩٤ ، وانتشر التعليم الفنى وظهرت



(شكل ٩١) النوم فى اليابان على الحشيات (الشلت) والوسائد الخشبية يجاورها مصباح الورق والمبخرة

الآلات خصوصاً فى صنع القطن ، فقد زاد عدد مغازله من ٤١٥ ألفاً سنة ١٨٩٣ إلى ٢,٤١٤,٠٠٠ سنة ١٩١٣ ثم ظهر رأس المال الأجنبى فى استغلال المنحدرات المائية فى الكهرباء ، فبينا لم تكن اليابان شيئاً مذكوراً فى العالم الاقتصادى إلى سنة ١٨٩٤ إذا بها تصبح عملاق الشرق الاقتصادى منذ سنة ١٩١٩ .

أما العصر الثالث لهذا النهوض فمنذ الحرب الكبرى ، ففى خلالها تضخمت صناعاتها بفضل غياب المزاحمة خصوصاً صناعات الأصواف والكيماويات والحرائر والخزف ، كذلك قد أفاد الطلب على الآلات الحربية والذخائر مصانع الحديد ، وتقوى أسطولها التجارى إذ شغلت الحرب سفائن الدول الأخرى فضوعفت السفن اليابانية خلال الحرب ، وزاحمت الأقطان اليابانية المنسوجات الإنجليزية التى تراخت إبان الحرب ، وصنعت اليابان الأقطان الراقية التى كانت احتكاراً للانكشير ، وبين سنتى ١٩١٣ و ١٩٢٤ ضوعفت المغازل تماماً ، وقد زاد الإنتاج الكبير الطلب على الفحم والكهرباء فزاد إنتاج هذين كثيراً .

على أن الكساد العالمى الذى بدأ سنة ١٩٢٠ كان صدمة خطيرة على المصانع التى لم تدعم ، وبخاصة الحديد والسفن والصوف التى لا تزال تشكو من الشكوى ، وكان لزلزال سنة ١٩٢٣ أثر سيىء على نهوض الصناعة إذ أتلف كثيراً من الأرواح والأموال فاستلزم ديوناً أجنبية باهظة .

ففى خلال الثلاثين عاماً الحالية حصل انقلاب تام يبدو فى أن غالب الواردات اليوم أضحت من الخامات خصوصاً القطن والمواد الغذائيـة ، أما الصادرات التى كانت من قبل من الخامات فقد أصبحت من المصنوعات — إذا استثنينا الحرير الخام — كذلك التغير الذى طرأ على أسواق اليابان ، ففى المقدمـة اليوم شرق آسيا وأمريكا الشمالية ، فأمريكا سوق الحرير الخام والخزف والشاى ، ومورد القطن الخام والآلات والمعادن ، وتصدر اليابان إلى شرق آسيا القطن والمصنوعات الصغيرة مقابل القطن الخام من الهند ، والأرز والخشب والحديد الخام من سائر بلاد شرق آسيا .

وخلاصـة القول ففى ٦٠ عاماً انتقلت اليابان من بلاد تعيش فى القرون الوسطى إلى قوة اقتصادية خطيرة ، وكان تطورها منظماً للغاية فى كل نواحيه ، ففى السنين الخمس والعشرين الأولى أقيمت الدعامات المادية للتقدم الاقتصادى تحت سيطرة الحكومة ، وفى السنوات العشرين التالية ظهر النمو الصناعى وعاونه النصر فى الحروب وسعة المستعمرات ، وهنا بدأت تستقل الصناعة عن الدولة إلا فى نوع من الحماية والعون المالى ، وظهر تغلب الآلات على العمل اليدوى ، وأخيراً جاءت الحرب الكبرى التى أتمت هذا التقدم الذى أدهش العالم .

كيان اليابان الاقتصادى اليوم : ولا تعد اليابان مصنع آسـيا بأكملها كما كانت انجلترا مصنع أوروبا فى القرن التاسع عشر ، ذلك لأن الزراعة لا تزال أساس النشاط اليابانى إذ يشتغل بها نصف رجالها رغم عدم ملاءمة الأرض كثيراً للزراعة ، وشتان بين المروج الخضراء التى يهملها الانجليز فى بلادهم



(شــكل ٩٢) يخص الفلاح قسما من أرضه بزراعة التوت فى شجيرات قصيرة يقطف الفتيات ورقها لاطعام دود القز

وبين تلك الأرض الجبلية التى يستغلها اليابانى إلى أقصى شبر منها وتكتظ بجماهيره الكثيفة وقراه المتعددة ، فهو يزرعها بجهد وعناية فائقة وبخاصة الأرز والشعير ويشغلان ٩١٪ من الأرض المنزرعة ، وفى بعض الجهات العالية يستنبت ثلاث غلات أو أربعاً ، كل ذلك بطرق يدوية عتيقة ليس للآلات فيها دخل ما ، فهو فى ذاك شبيه بالفلاح المصرى ، وحتى فى معيشته لا يزال كما كان أجداده فى الملبس والغذاء والأخصاص الخشبية والملاهى ، وحتى رأس السنة لا تزال فى الأرياف بالحساب القمرى (تام الشبه بفلاح مصر) ، والمزارع هناك صغيرة إذ يمتلك ½٥ مليون عائلة نحو ½١٥ إيكر ، وثلاثة أرباع أولئك لا تزيد ملكيتهم على ½٢ إيكر ، فنحو ٣٠٪ من الزراع من بين صغار الملاك ، والمستأجرون يقومون بالعمل مشاطرة مع الملاك الذين يقدمون السماد والبذور مقابل نصف

(١) من مجموع أراضى اليابان : ٥٠ ٪ تكسوها الغابات ، و ١٥ ٪ للزراعة ، و ١٠ ٪ للمراعى .

المحصول ، فالفلاح إذن لا الصانع هو ممثل السواد الأعظم هناك ، ويقوم بأعمال أخرى إلى جانب زراعته ، وأخص تلك الأعمال تربية دود القز الذى يلقبونه (بالمهذب النبيل الصغير) ، ففى أغسطس يكاد يشتغل أفراد العائلة جميعاً بقطف ورق التوت ووضعه على صوانى خشبية و إطعام الدود الذى تقوى شهيته للطعام إلى أقصى حد ، ويسمع المرء صوت الدود وهو يقرضها فى أزيز مختلط ، ويقال إن أية جلبة أو إزعاج من الناس حوله تضايق الدود فيفسد هذا من محصول الحرير وجودته ، والحرير يقوم بنصف دخل الفلاح تماماً ، يضاف إلى ذلك بعض الصناعات العائلية البسيطة كالأنوال اليدوية للقطن الذى يمدهم بجميع الملابس الريفية ، وصناعة صناديق الخيزران والورق تطلى باللاكيه ، كل ذلك يصنع فى البيوت ويسلم للمتعهدين من التجار ، فأين المغزل اليدوى المصرى للقطن فيسد الفلاح حاجته منها بعمله فى وقت فراغه الطويل ؟

ويشتغل من الناس ١½ مليوناً بصيد السمك عماد غذائهم الحيوانى : تلك هى المهن التى لا تزال تبقى على القديم وتغالب المؤثرات الأجنبية ، وأنت ترى طوال الطريق تلك الصناعات اليدوية تمارس فى نوافذ المساكن بنشاط عجيب ولم يؤثر عليها ما يجاورها من مصانع زودت بأحدث الآلات ، وقد تعجب لبقاء تلك الصناعات رغم مزاحمة الانتاج الحديث لها ، لكنك إذا علمت أن غالبها متعلق بالغذاء والملابس والمسكن ، وهذه لها نظامها الخاص المختلف عن سائر بلاد العالم زال العجب . فسلع الأجنبي لا تجد لديهم قبولا ، وحتى قماش (الكيمونو) يلائم النسج اليدوى لأنه صغير العرض ، إلى ذلك أن اليابانى لا تروقه إلا الأدوات الدقيقة الفريدة فى لونها ونظامها . ولم تنجح الآلات الضخمة إلا فى الأشياء الغريبة عن البلاد التى تصنع للتصدير لا للاستهلاك الداخلى ، ولعل فى انتشار الكهرباء هناك ورخصها خير معين على بقاء تلك الصناعات الصغيرة إلى جانب الانتاج الكبير ، ذلك لسهولة استخدامها حتى فى البيوت لانجاز العمل



(شكل ٩٣) تشغل الزراعة فى اليابان نصف السكان ، ويعمل النساء فى الحقول
إلى جانب الرجال

بنفقات زهيدة ، ومن العجيب أن الإنتاج الصغير هو السائد فى اليابان ومع ذلك فقد قامت مصانع على نظام الإنتاج الكبير تفوق فى نظامها نظائرها فى أوروبا : (كمصانع الخزف وآلات الموسيقى والنسيج) ، أما من جهة توطن الصناعة فيبدو جلياً فى أوزاكا وكوبى بفضل ما كان لهما من حرية نتجت عن بعدهما عن أثر السلطة العسكرية عهد الأقطاع مما شجع روح الابتكار فيهما ، ونلاحظ أن الصناعة مركزة فى جنوب جزيرة هندو لسهولة الاتصال بالبحار ، لكنها بعيدة عن مناجم الفحم (فأغلب الفحم فى كيوشيو وهوكايدو وهما زراعيتان) ، لذلك اعتمدت الصناعة هناك على الكهرباء ، وهذا له الفضل فى أن مصانع اليابان أضحت أحدث مصانع الدنيا نظاماً ، فهل لمصر أن تبادر باستغلال المنحدرات فى أسوان والقطارة فتنتشل البلاد من شر الاعتماد على الزراعة وحدها ؟

ويلاحظ أن ستين فى المائة من عمال المصانع الكبيرة من السيدات ، وهذا يفسر رخص المنتجات اليابانية من جهة ، وعدم نجاح الصناعات التى تتطلب مهارة

• الرجال : كصناعة الآلات ، أما النسيج الذى لا يحتاج إلى مهارة العامل بقدر احتياجه إلى حسن الإدارة و إلى جودة الآلات فقد نجح تماماً ، ويعزى افتقار اليابان فى مهرة العمال إلى حداثة عهدها فى الصناعة وقلة خبرتها بها .

ولقد دعا إلى استخدام النساء أن المصانع منذ البداءة أقيمت فى القرى لرخص أثمان الأراضى بها فلم تجد من العمال كفايتها ، وتلك صعوبة تعترض الصناعة حتى فى مدنها الكبيرة ، لذلك لجأ أصحابها إلى العائلات الريفية يغرونها على إرسال فتياتها يتعلمن فى المصانع ويشتغلن مقابل أجر معين يستقطع منه جانب نظير المسكن والغذاء الذى يقدمه لهن صاحب المصنع .

وغالب مصانع الانتاج الكبير فى يد هيئات اقتصادية كبرى تتصل بالحكومة حتى عدها البعض نصف حكومية ، و إلى تلك الشركات كانت الحكومة تسلم كل مشروع اقتصادى أقامته بعد نجاحه ، وبفضل ذلك تشرف الحكومة على الصناعة تماماً ، ولتلك الشركات أثر كبير فى سياسة البلاد ، ولعل من أجمل مزايا هذا النظام زوال المزاحمة الذى سببه الإشراف المركزى الشامل ، والتضامن الإنتاجى المتين ، فهل لحكومتنا أن تتولى النهوض الصناعى مترسمة خطى اليابان التى تلائم حالتنا ؟

فذاك النجاح العجيب للصناعة اليابانية يرجع الفضل فيه إلى الضرائب

صناعة النسيج فى مصر شبيهة بموقفها فى اليابان من عدة وجوه :

(١) لأنها تستورد الآلات كلها من الخارج .

(٢) بدأت ولم يكن للعمال هناك بها خبرة قط ، فاستعانوا بالخبراء الأجانب .

(٣) كان الوقود من الفحم فى اليابان نادراً وكانت أجور العمال ولا تزال رخيصة جداً .

(٤) لم يكن لليابان شركات ملاحة تخدم تلك الصناعة ، فبدأت نواة الأسطول التجارى مع بدء صناعة النسيج .

(٥) كانت الحكومة تقدم لها الاعانات المالية والتسهيلات بسخاء !

(٦) فرضت رسوماً كبيرة على الواردات لتحمى صناعة النسيج ، صارفة النظر عن المجاملات التى تفوت عليها مصلحتها .



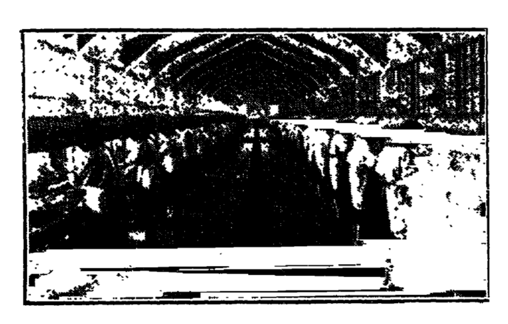
(شكل ٩٤) المكان الخاص بتربية دود القز فى بيوت الفلاحين جميعاً

الباهظة التى فرضوها على الواردات ، و إلى بعد المزاحمة الأورو بية ، و إلى النظام الاجتماعى الذى يؤيد بفطرته التعاون ويقاوم الفردية ، و إلى بدء الصناعات الكبرى بوساطة الحكومة التى لا تقوى مالية البلاد الضئيلة على مزاحمتها ، وذاك التعاون لا شك عامل عظيم على تخفيف وطأة الأزمات وتقلب الأسعار ، لأن الجماعة هناك تنقذ العاطل منها على عكس أورو با ، فلمجرد طرد العمال من المصانع فى أورو با ينقصون من مشترواتهم وهذا يزيد الأزمة سوءاً ، كذلك فان طبقة المأجورين هم الذين ينكبون على المشتروات عند انخفاض بسيط فى الأسعار فيزيد هذا فى الارتباك المالى ، لذلك أنشئت هيئات التأمين ضد البطالة فى أورو با ، أما فى اليابان فلا داعى لها لأن العاطل يلجأ إلى عائلته وقد يستأنف الزراعة وهى لا تزال أهم الأعمال فى البلاد ، ويساعده على ذلك استخدام الدراجات مطية يذهب بها العامل يومياً إلى قريته فيعيش وسط أهله دون أن ينفق على مسكنه ومأكله شيئاً يذكر ، وهذا هو السبب فى نقص أجر العمال العاطلين فى اليابان عنه فى جميع الدول (لم يبلغ مائة ألف) .

وقد ساعد على عدم تقلب الأسعار (إبان الحرب العظمى صعوداً و بعدها هبوطاً) فى اليابان منتجاتها الخاصة التى لا تؤثر فيها المزاحمة الأجنبية ، إلى ذلك العادة التى قضى بهـا العرف عندهم وهى أن كل عامل يستغنى عنه يمهر بين ثلاثة أشهر وستة على سبيل المكافأة وهذا قلل خطر البطالة لا بل وساعد أصحاب العمل ألا يلجأوا إلى الطرد إلا عند الضرورة القصوى ، على أن هذا النظام الذى يساعد على تجنب الأزمات يعاكس الكفاية لأن الأزمات هى التى تستأصل غير الأكفاء من حلبة الإنتاج .

أما إضراب العمال هناك فنادر لأن الرأى العام — وهو قوى جداً هناك — يقاومه كل المقاومة ، كذلك توقفه روح التضحية التى تنتشر بين العمال أنفسهم فقد حادثت بعضهم عن سبب رضاهم بالأجر القليل والساعات الطويلة فكان جوابهم أنهم راضون بذلك خشية أن يؤثر اعتصابهم على مركز المنتجات اليابانية فى الأسواق الخارجية ، على أن التمرد بدأ اليوم يظهر بينهم ، وقد تشكل اتحاد العمال لتحديد ساعات العمل و بعض الأجور ورعاية صوالح العمال ، لكن لا تزال ساعات العمل تزيد عنها فى جميع البلاد الأخرى — بين ٥٧ و ٦٠ ساعة فى الأسبوع — ولا تزال هذه الهيئات تناضل كى تعترف الحكومة بحقوقها ، ولعل ضعفها ناشىء عن قلة العمال فى المصانع الكبرى فهم ٢½ مليوناً فقط والباقى موزع فى المصانع الصغيرة ، إلى ذلك أن غالبهم من النساء اللاتى ينظر الجمهور إليهن نظرة هى دون نظرهم إلى الرجال .

خطر السكان . ولقد أثبت الإحصاء الأخير أن عدد السكان ضوعف تماماً فى خمسين عاماً إذ بلغ مجموع سكان الإمبراطورية ٩٠ مليوناً ، وأن الزيادة تبلغ مليوناً فى كل عام فى الجزائر الرئيسية وحدها ، ففى القرن التاسع عشر تضخم عدد السكان بالقدر الذى تسمح به البلاد ، وزاد هذا التضخم عدم الهجرة وقلة الحروب ، على أن مستوى المعيشة ظل فى حدود التقشف الشديد حسب أوامر



(شكل ٩٥) فى أحد مصانع الحرير فى أوزاكا ، ومصانع اليابان أحدث نظاماً من نظائرها فى الغرب

الأسرة ، لذلك ظلت البلاد تمون نفسها رغم ازدياد السكان ، على أن سكان المدن والطبقات الفقيرة بدأت تتغير حالهم اليوم وتزيد نفقاتهم ، ومن العجيب أن أرض اليابان لا يصلح للزرع فيها سوى السدس ، وهذا هو الذى يمون نصف السكان تماماً ، ولقد ازدادت حركة نزوح أهل الريف إلى المدن جرياً وراء الصناعة وزيادة الأجور ، تلك التى رفعت كلف المعيشة فى اليابان كلها ، ويظهر أن طول عزلة اليابان عن العالم ونظامها العائلى المحكم أفهم اليابانى ضرورة اتكاله فى الغذاء على إنتاج أرضه فظل كذلك إلى اليوم ، لذلك لجأ إلى طريقة الزراعة الاستغلالية القصوى حتى ضاعف إنتاج الأرض من الأرز — وهو عماد الغذاء — لكن رغم ذلك أخذت تتحسن معيشة الفرد ويزيد استهلاكه فأضحت مشكلة التموين اليوم حرجة ولذلك بلغ الوارد من الأرز الأجنبى عشر المستهلك فى اليابان ، وأضحت أثمان الأرز — وهو عماد غذاء الفقير — عرضة للتقلب الشديد .

لهذا كله أضحت زيادة السكان هناك خطيرة ، يزيدها خطراً أن نظامهم

الاجتماعى يحرم تحديد النسل ، فهو يساعد الزواج المبكر ، كما أن الأبوين لا يشعران بمسئولية الأولاد لأن رعايتهم فرض على الأسرة بأ كملها ، إلى ذلك أن الدين الشنتوى يحض على النســل وينفر من الزواج العقيم ، كذلك المرأة اليابانية تعد نفسها خادمة أولادها ولم ترق إلى مســتوى المرأة الغربية التى قل نسلها بسبب ثقافتها وشعورها بمسئولية تربية الأولاد واشــتغالها مع الرجل جنباً لجنب ، والنساء هناك لا يعرفن الطرق الحديثة التى يتبعها الغربيات فى منع النسل ذاك الذى أضحت قلته خطراً فى انجلترا وأمريكا ، وفوق الجميع فإن الحكومة اليابانية لا تسمح بنشر أية دعاية تحض على تعطيل النســل ، وذلك دفاعاً عن الناحية العسكرية ، فكأن كثرة النسل فى اليابان يكفلها الدين والعادة والحكومة والنظام الاجتماعى . ونصيب اليابان من الهجرة قليل يناهز نصف مليون فى الخارج فقط ، لأن دول أمريكا قيدت الهجرة إليها وكذلك استراليا ، أما آسيا — حيث المجال متسع للهجرة — فإن فيها من وفرة السكان ورخص الأجور ما يســد الباب على مزاحمة اليابانى .

لذلك كان لزاماً أن تبتلع المصانع فى اليابان كل زيادة فى السكان ، فيجب زيادة تنشيط الصناعة والاعتماد فى الغذاء والخامات على الواردات .

ومشكلة السكان عندنا شبيهة بها فى اليابان ، وخير السبل لابتلاع الزيادة فى السكان إنهاض الصناعة .

ومن المشاكل التى تقلق اليابان — شعورها بالاعتماد على غلتين رئيسيتين ، وهما : الحرير الخام (٤٥٪) ، والقطن المنسوج (٢٠٪ من الصادرات) ، فهما ثلثا مجموع الصادرات ، وقد زادها شــعوراً بالخطر أن خير أســواقها لتصريف المنسوجات : الصين ، وقد بدأت تشجع الصناعة الوطنية وتقاطع اليابانية خاصة ، وكذلك الهند ، أما سوق الحرير فأمريكا وهى تعرف بسرعة التحول فى الأذواق والأزياء عن ســائر الممالك ، على أن المتفائلين يرون فى قرب اليابان من بلاد

الخامات والأسواق والاستهلاك فى الشرق الأقصى ، وفى زيادة الثروة فى استراليا وأمريكا . وفى نمو القوة الكهربائيــة فى اليابان ما يقلل من تشاؤم (ملتوس) فى خطر تكاثر السكان ، وإن كان ذلك لا يتم إلا على حساب شـخصيتها الفذة ، وعاداتها الجذابة التى سيقضى عليهـا اندفاعها وراء التقدم الصناعى ، والعمل على توحيد استهلاكها مع الاستهلاك العالمى كله .

ويتساءل الكثير عما إذا كانت المدنية الغربية ستكتسح تقاليد اليابان ونظمها ، ونحن نلاحظ أن روح الإقطاع لا تزال تسود النظم السياسية ، وأن النظام الاجتماعى والاقتصادى سيظل شرقياً بتحوير بسـيط ، فدعامات المدنية لا تزال هناك شرقية بحتة لأن اليابان لا تثق بفلسـفة الغرب وأخلاقه واجتماعياته ودينه وسياسته ، ولا يزال الناس يحافظون على مساكنهم وملابسهم ومعابدهم وألعابهم ، ومن أحبها لديهم : المصارعة التى ورثوها عن آبائهم والتى يتمرن عليها الجميع حتى السيدات وتعقد لها الحفلات الرسمية ، أما طرق المواصلات ونظم المدارس والمصانع والمصارف وما إليها فأضحت غربية بحتة ، لذلك نلمس هناك التصادم بين المدنيتين فى أشياء كثيرة .

وهذا التناقض الذى يجمع به اليابانى حسن الذوق وتقدير الجمال إلى جانب القدرة الإنتاجية المـادية هو الذى يحار فيه الغربيون ، فكأن اليابان تريد أن تحترم حاضرها وماضيها معاً وترغب فى أن يحترمها الغرب كدولة عظمى دون أن تتنازل عن شخصيتها الماضية .

فى سنة ١٩٢٨ قدرت شرانق الحرير بنحو ٥٥ مليون جنيه ، والحرير الخام ٨٥ مليونا : ٧٠ فى المـائة منه يصدر ، و ٥٠ مليون جنيه منسوجات حريرية — غزل القطن أقل نشـاطا من نسجه ، ومع ذلك يستنفد بنحو ٥٠ مليون جنيه من القطن الخام سنويا ، وهو أرخص من الانجليزى ، لأن مصانعه أحدث نظاما ، ولأنه فى يد أربع شركات كبيرة غنية ، تشـترى الخام كلما لاءمها الثمن وساعدها انخفاض أجور العمال وأجور السفن اليابانية التى تعاونها الحـكومة بالمـال ، ولقلة الوسطاء ، ولطول سـاعات العمل ، فالمعامل تشتغل ١٧ ساعة فى اليوم على دفعتيـن ،

ولقد كانت اليابان حكيمة فى نقل عناصر تقدمها ، فهى لم تعتمد على دولة معينة ، بل استمدت المعونة من عدة دول كل فيما امتازت به : فالجيش نقلته عن فرنسا إلى سنة ١٨٧١ ثم عن ألمانيا لما ظهر لها فضل الجيش الألمانى على الفرنسى ، والأسطول عن بريطانيا ، والنظام المالى عن أمريكا أولاً ثم عن فرنسا وألمانيا آخراً ، والسكك الحديدية عن انجلترا ، والنظم السياسية عن ألمانيا ، ولعل ألمانيا هى أولى الدول التى نقلت اليابان عنها لأنها أقرب الدول شبهاً باليابان وبخاصة فى النظام الاجتماعى والسياسى ، نخص من ذلك القدرة على التنظيم والتعاون فلقد كان للحكومة فى المملكتين سلطان كبير ، وكلاهما له تقاليد عسكرية خاصه ، ونساء الفريقين بينهن شبه قريب ، ولقد نقلت الفنون عن فرنسا ، ويظهر أن الجنس السكسونى يجتاح اليابان اليوم فى التعليم والتجارة ، واللغة الإنجليزية المنتشرة فى أسواق الشرق وفى شرائط السينما التى يرد غالبها من أمريكا ، وفى كثرة المبشرين من الأمريكان ، على أن الدعاية للدين المسيحى ليست ناجحة لأن اليابانى يرى فى الغربى شخصاً غير متدين لا يتورع أن يرتكب الخطايا جهاراً ، فهو فى نظره مستهتر بدينه وهم يرون فى دينهم خيراً ، فهم لا شك أكثر من المسيحيين عطفاً على الغير ، وتضحية للصالح العام ، وتسامحاً فى الخلق ، وتقديراً للجمال الطبيعى الإلهى ؛ أما الأوروبى فصادق نظرياً ، مارق عملياً . ويرى البعض أن اليابان هى الدولة الوحيدة التى تجمع بين الطهارة والجمال ، فهناك ترى حب الجمال إلى مستوى ذوقى ممتاز ، وهناك يقوم الولاء للعشيرة إلى جانب تقدير المسئولية الاجتماعية فهى الدولة الأسيوية الوحيدة التى صدت عدوان الغرب عنها ، وأعدت نفسها بوسائل الدفاع الحديثة بدون أن تضحى تقاليدها الاجتماعية أو السياسية ، وهى الوحيدة التى أجادت فهم الحضارتين : الشرقية والغربية ، وألفت بين الشرق والغرب ، فياحبذا لو نسجت مصر على منوالها فهى أقرب إلينا من نواحى عدة ، فلنوفد إليها طائفة من طلبتنا وتجارنا لدرس الوسائل الاقتصادية والخلقية التى كانت خير عون

لهم على ذلك التقدم العجيب . ويظهر أن تيار المدنية والرق والسلطان متجه اليوم نحو المحيط الهادى ، وأن سيكون نهباً مقسماً بين اليابان وأمريكا إن هما تعاونتا ووثقتا عرى الصداقة بينهما .

الخلق القومى والنظام الاجتماعى : كنت أعجب كثيراً كلما ناقشت أجنبياً لاقيته فى اليابان أو فى طريقى إليها إذ كان يكيل التهم لليابانيين ويرميهم بالنزعة الحربية والغدر وحب المادة والتجرد عن الضمير ، وبعضهم كان يرى فى نزعتها الحربية أكبر الخطر على العالم ، والغريب أن بعضهم كان يعد إخلاص اليابانى الشديد وتفانيه فى عمله بنشاط فائق — خطراً على العالم ، على أنه تبين لى أن تلك التهم عارية عن الصحة : فالأجانب يسيئون فهم نظام اليابان الاجتماعى ، ذلك الذى نفهمه نحن المصريين على حقيقته لقربه من نظامنا ، فمثلاً إذا ما أردت أن توجه نقداً لأحدهم يجب — طبقاً لآدابهم — ألا تصارحهم به فى شكل جارح لأنهم يعدون ذلك حطاً من شأنهم ، فالواجب أن يوجه النقد تلميحاً وفى تعبير رقيق ، أما صراحة الغربيين فتعد هناك جفاء وغلظة ، وإذا ما أردت أن ترفض لأحدهم طلبة أو تبلغه خبراً سيئاً وجب أن تصوغ ذلك فى عبارات رقيقة ملفوفة التعابير ، حتى فى الأعمال التجارية ، ومن هنا كثر سوء التفاهم بينهم وبين الأجانب ، فكلاهما يتهم أخاه بالنقص الخلقى ، إلى ذلك يضاف أن أغلب الأجانب الذين كتبوا عن اليابان لم يخبروا إلا سكان السواحل وهؤلاء قد أفسدهم اقترابهم بسفلة الأجانب فهم لا يمثلون عامة اليابانيين ، يؤيد هذا أن اليابانيين كانوا يعدون طبقة التجار منحطة فهم لديهم دون طبقة العمال والزراع لفساد خلقهم بسبب احتكاكهم بأولئك النزلاء من الأجانب الذين كانوا ساقطى الأخلاق ، ومن أسباب سخط الأجانب عليهم سرعة تقليدهم لمنتجات الغير ولشاراتهم التجارية ، ولإدخال الغش أحياناً على بعض السلع ، على أن ذلك يكثر فى بدء التطور الصناعى لكل أمة ، وقد كانت أوروبا كلها

كذلك عقب الانقلاب الصناعى ، وقد بدأت الحكومة اليابانية منذ الحرب الكبرى تراقب السلع الصادرة لدفع تلك التهم فشكلت لجاناً لفحص الصادرات ، ولا يصح اتهام عامة اليابانيين بالخيانة والغش ، فكثيراً ما كنت أرى حانوتاً تركه صاحبه مفتوحا تعرض به السلع وعليها بطاقات الثمن فيجىء المشترى وينتقى ما يشاء ويضع الثمن فى صندوق مغلق بدون محاسب ولا رقيب . ومن أخلاق اليابانيين أنهم يفضلون سرعة التراضى والاتفاق بين المتخاصمين ويثورون ضد من يتمسك بمطلبه للنهاية حتى ولو كان عادلا ، وذلك أثر من آثار استنكارهم للمجابهة القارصة والمصارحة الجافة عكس الأوروبى الذى يصر على حقه كاملا للنهاية وبكل جرأة ، فاليابانى شب قادراً على اخفاء مشاعره وميوله تحت وجه باسم هادىء ، لأن الظهور بالوجه المقطب كائناً ما كان الباعث عنوان فساد التربية لديهم ، وهذا هو الذى جعل قدرتهم على ضبط النفس فى حالة الغضب وعند ما تلحقهم إهانة مضرب الأمثال ، ومن هنا جاء احتقارهم للأجانب الذين يعرفون بسرعة التهيج والغضب ، وبخاصة بعد ما أثر عليهم جو آسيا المجهد الذى جعلهم عصبيين لحد كبير . أما أدب اليابانيين فلم يختلف فيه أحد ، فلا يمكن أن يلفظ أحدهم بالشتائم ولا يلجأ فى حديثه إلى الحلف والقسم بل يعلم منذ نشأته لغة التأدب الشديد ، فلا يقول مثلا : (أنت) بل (المحترم) ، وبدل أن يقول لك (ادخل البيت) يقول (تنازل وشرف منزلنا الذى هو دون مقامك) وإذا قال (اجلس) آثر عليها (تنازل لتستريح وتستمتع) . على أن الأجانب يدعون بأن أدبهم هذا ظاهرى ليس غير وكأنه أدب القردة ، ويستدلون على ذلك بسلوكهم الذى يظهر فى المقاهى وقطر سكة الحديد وفى معاملتهم للسيدات وفى تدخلهم بالاستعلام عن كل شىء لدرجة هى الفضول بعينه ، لكنهم لو أنصفوا لعلموا أن تلك عاداتهم التى لم يفهمها الغربى ، فكيف لنا أن نعيب على اليابانى مثلا أن يرتشف الشراب من الكأس بصوت ينفر الغربى من سماعه أو أنه لا يقف للسيدة بل للطفل



(شكل ٩٦) أدب اليابانيين أضحى مضرب الأمثال وتلك الانحناءات واجبة ومتبادلة

والرجل المسن — وهو أقرب إلى المعقول — وقد كنت ألاحظ فى الترام أن غالب الواقفين من النساء ، ولا يصح أن يقف الرجل للمرأة بل بالعكس رأيت رجلا دخل العربة فسلم على صاحب له كان يجلس بجوارى وإلى يساره سيدة يغلب على ظنى أنها زوجته فوقفت هى وتنحت له عن مكانها فجلس بعد أن شكرها وظلت هى واقفة .

ويصعب جداً على الغريب أن يعرف اليابانى حق المعرفة لأنه حذر جداً فى معاملة الأجانب فهم يستقبلونه بأدب ورقة وعطف لكنهم لن يتقبلوك قط كصديق ، ولعل ذلك أثر من آثار عزلتهم فى جزائرهم النائية عن العالم كله ، وتلك صفة تلاحظ فى أهل الجزائر عموماً وإلى حد واضح ، إلى ذلك أثر عصر الاقطاع فيهم ذاك الذى كانت تأبى فروسية أهله أن يظهروا ماتكنه أفئدتهم من مشاعر ، فاليابانى يكلم الأجنبى وهو يذكر أنه يمثل اليابان فيزيد حذره ، وساعد على ذلك اعتزازه الشديد بقوميته لا بل وقبيلته وأسرته التى يجب عليه احترامها اجتماعياً ودينياً ، ولقد خلف هذا أثره فى ضعف الاستقلال الذاتى وقوة الابتكار ، ويزيد

فى ذلك ما يحوط الطفل منذ نعومته من الرعاية التى تجعله مدللا حساساً لأقل المصارحات (بعض ما نعانيه نحن فى مصر) — وكذلك افتقار اليابانى فى تفهم الفكاهة والمزاح فهو يأخذ ذلك مأخذ الجد فى كل المناسبات لذلك شب رقيق الإحساس لدرجة تجعل النقد البرىء فى نظره إهانة ، فهم لا يحبون أن يقبلوا النصح من الأجنبى مخافة أن يعد ذلك اعترافا بالعجز من جانبهم . واليابان تعوزها تلك الروح الرياضية التى امتاز بها الانجليز والأمريكان على غيرهم ، وهؤلاء أقدر الشعوب على الجمع بين الخصومة الحادة فى القول إلى جانب الصداقة فى القلب ، أما اليابان فتعد الهزيمة حتى فى الألعاب الرياضية انكساراً مخزياً شائناً ، فكثيراً ماحدث فى المباريات الدولية للكرة أن انفجر لاعبوهم يبكون بحرارة لأنهم دحروا فى اللعب ، ويحاول نظار المدارس هناك ألا يشركوا أولادهم فى اللعب حتى يكفلوا فوزهم فيه (وهذا ما كنا نلمسه فى مصر إلى أمد قريب) .

ولعل أجل خلالهم التضحية للصالح العام تلك التى يعزى إليها سحر تقدمهم خلال ستين عاماً ، فاليابانى أسبق الناس للتضحية بنفسه فى سبيل رفع شأن أمته وفى تاريخ اليابان مثل عليا ، لذلك نذكر منها حادث الفارس الذى قتل زوجته وبنيه قبل الذهاب إلى ميدان القتال مخافة أن يتعلق بهم فى غيبته فتفتر قوة الدفاع فيه ، ثم حادث الجوالة السبعة والأربعين الذين انتقموا لسيدهم ثم انتحروا لكيلا يعيشوا بعده وفاء له ، ثم حادث الجنرال (نوجى) الذى مات وزوجته شر موتة ليسجل احتجاجه على إغفال بعض بنى قومه تمسكهم بالقديم وعلى جريهم وراء التجديد الأوربى ، ثم حادث اليابانى الذى انتحر ببقر بطنه أمام السفارة الأمريكية هناك ليرد الاهانة التى لحقت باليابان على أثر قانون تقييد الهجرة الذى أصدرته أمريكا سنة ١٩٢٤ ، وآخر ماحدث ما قرأناه فى حربهم مع الصين الآن من أن بعض جنودهم لف نفسه بالمواد المفرقعة ليجرى بها إلى الأسلاك الشائكة فتنفجر وتنسفه هو والأسلاك كى ينفسح الطريق لتقدم الجيش .



(شكل ٩٧) عروس فى زى الزفاف

أما حبهم للجمال فشلى يبدو جلياً فى مدائنهم ودسا كرهم ، ففى حفلاتهم وأعيادهم يدهش المرء لقدرتهم على خلق الجمال بأبسط الوسائل ، فمصابيحهم المنثورة وأوراقهم الملونة وأشجارهم المبعثرة مصدر جمال كبير . كذلك أوانيهم الخشبية وأثاثهم وأرديتهم وما هى عليه من نقوش جذابة . كذلك زخرفة منازلهم رغم بساطة بنائها إذ ترى الأرض تكسى بالحصر من القش يزينها فى جوانبها إطار أسود وفى المحراب تعلق صورة متقنة الفن غالية الثمن ، وترى اليابانى يعنى بجمال المسكن ويهمل جانب الراحة فيه — على عكس الأوروبى — وكنت أعجب لهم كيف يطيقون المكث فى بيوتهم شتاء على وهنها وصفير الريح فى جوانبها ، وقعقعة أخشابها طول الليل ، وحتى بيوت الطبقات الوسطى فإنها تكلفهم كثيراً بسبب العناية بتجميلها ، وهو لا يبالى أكانت مريحة أم لا ، لأنه شب متقشفاً ودرب على تعشق الجمال وتقديس الطبيعة التى يفهمونها حق الفهم ، ويقرأون فى الشجر والزهور والتلال معانى لا نفهمها نحن ، وذلك بسبب طبيعة أرضهم فهى حديثة العهد الجيولوجى ، ليس بها من جبال ولا سهول تمتد إلى قصارى مسارح النظر كلا ولا جبال مبشمة الذرى بطيئة المنحدر . ففى البلاد الأخرى يقارب المرء الجبال والبحار تدريجاً . لكن جلال الجبال وروعة المناظر تباغت الإنسان أينما سر فى اليابان ، فمن كل سهل أو وهدة هناك تبدو النجاد رائعة من كل جانب

مما جعلهم يتعرفون من الذرى والغدران والجنادل والصخور الشيء الكثير ، وهم يعدونها ملاجئ للآلهة ، لذلك يحج الجماهير إليها في الصيف في أردية بيضاء ، وفي مساء ٣١ يوليه يروقك منظر آلاف الحجاج في (الكيمونو) البيضاء يغتسلون في البحيرات التي تحيط (بفوجي ياما) المقدس من أسفله . ثم يبدأون الصعود إذا خيم الليل ، وبيد كل منهم مصباح مضيء ، فتبدو جموع المصابيح وكأنها عقود النجوم تتلألأ صعداً على جوانب الجبل ، وفي الذروة يفترش كل حصيره حتى الصباح لاستقبال الشمس المشرقة . وفي البلاد كثير من أندية الحج يكتتب فيها الكثير تشجيعاً لزيارة تلك الأماكن المقدسة ، وحفلات استعراض الزهور ، ومراقبة القمر من أمتع ما تراه في تلك البلاد .

ولقد ذكرت رحلتي في أوروبا العام الفائت تلك البلاد التي هجرت تقاليدها وعقائدها ، ولم يصبح للعادة بين أهلها من أثر فهم أحرار يأتون ما يروقهم في غير قيد ، هناك كنت أرى الفرد مطلق الحرية يوكل أمره إلى شعوره بالمسئولية الأدبية ، حتى أن حكومته لا تلزمه بالتجنيد إن أرهقتها الضرورة لذلك ، وتظل رهينة اختياره وتطوعه ، أما في اليابان فعلى النقيض من ذلك كنت أراها تجل تقاليدها وتتمسك بقوميتها التي تتلاشى أمامها حرية الفرد ذاك الذي يعد نفسه خادماً للجماعة خاضعاً لنداء الدولة في كل آن . فالعائلة أساس المجتمع ، وليس الفرد ، وللعائلة حقوق على أفرادها واجبة الأداء . وعلى الفرد أن يضحي صالحه الذاتي في سبيل الحرص على صالح الأسرة ، فهي التي تتصرف في زواجه وتعليمه ومستقبله ومن لم يخضع حرم حق الانتساب إلى الأسرة فينبذه جميع الناس ، ويكاد لا يوجد الولد العاق مطلقاً ، على أن زعماء الأسرة ليسوا مستبدين برأيهم بل الرأي شورى بينهم ، فتراهم يعقدون مجتمعاتهم لبحث ما يعرض لهم في هدوء . والعائلة هناك تخفف كثيراً من أعباء الدولة لأنها تقوم بالفصل في شئون عائلية هي من نصيب الدولة في بلاد الغرب . ولعل أظهر ما يبدو الفرق بين العائلة اليابانية والغربية

فى الزوجية وميول الإنسان الجنسية ، فالغربى يرى أن الحب أساس الرابطة الزوجية ، وعليه يتوقف صالح المجتمع كله ، لكن اليابانى يرى أن هذا الحب لا ينطبق على المثل الأعلى فله خطره وأثره المتلف المدمر ، وهو يرى أن العلاقة الزوجية لا يصح أن تبنى على رأى الفرد بل المجتمع ، فهى إذن ليست عملا فردياً ، فاليابانى لا يرى فى امتزاج الفتيات بالشبان ذاك المعنى الذى يراه الأوربى وهو يحتقر ذلك فلا يرقص الذكور مع الأناث ولا يختلطون بهن طويلا ، و إذا اعتزم الزواج اختار له ذووه بعد أن يقصوا عليه نبأ الفتاة ، فإن قبل اتفقا على المواجهة (Miai) فى حضرة فريق من أقربائهما ، فإن أقرها انجزت مراسيم الزواج ، وإن لم توافقه فلعائلته حق الفصل فى الرفض أو إرغامه على القبول ، على أنه كثيراً ما يعشق الصبى فتاة ، لكن ظروف العائلتين تأبى الزواج فيلجأ الاثنان إلى الانتحار (Shinju) . والغريب فى أمر الزواج هناك أنه بعد أن يتم فى المعبد أو البيت يترك بدون تقييد رسمى لمدة سنة ، فإن ظهر عدم الوفاق خلالها صح الفراق إن رضى أهل الزوجين ، وإلا لجأوا إلى القانون — والطلاق يبيحه القانون — فإن رزقا بمولود خلال تلك السنة تتبناه إحدى العائلتين أو عائلة أخرى لم تعقب ، والتبنى شائع فى اليابان لضرورة وجود ممثل للعائلة إن أعوزتها الذرية ، وأعجب ما يرى نظام التبنى هناك بين الرجل وأكفأ موظفيه الذين يعاونونه فى العمل ، فهو يسارع إلى تبنيه كى يكفل نجاح العمل باطراد ، ولقد كان للعائلة حق فصل الزوجين رغم ما بينهما من إخلاص ، وذلك إذا تعارض هذا الحب مع صوالح الأسرة ، ولقد بطل ذلك اليوم ، لكنك ترى أثره فى احتقار القوم للزوج الذى يتفانى فى حب زوجته أو يرافقها فى ملهى عمومى حيث يصبح موضع تقريعهم وسخريتهم جميعاً .

وقد يخيل للغريب أن المرأة محتقرة هناك والحقيقة أنها فى دائرة اختصاصها أعنى تدبير المنزل وتربية النشء ذات سلطة مطلقة واحترام كبير ، أما فيما يختص

بالمعاونة العلمية والفكرية فليس لها نصيب لأن وظيفتها زوجة فحسب عليها أن تطيع زوجها وتحترمه ، فاذا سارا فى طريق لا يصح لها أن تتقدمه وليس لها أن تشاطره وإخوانه مجلسه بل تقدم إليهم ما يطلبون ثم تنسحب .

وعلى الرغم مما خلفه خضوع الأفراد لأوامر العائلة من ضعف الاستقلال وقوة الابتكار ، فان هذا النظام العائلى يحتم أن يأخذ الكل بناصر من أصابه ضير من أفرادها حتى ولو تطلب ذلك جميع أموال العائلة لأن عجزها عن انقاذ أحد أفرادها خزى كبير ، لذلك لم تكن اليابان بحاجة إلى ملاجئ أو شركات تأمين ضد البطالة ، ولقد صرح المستر (سوزوكى) رئيس اتحاد عمال اليابان بأن نقابة العمال هناك قوية رغم افتقارها للرصيد المالى الذى تنفق منه النقابات فى ظروف الاضراب ذلك لأن الأعضاء يستمدون المال من عائلاتهم إذا ما أضربوا ، وخير ما يبدو هذا التعاون عند حلول نكبات عامة كما حدث فى فاجعة زلزال سنة ١٩٢٣ حين تهافت جميع العائلات على تقديم المساعدة لذراريهم الذين كانوا يقطنون طوكيو ، فسهلوا بذلك وسائل الانقاذ والتعمير ، فالعائلة سند قوى للياباني يكفل له بعض رخائه وهذا ما جعل اليابانى أقدر الناس على تنظيم التعاون على أساسه القويم وهو الشعور منذ الصغر بأنه جزء من المسئولية الاجتماعية ، ويظهر ذلك النظام جلياً فى المدن والقرى وبين الهيآت الصغيرة وفى الأعمال التجارية والوظائف العامة ، فالموظف يشعر بأن العمل على انجاح المشروع الذى يخدمه من أقدس واجباته الاجتماعية ، وفى نجاحه فوز له وربح كبير من الناحيتين المادية والأدبية ، وقد كنت ألمس ذلك بنفسى بين موظفى القنصلية المصرية فى كوبى إذ كان تفانيهم فى العمل وانكبابهم على انجازه فائقاً كل حد ، وطالما كانوا يشغلون وقت فراغهم فيه رغم عدم تكليفهم بذلك ورغم مرتباتهم الضئيلة .

فاليابانى خاضع لرؤسائه الذين تجب الطاعة لهم ولأنداده لأنه فرد منهم ولمن هم دونه مقاماً مخافة الرأى العام ، فكثيراً ما يتنازل عن حقه مراعاة لذلك لأنه

يؤثر أن يحسن جيرانه الرأى فيه على أية فائدة مادية ، حدث مرة أن دعا أحد وجهاء قرية صديقاً أجنبياً ليقيم عنده أياما — وهم يكرمون الضيف ويقدرون الوجاهة والفخفخة قدراً كبيراً (يشبهوننا فى ذلك) — فكان كلما خرج فى نزهة خلوية معه يتحاشى أن يستأجر من العربات أو السيارات مايدل الناس على إسرافه فى غير مبرر ، وكان يركب الترام إلى قرية أخرى لا يعرفه أهلها ، وهناك يستأجر ما يشاء من السيارات إكراما لصاحبه وذلك مخافة سخط أهل بلدته عليه ، كذلك حدث أن أثير غضب القوم على غنى أقام حفلات باهظة لعيد ميلاده فأمعنت الجرائد فى نقده وعدوا عمله هذا جرماً اجتماعياً ، ذلك مثل مما يوقف استبداد الغنى بالفقير فى اليابان رغم أن البلاد لا تزال تعوزها النظم الديمقراطية .

وينقد البعض خضوع الفرد وما له من أثر فى نقص الشجاعة الأدبية وقوة الابتكار حتى أن سخط الرأى العام كثيراً ما يوقف المصلحين أن يقوموا بالمنشآت القيمة التى لم تلمس سذاجة الجماهير مزاياها ومن هنا افتقرت اليابان إلى العظماء فى الدين والفلسفة والآداب والعلوم ، ولقد زاد هذا الرباط الاجتماعى هناك الدين الشنتوى الذى يتلخص فى عبادة الطبيعة وتقديس الأجداد ، فعبادة الطبيعة زادت استمساكهم بأرضهم وتقديس العائلة زاد الرباط القومى ، فهم يقدمون قرابينهم لمعابد الآلهة لتشترك أرواح الأجداد فى استرضاء الآلهة ، ففى عيد اسمه (أوبون) فى أغسطس يعتقدون أن أرواح الأجداد تزور المعابد لذلك يجتمع حولها أفراد العائلة ويوقدون المصابيح والنيران ليتعجلوا مجيئهم ويشترك فى العيد أفراد الديانات الأخرى لأن الأمر مرتبط بالأجداد ، وكذلك يذهب سماسرة السندات كل سنة إلى معبد هناك يزعمون أن الآلهة تدلهم فيه على أسعار الأوراق الجديدة ، وفى إحدى المدارس الكبرى للبنات يصلى الفتيات لآلهة (الأبر) التى حطموها طوال عامين ، وقبل أن يبنى البيت الجديد يطهر القسيس الأرض ويباركها ، كذلك تعلق الحوادث السياسية الكبرى أمام معبد (آلهة الشمس) جدة الأسرة المالكة ،

وفى كل سنة يذهب رجال المطافئ إلى معبد (إيسى) الشهير ليتوسلوا للآلهة ألا يصيبوا البلاد بالحريق ، كذلك تراهم يحجون زرافات إلى ذرى الجبال لآلهة المياه والصخور وما إليها .

ولا تزال عادة تقديس الأبطال شائعة لديهم . فمثلا إذا ضحى رجل نفسه كى يساعد ذويه فى كارثة نزلت بهم يعده أهل القرية إلهاً حتى فى مدة حياته إذا نجا من الموت ، فالجنرال (توجو) بطل الحرب الروسية اليابانية يعبدونه فى إيسى ، وكثير من الناس يحجون لزيارة روح الجنرال (توجى) وزوجته الذين انتحرا سنة ١٩١٢ احتجاجا على تقليد الغربيين بكثرة فى اليابان وحتى (تا كامورى) زعيم ثورة سنة ١٨٧٦ التى قامت ضد الحكومة ، لأنها أدخلت النظم الحديثة الغربية . يجله القوم إجلالاً كبيراً .

وللنظام الاجتماعى هناك أثر فى ميلهم للألفة والاجتماع ، ورغم أنهم حذرون فى مخاطبتهم للأجانب وعند ما يرد موضوع اليابان فى الحديث فانك ترى الواحد مخالطاً لجميع أفراد عائلته يقفون جميعاً على أسراره كلها ، لذلك كثيراً ما يتضايق الأجانب عند ما يفاجئهم بعض اليابانيين بالاستعلام عن أشياء شخصية أو عائلية لا تعنيهم قط ، وهم يعدون ذلك من قلة الذوق ، مع أن اليابانى يعده اهتماماً منه بشأن من يخاطب .

ولا يزال للطبقات عندهم أثر رغم التطور الذى حدث ، إلا أنك تعجب إذ ترى عطف الممتازين على الطبقات الوضعية بالغاً حده ، وكانت طبقاتهم أربعاً : رجال الحرب ويشملون الدايميو أو اللوردات والساموراى أو الفرسان ، ثم طبقة الزراع تليهم طبقة الصناع فطبقة التجار ، ولا تزل ترى فى البطاقات التى يملأ خاناتها نزيل الفندق فقرة لكتابة الأسرة وطبقتها إلى اليوم ، وكانت هناك طبقة دون هؤلاء جميعاً أشبه بطبقة المنبوذين فى الهند تسمى (أيتا) ولا يزالون يحتقرون هناك إلى اليوم . ويظن أنهم فى الأصل سلائل الأينو وهم سكان اليابان الأصليون .

ولا تزال منهم بقية تمارس المهن الوضيعة من بينها الاشتغال بالجلود والذبح والسلخ والاعدام ، ولا يسمح لهم بالزواج إلا من طبقتهم ، وكان لهم حاكم عنهم يتصرف فى شئونهم ، وبسبب دينهم هذا الدين البوذى الذى يحرم القتل لذلك حدد من يفقد الذبح أو الإعدام نجساً ، وهم يكثرون فى مقاطعات خاصة فى الشمال اليوم ، وقد تصل مشاحناتهم مع جيرانهم من الطبقات الأخرى حداً خطيراً ولا يزال



(شكل ٩٨) سيده من الأينو سكان اليابان الأوائل وهم كلمون تخضيب شفاههم

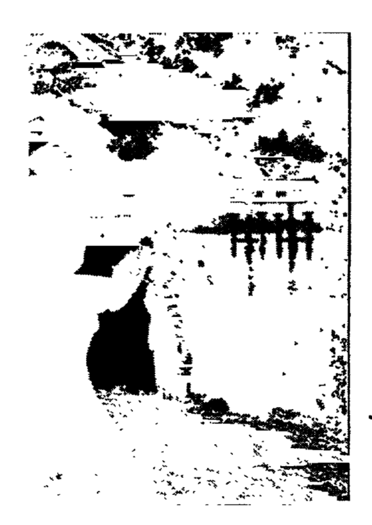
المزارع عندهم فى المرتبة الثانية كما كان قديماً وقد كان المزارع يدفع ضريبة الأرض أرزاً ، و إذا وقع عليه حيف من الحاكم كان الزراع يوفدون جموعاً منهم لملاقاة حكام العواصم (الشواجن) على أن الوصول إلى أولئك كان متعذراً ، فكان بعض الزراع يتجاسر و يضحى بنفسه فى سبيل رفع الحيف ، حدث مرة أن ألقى أحدهم بظلامة فى عربة (الشجون) مخترقاً الحشد فى الطريق فأصدر الحاكم أمره بعقاب المتسبب فى الظلم من الحكام أولا ، ثم أمر بصلب الرجل المتظلم هو وزوجته وأولاده عقاباً له على تجاسره هذا وردعاً لغيره ، وكان فى قانونهم أن صاحب الذنب الكبير لا تنجو منه عائلته ! أما من اشتركوا معه فى التدبير فينفون من البلاد .

هذا مثل من نظامهم الاجتماعى الذى ظل فى سواده سداً منيعاً فى وجه عوامل التغيير رغم التطور المادى ، على أن الشباب اليوم مسرع فى طريق التحول وبخاصة منذ الحرب الكبرى ، ولقد شاطرت المرأة الرجل فى الأعمال الخارجة عن دائرة المنزل ، ولعل أخطر شىء يتهدد هذا النظام الاجتماعى المتين كثرة العمال فاشتغالهم فى المصانع يساعد على انحلال الروابط العائلية ، كما أن سهولة وسائل الانتقال ستزيل تعصب الفرد لبيئته وتخفف من عصبيته لقريته التى ظل محافظاً على تقاليدها .

الى كوبى ثانية : غادرت أوزاكا مقر الثروة الصناعية الناهضة الفتية وعدت إلى كوبى وهناك زرت بعض متاجرها الكبرى الذى يعلو شامخاً فى السماء وفوق سطحه جلسنا قليلا بين فوارات المياه والحدائق المنسقة وهو شبه أخيه فى طوكيو ، وقمت بجولة بعد الظهر فى ضاحية (أريما) ركبنا لها المترو زهاء الساعة وسط الربى والمسايل ، والغابات تتخللها الينابيع التى يؤمها القوم للاستشفاء ولذلك قامت بها الأنزال على اختلاف طبقاتها ، ويجرى تحتها جدول كثير الليات والجنادل ، ولا أنسى به مرآى شلالين متجانبين أحدهما أظهر كبرا وهنا كان تزاحم القوم شديداً لأنهما فى زعمهم يمثلان الذكر والأنثى ! وهنا قابلت أحد جماعة السوريين الذين يقيمون فى بلاد اليابان ، وكم كان دهشى شديداً لما أن علمت بأن جل التجارة اليابانية التى ترسل إلى مصر فى أيدى طائفة من هؤلاء تدر عليهم الأرباح الطائلة ، وكان أجدر بالمصريين أن يبعثوا بمندوبيهم للشراء والاستفادة بتلك الأعمال التجارية التى تنمو على مر السنين نمواً مضطرداً .

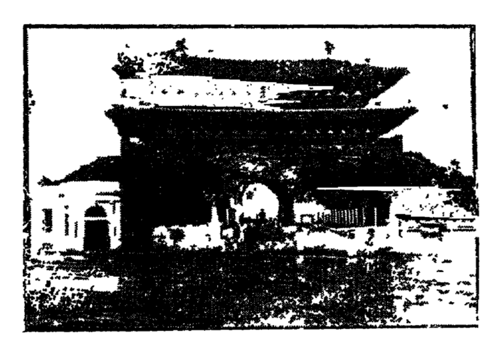
الى شيمونوزيكى : قمت من كوبى العاشرة والنصف صباحا فوصلتها منتصف العاشرة مساء . والطريق كله جميل تتعدد أنفاقه ويكاد يجانب شاطىء

البحر فى نصفه الأخير، وكان مشهد الجزائر المنثورة طوال الطريق رائعاً بديعاً ، وكانت تبـدو القرى فى الوهاد أقل نظافة ورقياً من بلاد الشمال وأهلها أكثر سمرة وأقل رقة ، وكان غالب النبت من الأرز والتوت القصـير والخيزران والغابات ، وقد مال الجو هذين اليومين إلى الحرارة بعـد أن كان جميلا متقطع السحب والمطر . وقد علمت أن موسم الحرارة المتوهجة قد أبطأ قليلا عن ميعاده إذ يتوقعـه القوم فى



(شكل ٩٩)
أشهر البوابات المقدسة فى اليابان تتوسط مياه المد فى معبد مياجيما

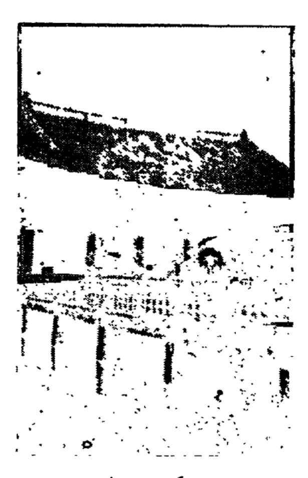
منتصف يوليه . وقد كان ذلك التأخير من حظى ، وإن لم يكن من صالح الزراعة لديهم . وبعد ثانى الطريق مرزنا بمياجيما إحدى آيات الطبيعة الثلاث الساحرة على البحر الداخلى . بدت بوابتها الحمراء المقدسـة وسط لجة المـاء ، وهى أجمل بوابات اليابان طرا ، رأيناها وقت المد وكأنها معبد سابح والمعبد نفسه فوق ذروة الجبل به قبة من نحاس دونها موقد تعلوه نار لم يخمد أوارها منذ ألف سنة ! وعلى مقربة منها الغربان المقدسة تصفق لهـا فتجىء فتأكل ما تقـدمه لها وهى آمنة ، وقد بلغ من قدسية المكان أن الحكومة كانت تحرم بقاء المرضى وذوات الحمل به خشية أن يموت المريض أو تلد الحامل فيصيب المكان دنس أو رجس .



(شكل ١٠٠) بوابة (ناتداعون) القديمة فى سيول

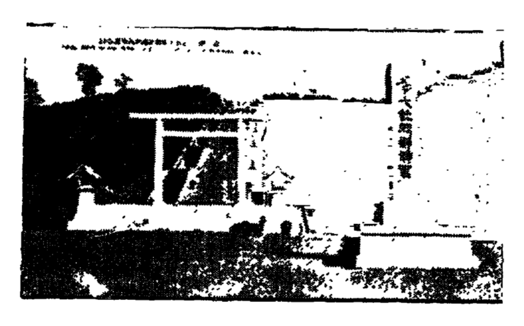
دخلنا شمونوزيكى ليلا ومنها ركبنا البحر فى سابحة يابانية شبيهة أخواتها فى بحار دنمركة ، وظلت تمخر بنا عباب بحر اليابان طوال الليل وكان هادئاً جميلا ، لـكنه فى الصباح فاجأنا بضباب كثيف أعقبه مطر وابل واضطراب غير مألوف أعاق سير السفينة فتأخرت ساعة عن دخول مياه فوزان ثغر كوريا الذى بدا ثغراً كثير الحركة ممدود الأرصفة عاصاً بالسكان يحكى ثغر بورسعيد عندنا .

كوريا : (وتسمى شوزن) ومعناها أرض الصباح الهادىء : قام بنا القطار صوب سيول عاصمة كوريا تلك التى وصلناها بعد عشر ساعات كاملات وكان الطريق كله جبلياً معقداً تفوق ذراه تلك التى فى اليابان لكنها أميل إلى الجدب إذ تكاد تكون عارية عن الشجر ، وكنا نرى مسائح ممتدة مهملة ، ويعزو اليابانيون ذلك إلى حكام البلاد الأوائل ، وتربة البلاد فقيرة على وجه العموم ، ويتخلل تلك الربى وديان تتلوى فى انحناءات عجيبة وتفيض بالماء ، وفى كوريا ستة أنهار عظيمة طامية تفوق تلك التى فى اليابان نفسها طولا وعرضا وغالبها يجف موسم الجفاف عند ما يقرب الشتاء ، وفى بطون تلك الوهاد تقوم



(شكل ١٠١)
على سرعة مقصورة الحفلات فى قصر سيول
(كوريا)

القرى فى أخصاص تتجمع فى تزاحم كثيف ، ويبنى هيكلها من الخشب تكسوه طبقــة من الطين ، والسقوف كأنها الأهرام أو النواقيس من قش الأرز ، وهى فقيرة قذرة ، والطرق بها رديئة لا تخلو من الأوحال ، والبــلاد عديمة السهول فهى فى جملتها وهاد على جوانب الوديان تزرع من الأرز والفول والتوت ، والفقراء هناك يأكلون الذرة أما الأرز فللأغنياء ، وأهل كوريا أطول قامة ووجوهاً من اليابانيين . وهؤلاء أخلاط لأن سكان اليابان الأصليين كانوا من الأقزام ، ثم جاء الأينو وطاردوهم ولا تزال منهم بقيــة فى جزائر كوريل تناهز الألف ، وفى سخالين كذلك وفى هوكايدو تناهز خمسمائة وغالب الظن أنهم قوقازيون يعزز ذلك لونهم الأبيض وشعرهم الغزير وهم زحفوا من الشمال ، أما من الجنوب فوفد على اليابان شعوب الملايو الذين يظهر أثرهم فى نظام المساكن التى لا تزال تحافظ على هندسة الملايو ، وكذلك فى ميلهم للاستحمام بالمــاء البارد ، وفى مهارتهم فى السباحة ، وإلى هؤلاء يعزى ضعف أسنان اليابانيين لأنهم كانوا ولا يزالون يأكلون فاكهة حمراء ضارة اسمها (بيرم) وكانوا يخضبون الأسنان باللون الأسود تلك العادة التى كان يتبعها اليابانيون إلى وقت قريب — أما الأينو فمن عاداتهم إلى اليوم تخضيب الفم لا الأسنان — ومن الغرب جاء المغول عن طريق كوريا (ومن هؤلاء تعلم اليابانيون الاغتسال بالماء الحار)



(شكل ١٠٢) معبد شوزت أخر معابد سيول

ومن كل أولئك نشأ اليابانى الحالى ، ويعزز الصلة بأهل الملايو عادة اختلاط الرجال بالنساء تلك التى تحرم فى بلاد الصين ، كذلك أثرها فى اللغة فاليابانية والكورية خليط من الملايو وغيرها ، أما لغة الصين فلم تتأثر بها قط ، وقد عثر الباحثون على كثير من مقابر شبه سويسرية فى كوريا دون اليابان مما يعزز علاقة الكوريين بأوروبا ، ولقد ظلت كوريا بين نار الصين واليابان وتعرضت لغزواتهما المتتابعة .

ظل القطار ينهب الأرض بين تلك الجبال المعقدة التى كان يشقها بأنفاق لا حصر لها ، وكان جو يومنا جميلا خفف من حره وابل المطر ، ذلك الذى يتأخر موسمه قليلا عنه فى اليابان ، وغالب الجبال هناك حديثة العهد تمتد امتداداً طولياً مما يؤيد خضوع البلاد للضغط الشديد الذى تسببه أغوار البحار التى لا تزال تزيدها قوة الخفض عمقاً من حولها إلى اليوم . وأخيراً دخلنا :

سيول : وهى كلمة كورية معناها العاصمة ويسميها اليابانيون (كيجو) ومعناها العاصمة أيضاً ، والمدينة لا بأس بتنسيقها ، بها كثير من المبانى الفاخرة والشوارع القيمة ، وإن كان خير ما راقنى سوقها الضيقة كثيرة الأضواء دائبة



(شكل ١٠٣) أزياء الرجل فى كوريا وأعجب ما فيها قبعاتهم

الجلبة كأنها أسواق البلاد اليابانيــة ، على أنى بدأت ألاحظ أن (الـكيمونو) أخذت فى القلة إلى جانب تغير السحن والأزياء ، والأحياء الوطنية ضيقــة قذرة تتصاعد منها الروائح المنتنة ، والصبية يلعبون بالأوحال ، وتعرض كثير من المأكولات فى شكل تعافه الأعين من بينها شمام أصفر كأنه القثاء ، وخوخ كبير تعوزه الحلاوة ، وأهم بقايا سور المدينة القـديمة بوابة (نانداعون) أقيمت سنة ١٣٩٣ وكانت ترى بقايا السور وهى تهبط الوهاد وتعلو النجاد وكأنها سور الصين . ومما استرعى نظرى فى ناحية من أمهات طرقها ناقوس عظيم ظل معلقاً فى مكانه هذا تحت غطاء من خشب فى الهندسة الصينية زهاء ٥٤٠ سنة ، وكان يدق فى باكورة الصباح فتفتح أبواب المدينة ، وعند المساء فتوصد و بعد الساعة التاسعة مساء يسرع الرجال إلى إخلاء الطرق للنساء كى يتريضن . والويل لمن تخلف منهم ، ولعل أجمل ما هنالك :

القصر الشمالى : شيد خلال القرن الخامس عشر ثم احترق خلال الحرب اليابانية سنة ١٥٦٣ لكن أعيد سنة ١٨٥٠ بأمر الأمير (تايون كون) الذى أثقل كاهل الناس بالعمل ودفع الضرائب لإنجازه ، ويحيط به سور من حجر وخشب فى الخرط الصينى الجميل ، وفى وسطه تنتثر المقاصير الأنيقة وأجملها ثلاث : مقصورة العرش ومقصورة الاجتماعات ومقصورة الحفلات ، وهذه تتوسط بحيرة تصلها بالبر قناطر جذابة ولذلك سميت أحياناً بمنزل الصيف ، وفى حديقة القصر سفك دم آخر ملكة لكوريا سنة ١٨٩٥ وأحرقت جثتها . وبجوارها المتحف التاريخى ويحوى مجموعة صغيرة من آثار كورية القديمة ، من حلى وأوانى وأسلحة وتماثيل ، وأهم معابد المدينة :

معبد شوزن : فوق ربوة مشرفة اعتليناها بسلم شاهق تحفه المصابيح الحجرية ، والمعبد أقيم على النظام الشنتوى ، ويبدو منظر المدينة من دونه رائعاً لأن (سيول) كلها فى وهدة تحيطها الربى ويطوق زهاء نصفها نهر هان الصغير يطل عليه متنزه (نانزان) الجميل ، ومن المبانى التى يفاخر بها اليابانيون دار الحاكم أقيمت من رخام كوريا المجزع بديع النقش ، وكذلك دار البريد ودار البلدية .

وأول من اتخذ المدينة حاضرة له مؤسس أسرة (يى) فأحاطها بسور اشتغل فيه ١٩٠ ألف عامل لمدة شهرين فى الربيع ومثل هذا العدد من النساء فى الخريف حتى بلغ امتداده خمسة عشر كيلو مترا وعرضه ستة أمتار وارتفاعه كذلك ، وما فتئت المدينة تتضخم حتى ناهز ساكنوها اليوم ثلث المليون ، وهم أخلاط من الكوريين واليابانيين والصينيين ، وأظرف ما يسترعى نظر السائح أردية الرجال والنساء ، فالأحذية من قماش أبيض يتلوى طرفها المدبب إلى السماء وجواربهم بيض يعلوها (بنطلون) وصدار للرجال وقد يرتدون فوق ذلك كله عباءة من قماش جامد منتفخ بما أشبع من (النشا) ورداء النساء كذلك ويزيد حزام ضيق



(شكل ١٠٤) حسناء كورية فى ردائها القومى

فى وسط الجسم . وقبعات الرجال مضحكة منفرة فهى أشبه بقمع أسود مقصوص من أعلاه ، وله حافة قصيرة كأفريز القبعـة ، وتحته قلنسوة تلبس محكمة فى الرأس فتبـدو القبعة نفسها ولا تكاد تستقر فوق الناصيـة لولا شريط يربطها بمـا تحت اللحية ، والرجال المسنون يطلقون لحاهم وشواربهم فى شـعرها الخفيف الذى يطول فيتـدلى إلى جوانب الفم وترسل اللحية مدببة الطرف ممـا يزيد أشكالهم سخرية ، وقد كانت هذه أردية اليابان من قبل أن تظهر الكمونو بشكلها الجذاب .

الى منشوريا : منشوريا قطر شاسع تقارب مساحته مساحة القطر المصرى بصحاريه أو نحو ثمانية وعشرين مرة قدر مجموع أراضينا المنزرعة ، وتربتها من أخصب أراضى الدنيا وهى أكثر بلاد الشرق الأقصى ملاءمة للزراعة إذ لا تقل الأراضى الصالحة للزراعة عن نصف مساحتها ، أى نحو سبعين مليون فدان ، وأخص ما ينمو هناك اليوم نوع من الفول اسمه (صويا) عظيم المادة المغذية (٤٠ ٪ بروتين) ولزيته قيمة كبيرة . وقد فاق الصادر منه أخيراً مليون طن فى العام ، ومن الغلات الهامة الحبوب الأخرى والطباق والكتان والحرير ، ومراعيها لا تقل عن ١٥ مليوناً من الرءوس ، وغاباتها تكسو ٢٥ مليون فدان ،

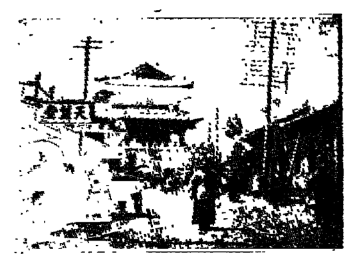
هذا إلى دفائنها المعدنية الهائلة ، فالفحم يمتد فى طبقات سميكة وبعضها يعلو إلى سطح الأرض ، ويعمل المعدنون فيه فى الهواء الطلق ، ولقد كان لسكة حديد منشوريا أثر عظيم فى بدء التقدم الاقتصادى فى تلك البلاد الغنية التى أضحت مطمح أنظار كبار المموّلين من اليابان وأمريكا .

وها نحن نرى ما جرته المطامع من حروب لا تزال مستعرة إلى اليوم ، ومجموع سكان البلاد ٢٥ مليوناً ، تسعون فى المائة منهم من الصينيين ، والنقود الصينية هى المتداولة فى أنحاء البلاد عدا المنطقة اليابانية على طول الخط الحديدى وفى مكدن العاصمة حيث تستعمل النقود اليابانية والكورية .

ولا نعلم عن ماضى منشوريا البعيد شيئاً سوى بعض الغارات التى كان يشنها القبائل تباعا هناك ، وفى سنة ١٢٦٠ ضم جنكيز خان البلاد للصين وزاد نفوذ المغول وأسسوا دولة المانشو ، وفى سنة ١٦١٦ قام أحد أبنائها (نولوهاشى) وفتح مكدن وحارب الصين ، ثم جاء خلفه ففتح كوريا وسمى أسرته (تسنج) أى أسرة الأصفياء ، أعقب ذلك اضطراب فى الصين ، لم يسعها ازاءه إلا أن تطلب معاونة المانشو الذين فتحوا بكين وآل الملك إليهم سنة ١٦٤٤ وظل فى أيديهم ٢٩٦ سنة ، على أن الدم الصينى ساد أهل منشوريا بحيث لا يكاد يفرق المرء اليوم بينهم وبين الصينيين فى السحن والعادات والأخلاق . وفى القرن التاسع عشر امتد النفوذ الروسى إلى المحيط الهادى وأقيمت سكة حديد سيبريا إلى ڤلاديڤستك وعلى أثر حرب الصين مع اليابان تدخلت الروسيا ومنحت امتيازاً بمد سكة حديد شمال منشوريا وقطعة من كوانتونج ، وبعد ذلك بعشر سنين هزمتها اليابان فتنازلت لها عما تملك فأضحى ماللياباناليوم هناك ١٣٠٠ ميلا مربعاً ، يضاف إلى ذلك منطقة السكة الحديدية إلى بورث أرثر ودايرن إلى أجل ٩٩ سنة ، وللشركات اليابانية هناك من السكك الحديدية ٦٨٦ ميلا إلى ذلك كثير من الفنادق والمصانع والمنشآت الاقتصادية ، وهى بحجة المحافظة

على كل أولئك تبرر موقفها ضد الصين فى النزاع الذى نقرأ عنـه اليوم .

قمت إلى مكدن عاصمـة منشوريا فوصلتها فى ثلاثين ساعة وخلفت ورائى سيول بأزيائها المختلفة من يابانية جذابة وكورية مضحكة وصينية منفرة ، فأخذ القطار يخترق أنفاقاً لا حصر لها



(شكل ١٠٥)
البوابة الرئيسية فى مكدن عاصمة منشوريا

وسط جبال معقدة تشقها الوديان تكسوها الخضرة ، وكان يظهر على أهل البلاد الجهل المطلق والفقر المبيد فى قذارتهم وكثرة السابلة والمتسولين ، وكنا كلما قاربنا منشوريا انفسحت السهول وظهر نبات الذرة والفول وندر الشجر ، ولم تكد تغيب الجبال عن الأنظار إلا قرب مكدن حين أضحت المناظر شبيهة بمناظر مصرنا الغالية ، والسكان هنا أندر منهم فى كوريا وفى كوريا منهم فى اليابان يؤيد ذلك قلة القرى والمساكن التى كنا نجوزها ، وبمجرد أن اجتزنا الحدود عند (شنجيشو) أخرنا ساعاتنا واحدة كى نتمشى مع زمن الصين ، وهنا أقبل رقباء الجمارك وفتشوا الحقائب فى رفق ثم عبرنا نهر (يالو) وهو الحد بين القطرين وبدت بيوت منشوريا بالحجارة والطين ، أما الخشب فنادر لندرة الشجر هناك والمروج لمرعى الخيول والماشية مترامية ، وكان بعض القوم يحرثون الأرض بمحاريث تجرها الأبقار على الطريقة المألوفة فى مصر وأخيراً عبرنا نهر كونجا من أكبر أنهار منشوريا ثم دخلنا :

مكدن : ويسميها اليابانيون (فنجتين) يفوق سكانها مائتى ألف وهى ثلاثة أقسام البلدة الحديثة أواليابانية وعددها ٩٠٠٠ وقد أقامتها اليابان على مقربة

من محطة سكة الحديد التى أرغمت الصين على تركها لها بعد الحرب الروسية هى وماجاورها من الأرض وتليها شرقاً المستعمرة الأجنبية وتعدادها ستون ألفاً وبها مساكن الأجانب وغالب القناصل وإلى شرقها المدينة الصينية القديمة يحوطها سور عظيم له بواباته العاتية التى لم تفتح أبوابها للأجانب إلا سنة ١٩٠٦ وهى مسقط رأس أسرة المانشو التى سادت الصين لمدة ٢٩٦ سنه حتى قامت اليوم على أنقاضها الجمهورية الصينية وها قد أعلنت اليابان الجمهورية فى منشوريا تحت حمايتها وترأسها امبراطور الصين السابق فان تم ذلك نهائياً انفتح المجال أمامها لاستغلال تلك البلاد المترامية ويوسط المدينة قصر عظيم الامتداد فى هندسة صينيه ، وفى داخله متحف حوى بعض مخلفات تلك العصور ، وطرق المدينة مترية قذرة ودورها واطئة متهدمة ، وهنا أذكر أنى هممت بأخذ صورة للسور . و إذا بالجندى يقتادنى قهراً إلى دار البوليس وبعد تحقيق طويل وحركة صاخبـة فى التلفون تركت لهم عنوانى وأفرج عنى بعد أن أخذوا عهداً ألا أعود للتصوير قط ، وكان يخالى البوليس انجليزياً ، فلما علم أنى مصرى تسامح معى كثيراً وذلك يظهر مبلغ نقمتهم على الأجانب ، أما المدينة اليابانية ففاخرة فى مبانيها وطرقها ، وقد أقاموا فى أكبر ميادينها نصباً تذكارياً لاحتلال اليابان للمكان وتكاد تكون فى هندستها ومتاجرها وأصوانها يابانية صرفة ، حتى أسماء المتاجر وإعلاناتها تكتب باليابانية وهنا بدت النزعة الاستعمارية الجائرة التى تنتحيها اليابان ، أما شبان الصين فحانقون أشد الحنق عليهم وعلى سائر الأوروبيين والأجانب ولهم فى ذلك الحق لأن بقاءهم لا شك يخدش عزتهم القومية وأظهر الأجانب فى المدينة من الروس الذين يسهل مجيئهم عن سكة حديد سيبيريا ، ومما راقنى خارج السور برج صينى (باجودا) يرجع عهده إلى ألف سنة فى اثنى عشر طابقاً وهو مائل ونصف متهدم وترى على جوانبه بعض التماثيل الذهبية لبـودا وهى بارزة ، ومن الأماكن الجديرة بالزيارة مدافن أسرة المانشو على ربوة تكسوها الأحراش وأجلها مقبرة الامبراطور تاتسونج



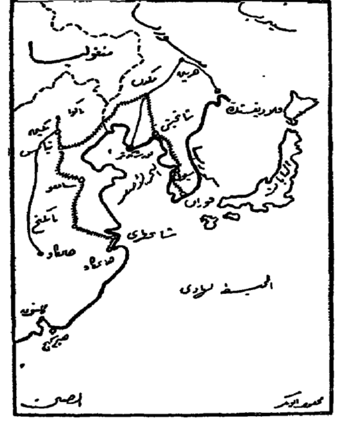
(شكل ١٠٦) سيدات منشوريا وأعجب ما فى ملابسهن رداء الرأس

ثانى حكامها يحوطها سور عظيم وفوقها نصب نقشت عليه فضائل الموتى ، وتقوم على شبه سفينة من حجر تحتها المدفن وحولها عدة مقاصير وتماثيل لحيوانات مختلفة تشعر بالرهبة خصوصاً إذا دخلنا الباب الأول ثم ارتقينا منه إلى الثانى ثم علونا إلى الثالث فى مسافات مترامية .

والأحياء الوطنية قذرة تكسو طرقها طبقات من تراب تغوص فيه العجلات ويسود فيطمر كل شيء والناس فى قذارة والأطفال عراة يعبثون بالأتربة والأوحال والعاطلون فى كل مكان وسيء الفاقة تبدو على وجوههم جميعاً والمتسولون لا يحصون عداً .

الصـــــين

بلاد العجائب والأسرار الغامضة



نبذة تاريخية :

لم يدون لنا التاريخ شيئاً عن الصين قبل سنة ٧٧٠ ق م لكنا نعلم من طريق الرواية والتقاليد أن أبناء هان حلوا الهوانج هو وقام عليهم زعماء أشداء علموهم فلاحة الأرض ومبادىء الحضارة ، وفى سنة ٢٦٩٧ ق م أدخل امبراطورهم الكتابة واخترع الطباعة وعلمهم بعض أنغام الموسيقى ، ومد نفوذه إلى البحار الشرقية شرقاً وإلى اليانج تسى جنوباً وتبعه حاكمان (تا-وتى وستون تى) أقاموا الأسواق وقاوموا الفيضان ووسعوا نطاق الامبراطورية حتى أن كنفوشيوس قدسهما فيما بعد وعدهما مثال الفضيلة والحكمة وعد هذا العصر الزاهر (عصر الصين الذهبى) .

أعقب ذلك عصر ارهاب ومظالم تحت أسرة هسيا لمدة ٤٣٩ سنة تبعتها أسرة شانج التى أعادت النظام بعض الشيء وحكمت ٦٤٤ سنة ، ثم جاءت أسرة شولنى وحكمت ٨٦٧ سنة فقام ووانج وقسم البلاد على أقربائه وقواده ومنحهم ألقاب ... ، وهذا ازدهرت الفنون والآداب وأصبحت البلاد زراعية



(شكل ١٠٧) أمام مقصورة العرش في المدينة المحرمة (بكين)

وأعمت آثار البدو كلية ، وهذا يعد عصر الأدب الذي اتخذه كنفوشيوس نموذجاً لمثله العليا .

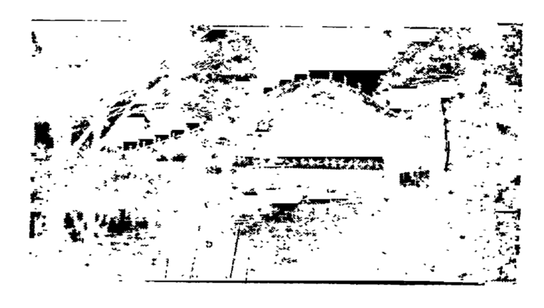
كثرت غارات البرابرة فاستقلت الاقطاعات عن الحكومة الامبراطورية وسادت الفوضى وعم الفساد ، فقام كنفوشيوس يبشر بفضائله سنة ٥٥١ ق . م ، وكذلك لاوتسى ومنشيوس .

وفي ٢٥٥ ق م قامت أسرة تسو فألغى الامبراطور النظام الاقطاعي وقسم البلاد إلى ٣٦ مديرية يديرها حكام يعينهم هو ، وهنا أقيم السور الأعظم ليرد البرابرة ، وقد أحرقت كتب الأدب وقتل مئات من أتباع كنفوشيوس لمعارضتهم لتلك السياسة ، فأهاج ذلك غضب الشعب ، وخلعوا تلك الأسرة وأقاموا (ليوبانج) مؤسس أسرة هان ، فازدهر الأدب ، وامتد سلطان البلاد . خصوصاً تحت الامبراطور ووتى ، وقد فتحت المواصلات مع الهند لأول مرة فدخلت البوذية سنة ٦٧ م واستعيدت تعاليم كنفوشيوس ونقشت على الصخور وبدأ استخدام المداد والورق وأقيمت المكتبات ونبغ كثير من العلماء ، وفي أخريات تلك الأسرة ثار عليها ثلاثة قواد حكموا البلاد وطوحوا بها إلى الفوضى وسمى عهدهم (عصر الممالك الثلاث) حتى جاءت أسرة تشن بين ٢٦٥ — ٤٢٠ . وفي عهدها هدد الهون والروم البلاد وأوفد رسول من القسطنطينية إلى عاصمة الصين وقبل أن تسمية

البلاد (الصين) ترجع إلى اسم تلك الأسرة وهى أول من اتصلوا بالعرب والفرس والهند وقال بعضهم ان الاسم محرف عن (تسان) أى الحرير أو أرض الحرير ، وأعقب تلك عدة أسرات صغيرة ظلت ٢٠٠ سنة وآخرتها (أسرة سوى) وهى التى حفرت القنوات العدة لتصل بين الأنهار المختلفة ، وفى هذا الزمن نقل رهبان أوربا صناعة الحرير لأول مرة إلى جنوب أوربا ثم جاءت أسرة تانج ٦٢٠—٩٠٧ وثانى ملوكها نشر العدالة والعلوم وأصلح قانون العقوبات ورد جنوده البواسل هجمات البرابرة والأتراك ، وفى مدتهم امتدت الصين من بحر قزوين إلى المحيط الهادى ووفد السفراء من الروم والفرس واليابان وكوريا فانتعشت التجارة بينهم وقد شجعت الطباعة بالحروف نشر الأدب وبلغت الحضارة شأوها .

وتبع ذلك خمس أسرات ضعاف جاءت بعدها أسرة سونج (٩٦٠ إلى ١١٢٧) فكافح أول حكامها (تاى سو) عشرين عاماً ليوحد البلاد وسمى عهده (عهد أوغسطس الصين) ولكن سرعان ما هاجمهم طوائف من التتار (تشى ثان) وبعدهم (نوتشين) ، ثم خضع الجميع لجنكيز خان الذى اجتاح المديريات الشمالية برجاله البواسل من المغول فمهد السبيل لحفيده كوبلاخان الذى أسس أسرة يوان سنة ١٢٦٠ وظل هؤلاء الأجانب حكام الصين لمدة ١٠٧ سنة فوظفوا كثيراً من الأجانب من بينهم ماركو پولو الذى أعطى أوروبا أول فكرة عن الصين وأخضعوا الصين كلها وكوريا وجزءاً من الهند الصينية وحاولوا فتح اليابان لولا عاصفة أودت بأساطيلهم . على أن الصينيين تخلصوا من هؤلاء الأجانب وأقاموا أسرة :

منج (Ming) ١٢٣٠ — ١٣٦٧ : التى أعادت النظام وعاضدت الفن والأدب ، ونشرت مذاهب كنفوشيوس حتى جاءت أسرة (تشنج Ching) من منشوريا تؤيد الأسرة السالفة لكنها سلبتها الحكم (١٦١٦ — ١٩١٢) ، واتبعوا نظم الحكم القديم حتى قامت الجمهورية سنة ١٩١٢ بقيادة الدكتور



(شكل ١٠٨) قناطر الصين المحدبة

(سان يات سين) الذى أهاج الشعب ضد المانشو فقامت الثورة ولجأ المانشو إلى بكين ، وتركوا أمر الحكم للجمعية الوطنية . فانتخب الدكتور رئيس الجمهورية وأشرك الامبراطور وقائده يوان شى كاى فى الحكم . لكن بعد استعفاء الدكتور تآمر الامبراطور على استعادة مركزه ، لكنه فشل بفضل مقاومة الشعب من جهة ، والأجانب من جهة أخرى خصوصاً تدخل اليابان وتقديمها مطالبها الإحدى والعشرين سنة ١٩١٥ . وبعد موت يوان (١٩١٦) قامت الجمهورية فى بكين ، لكن الدكتور سان أقام حكومة معارضة لها فى كانتون ، وانضمت الصين للحلفاء فى الحرب الكبرى (١٩١٧) ، ونظير ذلك قاوم الحلفاء نفوذ اليابان فى الصين ، لكن حكومة الصين ظلت ضعيفة أمام القواد الحربيين الذين لا يزالون يقتتلون إلى اليوم ، على أن الحكومة الوطنية أوشكت أن تتم انتصاراتها ، ويزيد الشعور بالقومية يوماً فيوماً ، والنفور من الأجانب بالغ أشده ، وهم يطالبون بإجلاء الأجانب كلهم عن بلادهم جميعها . ومن الحوادث التاريخية الهامة التى حدثت فى الصين حديثاً :

حرب الأفيون (١٨٤٠ — ١٨٤٢) : حين قاومت الصين دخول الأفيون

إلى بلادها ، فأتلفوا ٢٠ ألف صندوق فى كنتون ، فتحرجت الحالة بينهـا و بين التجار ، ووقعت لذلك الحرب بين الصين وانجلترا ، فهزمت الصين وأجبرت أن تدفع ستة ملايين من الريالات ثمناً للأفيون و ١٥ مليوناً على سبيل الغرامة ، مع ترك جزيرة هنج كنج لانجلترا ، وفى معاهدة نانكنج هـذه أرغمت الصين على فتح ثغورها للتجار الأجانب (خصوصاً كانتون وشنغاى وفوشو) .

حرب اليابان (١٨٩٤ — ١٨٩٥) : قامت بسبب المنافسـة على امتلاك كوريا ، وكان النصر حليف اليابان ، لكن الحلفاء وقفوا فى سبيل مطامعها .

عصيان الملاكمين (Boxer) فى سنة ١٩٠٠ قام الصينيون بطرد الأجانب الذين هددوا الوحدة الصينية ، إذ امتلك الألمان كياوشاو ، والروس بورت أرثر ودايرين ، وبريطانيا واى هاى واى و ٥٠٠ ميل فى كولون تجـاه هنج كنج ، وفرنسا كوانج شـاووان ، تجاه جزيرة هينان ، فهاجموا الأجانب وحاصروهم لـكنهم هزموا .

وفى حرب اليابان مع الروسـيا (١٩٠٤ — ١٩٠٥) احتلت اليابان سكة حديد منشوريا وضمت كوريا نهائياً .

الى بكين : (ومعناها العاصمة الشمالية) ، حللت الدرجة الثانية من القطار السريع فبدت قذرة منفرة غالب ركابهـا من الأجناد والرعاع ، ومقاعدها من خشب قاسٍ ممض ، وكان القطار يطيـل الوقوف على جميع المحاط ، وكنا نرى صفوف الجند شاهرى السلاح طوال الطريق وإلى جوار سائق القطار وعند مدخل كل عربة مما أشعرنى بأن البلاد تتحفز لحرب حامية الوطيس ، وهى تلك الحرب الطاحنة التى تدور رحاها اليوم فى تلك البقعـة من منشوريا ، أما مناظر الطريق فظلت سهولاً طوال الطريق تكسوها منابت الذرة والفول ، وكلما أوغلنا فى البلاد زاد البؤس والشقاء ، وكنا نرى صفوفاً من المتسولين يصيحون استجداء فى جلبة مزعجة كلما وقف القطار . وكان يلفت النظر اسـتدارة أدمغة القوم ، تلك التى



(شكل ١٠٩) النعش المرصع بسير فى حفل كبير

بدت متحدرة الجباه مشطورة الخلف بدرجة تثير الدهشة . هذا إلى تباعد بصيلات الشعر الذى ينمو فى استقامة كأنه شوك القنفذ . ولذلك اضطر كل من يرسل شعره إلى استخدام الأدهنة المائعة حتى يبدو أملس براقا ، وتلك مميزات الجنس الأصفر المغولى .

وكم كانت تضايقنى كثرة البصق والتجشى والتمخط فى كل مكان وبين كافة الطبقات فى شكل تشمئز منه النفوس ، كذلك الخشونة التى كانت تبدو فى طباع الناس ، وشتان بين آداب اليابانيين السامية وجفاء هؤلاء .

بكين : أو بيبين (Peipin) كما تسمى اليوم ، ومعناها السهل الشمالى : بعد تمام أربع وعشرين ساعة دخلنا بكين عاصمة بلاد الصين بعد أن اخترقنا سورين من أسوارها الشامخة التى أقيمت من الآجر الأسمر الكبير ، وبدت بعض بواباتها الضخمة التى تتلاشى أمامها بوابة (زويلة والفتوح) عندنا . هنا أقلتنى (ركشا) بحقائبى إلى النزل لأنى لم أكد أعثر على سيارة لندرتها فى تلك البلاد بسبب مزاحمة الإنسان فى الجر والحمل لها . تفقدت خريطة بكين فإذا بها مدينتان

المدينة التتارية والمدينة الصينية ، يفصل بينهما سور ضخم ومساحتهما معاً ٢٥ ميلاً مربعاً ، يطوقها سور من بناء أصم . سور المدينة التتارية يمتد ١٣ ميلاً ، وعلوه ٣٧ قدماً ، وسمكه بين ٦٤ و ٥٢ ، أما الصينى فأصغر قليلا ، و بين كل ١٨٠ قدماً شبه قلعة ، وتخترق الأسوار ١٦ بوابة ، يواجه كل بوابة بناء نصف دائرى تقوم عليه الأبراج السامقة بنوافذها المساحة ، وقد علمت أن كل مدنهم تقام على هذا الأساس ، وهذا قسم خاص بالتتار من المسودين وهم المغيرون من سلائل المانشو الذين كانوا يترفعون عن الاختلاط بالصينيين ، وهم الرعايا الذين كان عليهم أن يأتمروا بأمر التتار و يلقبون (بعبيد التتار) ، وعلى الصينيين أن يمونوا أهل المدينة التتارية بالغذاء والصرائب رغم أنهم قد يبلغون العشرين ألفاً ، وقد عرف أولئك التتار أخيراً بالخمول والكسل : فهم يحتقرون العمل و يرونه خاصاً بمن هم دونهم مقاماً من الصينيين ، لذلك كنا نرى بقاياهم يقتلون وقتهم جلوساً أمام دورهم يدخنون غلايينهم و بيد كل قفص يضم مهواته (غيته) المحبوبة من الطير ، حتى النساء اللاتى يسرفن فى التدخين حتى فى سن العاشرة ، وقد قيل إن متوسط ما تستهلكه السيدة من الطباق عشرون سيجاراً كبيراً فى اليوم ، ذاك الطباق الحار القوى الذى يخلف أثره السيء فى صحتهن وفى فساد رائحة أفواههن جميعاً .

ظل أهل الصين خاضعين لهؤلاء الدخلاء من سلائل المانشو من التتار خضوعاً مخزياً يدل على انعدام روح المقاومة بينهم تلك التى نشطت قليلا أوائل القرن الحالى و بدت فى شكل ثورة سنة ١٩١١ حين هاجمهم الصينيون وأبادوهم و ذبحوا أبناءهم وتخلصوا من نيرهم إذ كانوا يعيشون عالة عليهم .

والمدينة التتارية تقام فى شكل (حدوة الفرس) تقديراً لخيلهم وتفاؤلا بها لأنها مطيتهم التى أغاروا بها على البلاد لما أن وفدوا من صحارى القرغيز ومنغوليا ويتوسط المدينة عادة بيت القائد تؤدى الشوارع الرئيسية إليه ، وتنتشر حوله المعسكرات .

وفى بكين تتوسط المدينة التتارية مدينة أخرى يسمونها المدينة الأمبراطورية لها سورها الخاص . وكانت مقر الأسرة والحاشية وكبار رجال الدولة . ومن داخل هذه أيضاً : المدينة المحرمة مركز الدنيا فى زعمهم يتوسطها عرش التنين ذائع الصيت ذاك الذى جلس عليه ملوك المغول والصين والمانشو على التعاقب وحولها سور من الخزف الأصفر البراق .



(شكل ١١٠)
على سلم معبد السماء أفخر آثار بكين

بدأت جولاتى بالمدينة المحرمة وذرعها ٩٠٠ متراً فى ٧٠٠ ، بواباتها الأربع التى تخترق السور البراق تؤدى إلى مجموعة لا حصر لها من مقاصير فى الهندسة الصينية الجذابة ، تكسى سقوفها المنحدرة المقوسة بالخزف الأصفر ، ويتخلل حديقتها الفسيحة المتسعة قنوات عليها قناطر محدبة من رخام أبيض ساطع ، بناها الأمبراطور (Yonglo) فى القرن الخامس عشر ، واتخذت مقراً للأمبراطور وأسرته وكانت محرمة على الجمهور إلى سنة ١٩٠٠ حين دخلها الأوربيون عنوة وأرغموا الصين على فتحها للجميع ، وأفخر الحجرات : حجرة العرش وحجرة الولائم وحجرة المعرض ، تتقدمها جميعاً الردهات من الرخام ، نعلوها بسلم فاخر وفى قلب الغرفة الوسطى عرش (التنين) المشهور فى خرط من الخشب المرصع والمقاصير الخلفية كلها كانت مسكن الأسرة والحاشية ، وهى اليوم معارض بها من النفائس الفنية القديمة ما قدر بثلاثين مليون ريال ، من بينها أشغال الخرط

الممتازة وتماثيل من أحجار كريمة وساعات مرصعة وخرط مطعم من العاج والخشب وحروف الطباعة القديمة وآلات موسيقية من بينها (بيان) كأنه (القانون) من أوتار سبعة يرجع عهده إلى ١٥٧٣ ثم مجموعة من أسلحة ودروع وسروج ، والمفروشات قيمة لدرجة تشهد للصين بالماضى المجيد وتخلد اسمها فى عالم الفن ، وبخاصة أعمال الخزف رصعت بالمعادن . وازدانت بالجواهر فى زخرف وإتقان لايكاد يصدقه العقل ، وهناك قسم للتصوير والنقش على الورق والحرير والخشب بعضه بالألوان والبعض بالتطعيم إلى كثير من المخطوطات الصينية القديمة ، ومما أدهشنى معروضات الشبة (البرنز) التى ترجع إلى سنة ١٧٦٦ ق م . ورغم ذلك فهى تكاد تحكى إتقان عصرنا هذا .

وفى جانب من المكان حمام لخليلة الامبراطور Chiang Lung وكانت مسلمة اسمها Hsiang Fei وهو شبيه بالحمام التركى مقبي السقوف تحوطه مقاصير متداخلة وكلها من الخزف البراق ، وبالايجاز فالمدينة ساحرة جذابة الهندسة جديرة بسكنى الجبابرة الأولين ، وفى ركن من أركان المدينة المحرمة قسم كان يسكنه (كوبلاخان) نفسه ويسمى (المدينة المستديرة) ، وخير ما هنالك تمثال لبودا من حجر اليشب ناصع البياض براق فى حفر بديع وتقاطيع جذابة ويعد من المخلفات الفنية النادرة حتى قيل إنه وحده يبرر زيارة لبكين من أقصى الأرض .

معبد كنفوشيوس : عظيم الرحاب وعديد المقاصير التى أقيمت للتعبد وطلب العلم والحكمة يتوسطها الهيكل وبه لوحة نقش عليها اسم كنفوشيوس أخص معبودات الصين وتحوطها فى جوانبها ألواح أخرى عليها أسماء البراطرة الذين تعبدوا طرع تعاليمه وقد ألفت نظرى فى المدخل تسعة طبول ضخمة من صخر عليها نقوش صينية منذ أسرة شو (١١٢٢ ق م) ، وفى فنائه الشاسع بهو الحكمة



(شكل ١١١) محكمة صينية ويقف الجلادون إلى جانب المتهم تهديداً وإرهاباً

Hall of Clssics بأعمدته الممتدة ، وهناك ترى بقايا كتب كنفوشيوس نقشت على ألواح الحجر .

وكنفوشيوس فيلسوف عاش فى الصين بين ٥٥٠ و٤٧٨ ق م كثرت فى عهده الجرائم وانحطت أخلاق الناس فقام يبشر بالفضيلة على أنه لم يدع أنه مكلف بتبشير رسالة آلهية فجمع تقاليد أجداده وصاغها فى قالب أدبى فلسفى ، وكان يعنى بصفة خاصة بالروابط الاجتماعية ويحتم تقديسها ، وكان يقول بأن المجتمع نظام آلهى يقوم على خمس : علاقة الحاكم بالرعية والزوج بزوجته والوالد بابنه والأخ الأكبر بأخيه الأصغر والصديق بصديقه ، وكان يفرض فى تعاليمه وجوب الطاعة فى غير مناقشة وبخاصة فى العلاقات الأربع الأولى كما يحتم على الحاكم العدل والرحمة والاخلاص ولم يشر فى تعاليمه إلى آله خاص ، وكان ينصح تابعيه أن يترفعوا عن التفكير فى عالم الأرواح وألا يتوقعوا شيئاً فى الدار الآخرة ولقد كان لتعاليمه كثير من الفضل على الصين من ناحية الأخلاق لكنه قتل فيهم الطموح والنظر إلى المستقبل وهو أس النهوض فخاف فيهم مدنية راكدة ظلت

أجيالاً ولم تخط إلى الأمام قط ، ولا زال أساس التعليم هناك يقوم على وصاياه وكتبه الأدبية الفلسفية ، وكان ولا يزال يستظهره الجميع حتى الأطفال المبتدئون ، على أن عهد الجمهورية الحديث بدأ يدخل شيئاً من التغيير على هذا النظام العتيق .

قصدت أحد المعابد البودية واسمه معبد (اللاّما) وهو أحد المذاهب البودية الذى يستمد الوحى من المعبد الرئيسى فى هضبة التبت ، وكانت قد حلت البلاد منذ أسرة (يوان) ، وكان القسس يلبسون الأردية الحمراء لكن حولها براطرة (المنج) إلى الأردية الصفراء ، ومن هنا سميت أحياناً بالديانة الصفراء ، أما كلمة لاما فمعناها (سامٍ) فى لغة التبت ، وأول ما ظهرت الديانة البودية فى القرن الأول الميلادى محاولة أن تتم النقص الذى أهمله كنفوشيوس وبخاصة جانب القيام بالشعائر وجانب الرجاء فى ثواب الآخرة ، ولقد اعتنقها كثير من عامة الشعب وترى معابدها فى طول البلاد وعرضها لكنها مهملة والقسس فيها جهلة يحتقرهم الأغلبية وبخاصة الطبقات الممتازة ، وما هى فى نظرهم إلا الشعوذة بعينها . دخلت المعبد — ويخالونه مقر روح بودا — فبدت مداخله رائعة ممتدة ، وتتوسط فناءه تماثيل لحيوانات بشعة غريبة ، وفى الوسط تمثال لبودا نحت فى جذع شجرة واحدة ، وعلوه ستون قدماً ، ورأينا كثيراً من المباخر من الحجر والبرنز ، وعجلة التعبد النحاسية التى تدور بانتظام وتعطى أصواتاً فى فترات متساوية يمكن المتعبدين أن يقرأوا أورادهم وراءها ، وصادف أن كنا هناك الساعة السادسة مساء ، وهى ساعة الصلاة ، فرأينا جموعاً غفيرة من الأطفال والشبان والكهول يخرجون من سراديبهم وعليهم العباءات الصفراء ، وفوق رءوسهم قبعات كأنها عرف الديك أو منقار الببغاء ، ثم أقبل رئيسهم وهم جلوس تحت أقدام بودا وأخذ يطوف بهم وبالتمثال ويصيح صيحات مزعجة وهم يرددونها وراءه فى مشهد رهيب ، وأذكر هنا وأنا خارج أن أقبل قسيس يعرض على قطعة من حرير منقوشة ادعى أنها [illegible] وكان يخفيها بين طيات ثيابه مدعيا أنه سرقها ويرجونى الإسراع فى



(شكل ١١٢) أحد علية الصين يركب (الركشا)

البت فى شرائها خشية أن يراه أحد وهو زعيم دبى ! فقلت : يا لله ! إلى متى يعيش الإنسان فى تلك الظلمات ؟ طائفة من الدجالين يحتمون تحت ستار الدين فيعيشون عالة على بسطاء العقول ، وهم السواد الأعظم من أهل البلاد ، وأخص ما يسترعى نظر علماء الاجتماع فى غالب عقائد الصين أنها تحتم الطاعة العمياء لرجال الأدب وللمتقدمين فى السن وبخاصة الآباء ، حتى عدت أرواحهم مقدسة بعد مماتهم ، فكان من سيئات ذلك أن هم كل فرد بالزواج المبكر كى يلد أكبر عدد ممكن من الأبناء الذين يحيون ذكراه ويوفرون لروحه السعادة بما يقدمونه من قرابين ، ومن لم يستطع القيام بذلك لفقره وجب على المحسنين أن يعينوه بمالهم حتى يستطيع أداء واجبه . ومن لم يعقب اضطر أن يتبنى من ذرية الغير ، لذلك كثرت ذراريهم إلى درجة جعلت تنازع العيش بينهم ممضاً . ذاك التنازع الذى أدى إلى سياسة الابتزاز الممقوتة التى عرف بها أهل الصين جميعاً ، فكل فرد يحاول ابتزاز المال ممن هو دونه . وكان محال الرشوة لديهم فى كل الأعمال فرضاً لازماً حتى ضاعت فى سبيلها قوميتهم وفترت حماستهم الوطنية . هذا إلى اعتقادهم فى العفاريت التى أثرت حتى فى أبنيتهم فلا يصح أن يعلو البيت جاره .

ولا أن تقام القناطر إلا ملتوية محدبة ، وأن تلتوى السقوف فى أطرافها إلى السماء ، كل ذلك دفعاً للجن ، ولعل لذلك الخوف أثره فى إهمال التعدين ، خشية إزعاج الجن فى بطن الأرض ، ويرمى الأجانب أهل الصين بأنهم أسرى مواتاهم : فالولد يجب عليه أن يعرض التابوت الذى سيدفن فيه والده بعد موته فى أفخر ردهة من البيت ، ولا يفتأ يزيد فيه نقشاً وترصيعاً ، وكثيراً ما يستدين الولد كى يفى بهذا الواجب المقدس فإذا مات الأب اشترى له ماء الغسل من الخارج وارتدى المشيعون القماش الأبيض واستشير العرافون فى تخير ميعاد يلائم الدفن ، ولذلك فكثيراً ما تبقى الجثة فى البيت طويلاً ، وإن حل بالعائلة سوء عزوه إلى سوء اختيار مكان الدفن وميعاده وعندئذ يحمل التابوت عشرات من الناس يتقدمهم حشد يحمل كل لوحة نقشت عليها ألقاب المتوفى ومزاياه ويجب أن يكون مظهر الجنازة فاخراً مهما كلفهم ذلك وإلا كان عاراً لا يمحى ، ومن أعجب ما لاحظته بين المشيعين طائفة تحمل طبولاً تقرع بشدة وآخرون يحملون تماثيل بشعة لنساء ورجال تقرب من النعش لدفع الجن عنه ، أما النعش ففى لون أحمر براق تزينه أهداب القصب وترصيع الذهب الثقيل مما أذكرنى بعادة أجدادنا الفراعنة .

على أن الصين أبعد الدول عن التدين والصينى معروف بعدم العصبية الدينية وهو ضعيف الايمان والثقة بالآلهة ، لذلك يغيرها كل يوم لأنه يراها غير عادلة تنزل العقاب جزافاً ولا تستجيب دعاءه وبلغ من احتقاره إياها أنه إذا تخلف المطر أوقف البخور لها وقد يضربها بالسياط أو يلقيها فى النهر ، وكلما حلت نكبة ببلدة ما اتهم آلهتها بالعجز فغيرت ، وإن انتصروا فى الحرب مجدوا إله الحرب ، وأقدس آلهتهم إله الأدب ، وقد يخدع الصينى الآلهة فيقدم لها الورق المفضض والمذهب بدل النقود ! وكثيراً ما كنت أراه منظوماً فى حبال تعلق داخل المعابد ، وقد جرت أنهم حملوا الآلهة وطافوا الطرق فى وقت انتشر فيه الوباء ، فلما لم يفد

ذلك أغرقوها ، واقترضوا أن بدء عامهم كان شؤماً فيجب تغييره ، فأقاموا حفلة بدء السنة من جديد . ويسود أذهانهم التفاؤل والتشاؤم ، حتى أنهم يحتاطون فى الحديث خشية أن تبدو كلمة منفرة تتخذ نذيراً للشؤم ، على أن لدينهم الذى يقدس فلسفة الأجداد فضلا عليهم إذ ساعد على حفظ كيان الصين رغم ما أحاطها طوال العصور من عوامل الهدم والانحلال .



(شكل ١١٣)
سيدة صينية نفاخر بجمال أقدامها
ولا تكاد تتزن فوقها

معبد السماء : وهو أفخر ما رأيته فى بلاد الصين جميعاً : عظيم الرحاب ، شاهق البنيان ، دقيق الهندسة ، تحوطه أسوار ثلاثة من خزف أزرق طول أكبرها ثلاثة أميال ونصف ، بنى سنة ١٤٢٠ على قسمين : معبد السماء ، ويقوم على مساطب مدرجة دائرية الشكل ، ومن الرخام الوضاء يحوط كل درجة سياج بأسنان باسقة وفى وسط أعلاها يقوم المعبد من الخشب فى شكل برج صينى (باجودا) بديع الخرط والنقش تكسوه قبة من خزف أزرق تقوم على أعمدة شامخة كأنها أعمدة الكرنك لكنها من خشب مطعم (باللاكيه) فى إتقان عجيب جىء بها من أشجار (أوريجون) الأمريكية كى تحتمل عبء البناء السامق فوقها ، وفى وسطها موضع العرش تحوطه شواخص حجرية لذكرى تسعة من البراطرة والقسم الثانى يسمى مذبح السماء وهو كذلك فى ثلاث مساطب مستديرة من رخام

أبيض قطر أسفلها ٢١٠ قدماً ، والمسطبة العليا مكشوفة للسماء وكانت تمثل قبة السماء ، وهنا كان يركع الامبراطور ويعترف بأخطاء شعبه ، ويرجو آلهة السماء لهم الغفران وفى وسطها كانت تقدم الذبائح

وهذا المعبد رائع الجمال ، فاخر البنيان ، لدرجة تجعل أثره فى ذا كرتى خالداً وهو وحده خير مبرر لزيارتى للصين وتحوطه غابة كثيفة من أشجار الأرز يبلغ عمر بعضها ألف سنة .

معبد الزراعة : على مقربة من معبد السماء أقيم تذكاراً للملك الخيالى (شن ننج) الذى حكم الصين منذ ٣٠٠٠ سنة ، ويخالونه أول مخترع للمحراث وحوله حقول شاسعة ، كان يجىء الامبراطور بنفسه ، ويبدأ الحرث فى أوائل الربيع من كل عام وكلما أكمل محراثه ثلاثة خطوط تبعه ولاة الأقاليم وألقوا فيها البذور على أن يد الزمان نالت منه كثيراً فلم تبق منه اليوم إلا أطلالا بالية .

وبين معبد السماء ومعبد الزراعة ردهة مترامية كانت ولا تزال تستخدم لتنفيذ حكم الإعدام فى بكين ، ويعرف الصينيون بالقسوة الشديدة فى تنفيذ أحكامهم ، فالاعدام عادة يكون بقطع الرأس بالسيف وكان اللص إلى أمد قريب يدفن حياً أو يحكم عليه أن يموت بالمخنق الخشبى ، وهو آلة بها موضع للرقبة يوضع فى رقبة المجرم ، ومن تحته ألواح سميكة من خشب أو حجر يرفع منها واحد كل يوم فيعلق الجسد من الرقبة ويشحذها فتستطيل بقدر سمك اللوح الذى رفع وهكذا حتى يموت ، وكثيراً ما كانت تؤخذ العائلة كلها بجريرة فرد منها إلى سنة ١٩١١ ، وكان يحكم على بعض المجرمين بثلاثة آلاف جلدة ، ومن العجيب أن كل تلك القسوة لم تنتج أثراً فى تخفيف الجرائم . ومن أقسى العقوبات بعد الإعدام : النفى ، ذلك الذى يخشاه الجميع خوف الموت خارج بلادهم .

ومما كان يروقنى كثيراً : مشهد الأحياء الوطنية من المدينة الصينية فى أزقة ضيقة . وطرق مترِبة غير مرصوفة ، يجوبها خلق كثير : صفر الوجوه ، شاحبو



(شكل ١١٤) مبلغ تشويه أقدام السيدات فى الصين

الألوان ، منتفخو العيون ، مشطورو الرءوس ، وتطل على تلك الطرق حوانيتهم وعليها إعلاناتها فى شرائح من خشب أو ورق أو قماش تتدلى مستطيلة حتى تكاد تسد الطريق ، ولهم أضواؤهم الخاطفة فى الليـــل ، ويزينون واجهات الحوانيت بشبه أقواس كبيرة مذهبــة فى الخرط الصينى الجذاب ، والخط الذى يبدو وكأنه بقع ضخمة ذوات أهداب براقة ، وأنت ترى أقواس الطريق تقوم مشرفة من خشب صقيل فى جميع طرقهم حتى الرئيســية . أما وسائل النقل فغالبهـا عربات ذوات عجلة واحدة فى الوســط وقد تكون ذوات عجلتين ، يجرها فى جهد كبير نفر من الناس متكاتفين والعرق يتصبب من جسومهم العارية بشكل يؤلم الفؤاد ، ويسمونهم (كولى) ومعناها القوة التعسة ، ولكيلا يعطلوا المرور وسط الطريق — خصوصاً الركشا التى يجرها الإنسان أيضاً — جعلت لهم منطقة على إطار الطريق غزيرة الأتربة يسيرون فيها وعجلاتهم تغوص بعيداً ، هذا إلى الحمالين الذين تراهم يعلقون حملين على طرفى عصى من الخيزران العريض فوق أكتافهم وكنت أعجب لعواهلهم كيف تطيق تلك الأثقال التى تحز فى جلودهم حتى تدمى .

مناظر لا يخلو منها مكان فى الصين كلها ، وكأن مزاحمة الإنسان لوسائل النقل الآلية التى كنا نراها فى الممالك الأخرى قد كادت أن تخفيها ، ومظاهر الفاقة الشديدة بادية فى كل شىء فلا يخلو طريق قط من جماهير المتسولين ، وعجبت لما أن علمت أن التسول هناك مهنة يمارسونها تحت نظام مرتبط كأنه النقابات وعلى رأس كل جماعة رجل شرس قوى الشكيمة يؤول إليه كل ما يجمعه أولئك البائسون ، والناس هناك يتصدقون على المتسولين مرغمين خشية أن يلحق بهم رئيسهم ضرراً فى المال أو البنين ، أو يسلط عليهم رجاله لمضايقتهم بالتجمهر أمام بيوتهم فكثيراً ما يدبرون الخطط لسرقة متاع الغير أو لإشعال النار فيه ، وطالما فقأ الآباء عيون أبنائهم فتأخذ المارة الرأفة بهم و يتصدقون عليهم .

ولقد أحدث انتشار الفقر والعوز فى طول البلاد وعرضها أسوأ الأثر فى أخلاق الناس فأفسدها وأنت تلمس انحلالها فى كل مقام ، فلا أذكر أنى ركبت (ركشا) مرة دون أن يباغتنى سائقها قائلاً : أتريد بعض الغانيات من فتيات المانشو ذائعات الصيت جمالاً ! إلى ذلك جماهير السيدات اللاتى كن يمسكن بتلابيبنا طوال الطريق إلى درجة المضايقة الشديدة ومنهن من لم يبلغن الحلم وكأن الأجانب هناك بأخلاقهم الفاسدة قد جرأوهم على ذلك الابتذال ، وطالما كنت أعجب للصغار من الفتيات يسرعن إلىَّ طلباً للمعونة المالية وهن فى هندام نظيف لا يشعر بالفقر أبداً ، كذلك كنت ألاحظ أنهم يميلون إلى الغش فى كل شىء حتى فى صرف النقود إذ كانوا يدسون لى بينها ما هو زائف بكثرة عجيبة ، وقد تعدى هذا إلى حكامهم وضباطهم وجنودهم فعرفوا بالارتشاء إلى حد باعوا معه ذممهم وذمم وطنهم وهذا ميدان شجعه الأجانب بمالهم ليثبتوا أقدامهم فى تلك البلاد .

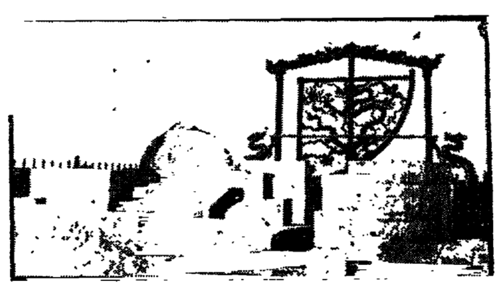
ومن المناظر التى كنت أتألم لها طوال الطريق السيدات اللواتى كن يسرن فى تثاقل وتيد ، والواحدة تكاد تترنح ولا يتزن جسمها فوق قدميها اللتين لا تزيدان عن سبابة اليد طولاً وقد انحبس نموها ونمو عظامها فكان يخيل إلى



(شكل ١١٥) على حافة بعض متنزهات بكين وتبدو القنطرة المحدبة على بعد

أنهن يسرن فوق عِصِىّ خشبية دقيقة جامدة وكأن ذلك قد أثّر على الساق نفسها فدقت من أسفلها ونحفت إلى حد مخيف ، ويا ويلها إن حاولت الجرى فانها تتعثر بشكل بشع والألم يبدو على وجهها ، ويكاد يكون نصف نساء البلاد من هـذا النوع ، والأقدام الصغيرة كانت آية الجمال لديهم ، وكان يحتم الزوج أن يرى قبل الزواج حذاء خطيبته فان ظهر بعد الزواج أن قدم العروس كانت أكبر من الحذاء الذى أخذه رهينة جاز له الطلاق ، لذلك كان الأمهات يبالغن فى تشويه أقدام بناتهن وهن صغار ، فكانت تغسل الأقدام بالمـاء الساخن ثم تلف حولها أشرطة من الـكتان لفائف متعددة محكمة ، وفى كل ليلة تعيد الأم هـذه العملية لمدة ثمانية عشر شهراً ، والبنت تتأوه فى ألم شديد والأم تسترضيها بالهدايا وتمنيها بزوج قريب ، ولقد حرمت حكومة الجمهورية ذلك اليوم وفرضت عليه عقوبات قاسية على أن ضعف سلطان الحكومة اليوم وعدم استقرارها شجع كثيراً من الأمهات أن يثابرن على تلك العادة القبيحة ولا يزال الشبان يؤثرون فى السيدات الأقدام الصغيرة كما ثبت لى من محادثة كثير منهم .

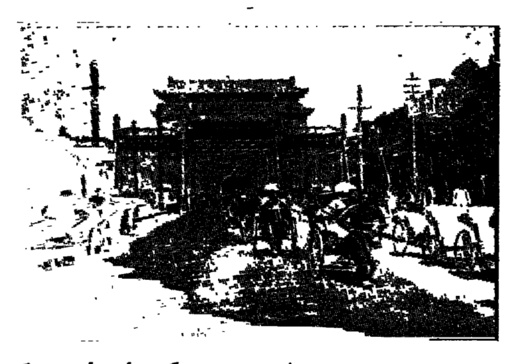
زرت فى ناحيــة من بكين قصر الشتاء : بحدائقه الفيحاء وبحيراته الممتدة المتلوية تـكاد تغص بنبات المـاء وبخاصة البشنين فى زهره الـكبير هادئ الحمرة



(شكل ١١٦)
بعض الأجهزة الفلكية فى مرصد كوبلاخان أقدم مراصد الدنيا (بيكين)

أو ناصع البياض وعليها من القناطر المحدبة البيضاء شىء كثير بناه ملوك المنج والمانشو فى هندسة صينية فاخرة ، ولعل أعجب ما به برجه السامق فى شكل فريد فى نوعه يطلق عليه القوم (برج داجوبا الأبيض) به خمسة طوابق تمثل العناصر الخمسة فى زعمهم ، وإلى جوار القصر ربوة تسمى تل الفحم تعلو ٢١٠ قدماً فى شكل مخروطى يحفه الشجر ، وفوق الذروة مقصورة فى شبه (باجودا) صينية تتخذ اليوم مقهى جلست فيه قليلاً فبدت بكين كلها وكأنها غابة كثيفة مغلقة لا يكاد يستبين المرء خلالها أسواراً ولا أبنية اللهم إلا سقوف المدينة المحرمة فى لونها الأصفر البراق ، وكلما نزلت مررت بعقاصير أخرى ، وتروى أقاصيصهم ان التل أقيم من الفحم الخالص إبان حكم أسرة (يوان) اتقاء خطر الحصار ويظن البعض أنه من الثرى الذى أخرج من بحيرات قصور كوبلاخان القريبة منه .

قصدت بعد ذلك مرصد كوبلاخان أقدم مراصد الدنيا أقامه كوبلاخان سنة ١٢٧٩ ويحتوى على مجموعة من الأجهزة الفلكية القديمة فى أشكال عجيبة وحجوم هائلة صيغت من شبه ونحاس فى دقة هندسية بالغة ، ومن أجملها المزولة



(شكل ١١٧) « شين من » أخر بوابات سور بكين وأمامها أسراب الركشا

الشمسية والقمرية وآلة السدس والكرة السماوية ، وتبـدو النجوم بها فى بقع بارزة من المعدن الأصفر وتحمل تلك السماء على مجموعة من (التنين) شعار الصين الرئيسى ، وقد احتذاه فردريك الأكبر فشاد أول مرصـد فى أوربا على نمطه وضع له أجهزته بعض رهبان الجزويت نقلا عن مرصد الصين ، وكانت طائفة من أجهزة هذا المرصد قد وقعت غنيمة فى أيدى الألمـان إبان حرب المصارعين لـكنهم أعادوها اليوم ، والمرصـد يقوم على ركن من سور المدينة الهائل التى اعتليته بين بوابتى — (شن من) مدخل المدينة الرئيسى (وهاتا من) والسور من أعلاه كأنه الجسر العظيم الممهد تزين جوانبه النوافذ الجميلة ، وكان ارتفاعه يعادل الطابق الثالث من البيوت الإفرنجية ، بجواره واتساعه من أعلاه يعادل شارعاً فسيحاً وتمو فوقه الأشجار فيسير المرء وكأنه وسط الحدائق المعلقة — لبثت أجول فوقه ساعتين والمناظر من حولى رائعة ، والذكريات التاريخية لتلك البلاد العتيدة تمر بالخاطر فيكبر تلك العظمة ، ثم لا يلبث أن يأسف لزوالها وبخاصة إذا رأى كثيراً من أركان السور قد احتله أجناد الأمريكان والانجليز واليابانيين

والفرنسيين ، ويطل هـذا القسم من السور على الحى الأوروبى الذى تقوم فيه دور السفارات .

وخير متنزهات بكين المتنزه الأوسط تؤمه الطبقات الممتازة تشرف على جداوله ونقائعه مقاصير المقاهى المنسقة ، وتصل ما بينها مماشى ضيقة منسقة سقوفها بديعة الهندسة وهو المتنزه الوحيد الجدير بالذكر فى بكين التى تعوزها المتنزهات ، وإلى جواره معبد الجرس به أكبر أجراس الدنيا محيطه ٣٤ قدماً ، وله قصة عجيبة إن الامبراطور يونج لو لما رغب فى صنعه لم يعجبه رنينه فاستشار العرافين فأشاروا عليه بضرورة صهره ثانية وإحراق غادة عذراء تحته فهدد الإمبراطور صانعه بالقتل إن هو لم ينجز هذا وكانت له بنت ضحت نفسها لإنقاذ والدها ولا يزال أهل بكين يسمعون خلال صليله أنات العذراء كلما دق هذا الجرس !

وفى ناحية أخرى من المدينة زرت برج الطبلة الذى شيد سنة ١٢٧٢ ، وهو تام الحفظ فى رونق جميل وبنيان شامخ يبدو كأنه (الباجودا) الهائلة ، وفى قمته ثلاثة طبول كانت تدق كل يوم الساعة التاسعة مساء ١٠٨ دقات إيذاناً بساعة الراحة ، وهى على ارتفاع ١٠٣ قدماً ومنظر المدينة من أعلاها وقت الأصيل رائع ساحر .

قصر الصيف : أقلتنا إليه سيارة وهو يقع على بحيرة فسيحة فى سفح التل الغربى ، وكانت تتخذه أرملة الإمبراطور مصطافا لها هروباً من حر بكين اللافح ، وقد غالى القوم فى الإسراف فى تنسيقه بين حدائق وقناطر ومقاصير بعضها فوق الربى والبعض فى الوهاد على حجور النقائع التى تكاد تغص بنبات الماء والبشنين يتجلى بزهره الخلاب هذا إلى المماشى التى تمتد أميالا تحت سقوف من الخزف الصينى البديع . أما القناطر فغالبها من رخام ناصع فى شكلها الأحدب العجيب ، وفى ناحية من القصر زورق من رخام ذو طابقين يقوم على عمد فى الماء فيخيل إليك وأنت به أنك فى سابحة تمخر عباب اليم وسط الزهور البديعة والحديقة

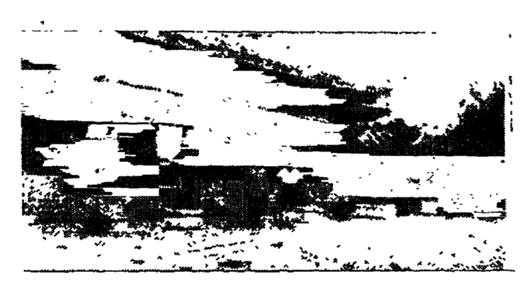
على تنسيقها الرائع تمتد أميالا ويتطلب تفقدها أياما ، وخلف القصر ترى فوق الجبل مجموعة من معابد أفخرها معبد الخمسة آلاف بوذا فى أشباحها الرهيبة ، وقد أخذنا نتجول بالسيارة خلال آثار تلك التلال ومن بينها : نبع اليشب الذى كان يسقى المدينة التتارية وقصورها وحدائقها ، وحوله ثلاثة أبراج (باجودا) واحدة من (اليشب) والثانية من الخزف والثالثة من الصخر ، وكلها تتوج ذرى جبلية ، وكانت الغابات حولها تغص بالوحوش وبخاصة الأنمار لذلك كان يتخذها



(شكل ١١٨)
هكذا تمتد طرقهم الخشبية فى أرجاء حدائقهم

البراطرة مصاداً لهم ومستراضاً ، وفى جانب من التلال : معبد بوذا النائم يرجع عهده إلى أسرة (شانج) وطوله خمسون قدماً فى أرديته الرهيبة وأقدامه العارية . وهنا كنت أرى الحجاج يقدمون القرابين وبخاصة الأحذية الكبيرة التى يزيد طولها على نصف متر ، والتى تصف تحت أقدام الآله بعضها من حرير والبعض من جلد أوخوص ، وفى زاوية من المعبد تمثال (لماركو بولو) الرحالة الأوربى ، وعلى مسيرة ساعة من هذا معبد السماء الزرقاء يعلو فى عدد لا يحصى من الدرجات فيتوج ذروة الجبل فى رخامه الوضاء وأجمل ما به ردهة الألف بوذا .

وبعد ثمانى ساعات عدنا إلى بكين وسط حقول زراعية كأنها حقول مصر والقرى منثورة فى كل مكان تعوزها النظافة أما الطرق فرديئة ومتربة والسير فيها



(شكل ١١٩) أمام مقصورة الملكة فى قصر الصيف (بكين)

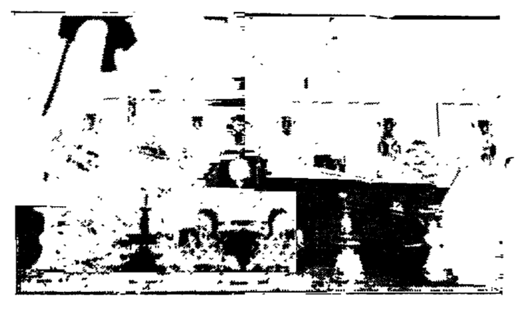
متعب للغاية خصوصاً وقد أمطرتنا السماء وابلا كساها أوحالا يتعذر معها السير ، أما الجو فحار مجهد إلى حد كبير بحيث لا يستطيع الإنسان الانتقال إلا راكباً ، وقد كنت أكتب مذكراتى هـذه الساعة السابعة مساء وأنا لا أكاد أطيق قميصاً رقيقا يلامس الجسد والأمطار هنا متقطعة وأقل منها فى كوريا وفى اليابان .

السور الأعظم (سد يأجوج ومأجوج) : لقد تحقق حلم كنت أتمناه طوال السنين وهو أن تتاح لى الفرصة لزيارة سور الصين أحد عجائب الدنيا وكاد يغلب اليأس الرجاء منه لما أن رفضت جميع شركات السياحة هناك القيام بأية رحلة إليـه لأن طريقه أضحى غير مأمون وكانوا ينصحوننى ألا أذهب خشية اللصوص الذين اختطفوا سـيارة بمن فيها من الأمريكان ولم يمض على الحادث أسبوعان . لبثت حائراً ثم اعتزمت الذهاب مهما كلفنى ذلك ، وقد وفقت إلى زميل ألمانى فى النزل هو مدرس بمدرسة خريين حدثته عن السور فرغب فى زيارته — ركبنا قطار الضواحى الصغير زهاء ثلاث ساعات ، و بعد أن اجتزنا محطة نانكاو الهامة أخذ القطار يعلو فى جبال معقدة تكسوها الخضرة ، واخترق بعض الأنفاق حتى بلغتنا السور وكأنه افريز يطوق الجبال و يتبعها علواً وانخفاضاً



(شكل ١٢٠) سفينة من الرخام فى بحيرة قصر الصيف (بيكين)

إلى الآفاق . حللنا محطة السور الأعظم ، وهناك أقلتنا الحمير وسارت بنا فى وادى كأنه وادى الملوك صخوره نارية وحره قائظ أدى بنا إلى السور فاعتليناه فبدت روعته فى تغضنه وامتداده إلى الآفاق وهو يتلوى كالأفعى ، وقد لبثت أسير فوقه ساعتين والذكريات التاريخية المجيدة تمر بالخاطر فتكبر القوم تارة وتحط من قدرهم أخرى إذ كان يتجلى جبروت الإنسان وبطشه بأخيه الإنسان وتسخيره فيما لا ينفع ، وقد قرر الخبيرون أن السور أضخم عمل أنجزته يد الإنسان يفوق الهرم وحدائق بابل المعلقة وهو يطوق الصين من الشمال مبتدئاً من البحر (عند شاى هاى كواى على خليج لياوتونج) إلى ممر كيايو فى التبت وطوله فى استقامة ١٢٥٥ ميلا وبتعرجاته وشعابه ١٥٠٠ وعلوه يتراوح بين ١٥ و ٣٠ قدماً وعرضه فى أعلاه ١٥ وفى أسفله ٢٥ به ٢٥ ألف برج حربى و ١٥ ألف برج للحراسة ، وكأن الصين قد اختصت فى بناء الأسوار حتى قال بعضهم إننا لو جمعنا أسوارهم كلها لطوقنا الكرة الأرضية ، أمر باقامته الإمبراطور (شى هوانج تى) الذى اعتلى الملك سنة ٢٢١ ق . م ومحا نظام الأقطاع وقسم البلاد إلى مديريات ، وكان كلفاً بالمبانى الضخمة من بينها قصره الذى وسعت ردهته عشرة آلاف نفس ، رأى هذا العاهل مناماً أنذره أن الخطر مقبل من الشمال وقد أيد التاريخ ذلك فان



(شكل ١٢١) تمثال بودا النائم فى ضواحى بكين

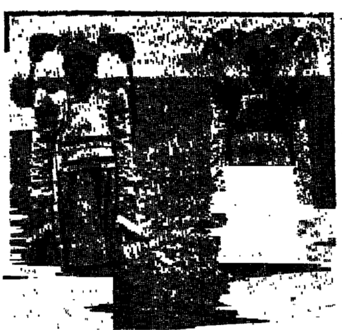
كل ما قاسته الصين من المغيرين جاء من تلك الناحية فأرغم من الناس ثلث الرجال القادرين فى الصين كلها ، وكثيراً ما عاقب العلماء وألزمهم بالعمل فى السور لأنهم ناوأوه ، وقيل إنه أحرق كتب العلم وفلسفة كنفوشيوس لما أن رأى الناس يجلونها ويكبرون العلماء أكثر من إكبارهم للبراطرة ، ويطلق القوم على السور أحياناً اسم (أطول مقابر الدنيا) لكثرة من ماتوا فى بنائه ، ولم يتم بناء السور إلا فى عهد ليو پانج من أسرة هان . وفى عهد أسرة منج دعم السور وزيد فى طوابيه ، ولعظيم هذا العمل أحاطه الناس فى جميع العصور بخرافات لا تزال عالقة بالأذهان منها أن الإمبراطور كان ساحراً ماهراً ، وكان يمتطى جواداً سماوياً اختط طريقه ، وكان له سوط سحرى استطاع به أن يزيل الجبال وينظم صرف مياه الهوانج هو ، وكان يستخدم مردة الجن فى جلب الأحجار ، ويخال البعض أن كنوز البراطرة دفنت بين طياته والكثير يعتقد أن السور أقيم سداً فى وجه الجن لا الآدميين ويؤيدون ذلك بكثرة المعبودات البشعة التى توضع على منافذ السور كلها ، ومما أثار دهشتى أن السور يختط أوعر المسالك إذ يسلك الجبال والربى العاتية وهذا يتطلب مجهود الجبابرة ، وقال البعض أن الأبراج كانت تقام أولا ثم يوصل ما بينها ، وعند ممر



(شكل ١٢٢) يتلوى سور الصين الأعظم بين ربى منغوليا المجدبة فى كامل روعته

نانكاو الذى وقفنا قبالته كان يعلو السور فوق مستوى البحر بنحو أربعة آلاف قدم ، وفى البقاع التى كانت تتهددها الرمال أقاموا سلسلة من أسوار خارج بعضها ، هو فى امتداده هذا غالب ثلاث صعوبات : الجبال الشاهقة والصحارى الرملية المجدبة ، وطبقات الأرض الهشة (اللويس) والعجيب أنى لما زرت مقبرة هذا الامبراطور فى مدافن أسرة منج رأيت الناس يقذفونها بالحجارة فخلتهم يذكرونه بانتصاره على الصخور التى أقام بها سوره العظيم ، على أنى علمت أنهم يأتون ذلك حطا من شأنه واحتقاراً له ، لأنه امتهن تقاليد أجداده وأهان العلم وأهله حتى أنهم لم يلقبوه ببانى (السد) بل بمبيد الكتب العلمية ، ويذهل المرء كيف استطاع الامبراطور أن يزود السور بالجنود لحراسته على طول امتداده ومن العجيب أنه لم يغن عنهم فى الدفاع فتيلا إذ اخترقه جنكيز خان سنة ١٩١٢ وكذلك لم يرد غارات المانشو بعد ذلك ، ولا يعزو القوم ذلك إلى ضعف فى السور نفسه بل إلى خمود الروح العسكرية بين أفراد شعوب الصين الزراعية ، على أنى لما ألقيت على السور نظرة الوداع مر بخاطرى مظهر الهرم الأكبر فبدا السور بجانبه ضئيلا لم يشعرنى بالرهبة والذهول التى يوحيها هرمنا .

قمت من پكين مودعاً تلك البلدة التاريخية الجميلة التى يروقنى أن أقيم بها



(شكل ١٢٣) تبدو صحارى منغوليا مترامية وراء السد وتلك أزياء النساء هناك

سنوات فهى أصدق ما تعطى الزائر فكرة عن الصين وأهلها ، وقد سلكت سبيلى إلى تين تسن فشنغهاى ، وكنت من قبل أعتزم الذهاب إلى هنكاو ومنها فى رحلة نهرية فى اليانج تسى إلى شنغهاى لكن هذا النهر الجبار غدر بالمدينة فأغرقها وأغار على سكة الحديد فتعطلت وسار القطار خلال أراضى (اللويس) الصفراء ذائعة الخصب تلك التى كانت تبدو فى بعض الجهات وكأنها رمال الصحراء تماماً ، ولقد تخلفت فى تين تسن يوماً كاملا فلم ترقنى كثيراً لأنها مدينة غالبها أفرنجى عظيم الامتداد آهل بالجماهير الغفيرة من صنوف شتى وهى ثغر تجارى غاص بالحركة دائب الجلبة والضوضاء .

وقد وقف القطار طويلا على تسنان فو فوق نهر الهوانج هو (الأصفر) زاخر المياه عكر اللون فى تدفق مخيف ذاك الذى عرفه القوم مبعث أشجان الصين منذ القدم لكثرة ما أصابهم وأتلف من أبنائهم ومتاعهم بسبب فيضانه الغامر المباغت على أن فيضه هذا العام كان أقل خطراً من اليانج تسى .

وهنا باغتتنا ريح صرصر كأنه اعصار (التيفون) هز أرجاء القطار ، وسرعان ما أظلم الجو وتفتحت أبواب السماء عن وابل غامر وقصف للرعد مخيف ولم تنكشف إلا بعد ساعتين ، وكنت أرى المزارعين فى الحقول يسيرون وسطها وعلى رؤوسهم مخاريط من خوص وعلى جسومهم رداء من قش منفوش يبدو كأنه الفرو الثقيل فيظهر الراجل وكأنه من مردة القنافذ المنفرة المضحكة . ضمتنى مائدة العشاء إلى

جمع من الشباب الصينى المثقف وكان يقدم لهم الطعام على النظام الصينى وعجبت لما علمت منهم أن من أحب الأغـذيه لديهم : زعانف السمك وأحشاءه ولحم الـكلاب والفـيران والضفادع والثعابين وأوكار طير الخطاف لأنها من مجموعة أعشاب مائية تروقهم كثيراً ، وأجل اللحوم لحم الخنزير فاذا سمعته يتحدث عن اللحم انصرف إليه ويعجبهم دهنه الثقيل ، وقد يشرب الرجل منـه ثلاث (سلاطين) وعند الطعام تقطع هـذه اللحوم كلها مختلطة إلى شظايا صغيرة جداً وتمزج بالحسـاء وترى الواحد منهم يتصيدها من الإناء



(شكل ١٢٤) فوق سور الصين الأعظم
(سد يأجوج ومأجوج)

بعصيه وقد يمزج الحساء ببعض الأعشاب والخضر الجافة فى غير طهى جيد والعناية بالضيف تبدو فى الاكثار له من الدهن الطافى فوق الغذاء والحساء ، ويجب أن يناوله المضيف كل ما يطلب بيديه الاثنتين وإلا عد ذلك من قلة الذوق كذلك يناوله بين حين وآخر ما يتصيده من انائه هو من شظايا اللحم ، وطعام الغنى يغلب أن يكون من الأرز والخضر والخنزير والسمك . أما الفقير فالأرز القفار وإن لم يتيسر له فالقمح أو الشعير أو الذرة أو بعض الخضر ، ويندر وجود اللحم لذلك يأكلون لحوم الحيوان الملقاة مهما كان الحيوان ، وأساس غذاء العمال (والكولى) نوع من الفول مغذ كاللحم ويختم الطعام بالحساء (عكسه عندنا) .

أما أحب أنواع الحلوى فالكريز يطفو فى عصير القصب ، والتسلى بنوى



(شكل ١٢٥) تعترض تلك البوابات غالب الطرق فى تين تسن

المشمش (واللب) شائع بين الجميع . أما الأوانى فكلها من (السلاطين) وليس للسماط ولا (الفوط) وجود قط ، وفى نهاية الطعام تقدم فوطة مبللة يمسح الجميع بها أفواههم ، وعجيب أن يشتهر طهاة الصين بلذة ما يطبخون على أنه لم يرقنى من طعامهم شىء سوى ذاك الخليط من اللحوم المختلفة . ولعل تلك الشهرة راجعة إلى أنهم يكثرون من استخدام التوابل والمواد الحريفة بالنسبة لطهاة اليابان .

تحدثت إلى هؤلاء الشبان فكانت حماستهم القومية بالغة يصبون جام غضبهم على الأجانب ، وبخاصة اليابانيين فهم الذين يفرقون بين أبناء الأمة الصينية ، ويثيرون فريقا على فريق ، ويمعنون فى اتلاف أخلاق الصينيين بالمال والنساء ويساعدهم على ذلك احتلالهم لمنطقة سكة حديد منشوريا تلك التى يهربون منها الذخائر والأسلحة للثائرين من أهل الصين على أن الحكومة الصينية الوطنية تتجه على الحالة ستوفق قريباً إلى القضاء على تلك العصابات الثائرة التى تجرى



(شكل ١٢٦) أطفال الصين يتناولون الأرز ونثير اللحم بالعصى فى مهارة دقيقة

وراء المنفعة الذاتيـة ، وهم مختلفون فى طريقة توحيد الصين ، فالبعض يرى إقامة مجموعة من حكومات مؤتلفة تكون ولايات لها ما للولايات المتحدة الأمريكية من السلطان ، والبعض يرى توحيد الصين كلها فى جمهورية واحدة لأن فى هـــذه الطريقة الآن خطر ميل رؤساء المقاطعات إلى الاستقلال والدس للغير ، ومن عقبات قيام حكومة واحدة اختلاف اللغات بين مقاطعة وأخرى ، تلك التى كان يساعدها رؤساء المقاطعات كى يتم لهم استقلالهم . ولو تم النصر للحكومة القومية أنقذت البلاد من شفا الافلاس لأن مرافقها اليوم معطلة ، وكانت قد بدأت حركة صناعية بمعاونة الأجانب ، و بخاصة الأمريكيين لكنها عطلت اليوم لأن هم الحكومة منصرف إلى التجنيد وتموين الجيوش التى تؤلف من بين الطبقات الفقيرة وهذه تتخذ الجندية مرتزقا والحكومة لم تؤت بعد السلطان الكافى فتجعل التجنيد إجباريا لذلك لا يتطوع أحد من السراة بل من الفقراء المعوزين .

اللغة الصينية : و يرى مثقفو الصين أن لغتهم غنية بآدابها فميدان الشعر زاخر والإيجاز فى التعبير إلى التعمق فى المعنى من خصائص لغتهم ، وكنت أرى

بعضهم يقرأ فى كتب الأدب ، وهو مأخوذ من شـدة تأثره بالمعانى التى يتلوها . ويبالغ بعضهم فيقول إن لهم كتباً تقرأ فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء ، فتحدث معانيها فى نفوسهم ما تتطلبه مناسبات الزمن ، والتأدب فى الكتابة أمر يراعى بكل دقة فمثلا تبدأ الكتابة هناك من اليمين فى أسطر رأسية (أما اليابانية فمن اليسار ، وقد تكتب أفقياً أو رأسياً) وإذا كان الخطاب للأبوين وجب كتابة الاسم فى أعلى الصفحة إلى اليمين ثم يترك هذا السطر كله احتراما ، وكلما ذكر اسم الأب أو خطابه فى أي مكان من سطر آخر ترك باقيه إجلالا . وهذا يجب اتباعه فى الكتابة لمن هم أكبر سناً ومقاماً أما بين الأصدقاء فيكفى ترك مسافة كلما ورد الاسم ، والهوامش تكتب فى أعلى الصفحات والتأدب فى الخطاب يراعى بكل دقة خصوصاً مع من هو أكبر سناً ومقاماً ، فمثلا يعدونه منتهى الذوق أن يجرى الحديث بين اثنين كما يلى : كم سنك المشرفة ؟ عشرون عاماً ممضة لا خير فيها — ما اسم عائلتك الموقرة ؟ عائلتى الفقيرة تسمى — ما مهنتك النبيلة ؟ مهنتى الوضيعة — كم طفلاً ماجداً عبقرياً عندك ؟ عندى كذا من صغار الحشرات . كم قطعة فضية عندك (يقصد البنات) ؟ ثلاث بائسات . ولغتهم الكتابية رسوم رمزية بسيطة كأن يرسم تخطيط يحكى الإنسان ليدل على كلمة رجل ويرسم طائر ليدل على (عصفور) وهكذا ، ثم أخذوا فى تبسيطها لكى تلائم الكتابة (بالفرشة) التى تجيد رسم الخطوط أكثر من الأقواس والنقوش ، لذلك أصبحت اليوم سهلة بالنسبة لما كانت عليه من قبل ، وللكتابة هناك شكلان عادى دارج تتصل كلماته بايات متعاقبة ، وزخرفى يكتب بتكلف وفى رونق جميل . ولغة الكتابة يفهمها جميع أهل الصين . لكن منطقها يختلف باختلاف الأماكن بحيث إذا خاطب صينى من كانتون أخاه من شنغهاى أو من بكين لم يفهم الواحد الآخر لذلك يلجأون إلى الكتابة . وفى مجلسى هذا كان أحدهم من كانتون يعرف الإنجليزية وآخر من شنغهاى ويتكلم الفرنسية وتعجب إذ تعلم أننى

أنا المصرى الأجنبى عنهما كنت أقوم بوظيفة المترجم بينهما ، على أن العجب يزول إذا علمنا أن الصين بلاد مترامية ، فكل مقاطعة تفوق مملكة أوروبية فى مساحتها وسكانها إلى ذلك صعوبة وسائل الاتصال فى تلك البلاد .

والحكومة الحالية تحاول توحيد لغة الكلام ، وقد أخذت تنشر لغة (الماندرين) فى المدارس والمصالح فهى اللغة الرسمية اليوم (وكلمة ماندرين معناها الوالى أو الحاكم) وهى أسهل اللغات الصينية مأخذاً فالشخص يكتب ما يسمع بالضبط .

أما فى سائر لغات الصين فإنك تجد لغة الكلام مطوطة لذلك وجب أن تلجأ فى الكتابة إلى التلخيص والإيجاز لأقصى حد ممكن ، وتلك مهمة لا يطيقها إلا المتعلم الكفء وقد وضعت الدولة لتلك اللغة حروفاً أبجدية عددها ٤٢ يمكن تركيب الكلمات منها ، وأعجب ما فى تلك اللغة أن حروفها وضعت لتوحد النطق أعنى أنها جمعت كل مقاطع النطق الصينى ووحدتها فى نغمة واحدة لا تحمل معنى عند الكثير منهم لأن الرموز الكتابية يفهمها الجميع

(شكل ١٢٧)
مثل من الكتابة الصينية المعقدة وهذه بطاقة تقرأ من أعلى لأسفل

والصعوبة فى اختلاف النطق ، لذلك كثيراً ما ترى سطراً من الحروف الجديدة يكتب وإلى جانبه آخر من الرموز الصينية ، ومعنى هذا أن القارئ ينطق بما تدله الحروف الجديدة (الماندرين) ويفهم المعنى من السطر الآخر ، ويخالون أنه بعد مضى وقت معين سيعتاد الناس نطقاً واحداً فتتوحد لغة الكلام . وفى الحق أن سائر لغات الصين الأخرى معقدة مجهدة للمتعلم الذى يجب عليه أن يحفظ من رموزها نحو أربعة آلاف كى يستطيع القراءة والكتابة ويزيدها

صعوبة أن الكلمة الواحدة قد تكتب على عدة أشكال لتؤدى معانى مختلفة ، فمثلا (تشى Chi) تكتب على ١٣٥ شكلا لكل واحد معنى مختلف (من معانيها الفرخ ، وادفع ، وتذكر ، وعديم البصر) وهى لغة المقاطع حقاً ، لأن كل كلمة مقطع واحد ، حدث أنى طلبت إلى أحدهم أن يكتب لى اسمى بالصينية فتريث طويلا وقطع اسمى إلى (سا بى) فى مقطعين ثم كتب الرمزين .

وحساب الشهور لديهم قمرى ولو أن الحكومة الحديثة أدخلت الحساب الشمسى ، لكن الفلاحين لا يعرفون إلا السنة القمرية ، وليس للشهور عندهم أسماء بل يحصونها بالنمر (الشهر الأول والثانى الخ) وفى الأساليب الكتابية الراقية يضعون اسم زهرة لتدل على الشهر (تقويم زهرى) وتلك الزهور يكاد يحفظها الجميع بحيث لو كتبت احداها عرف الواحد منهم الشهر الذى ترمى إليه أما تاريخ السنة فيقاس بالنسبة للحكام كأن يقال مثلا اليوم السادس من الشهر الخامس من السنة العاشرة للامبراطور فلان ، ويعرف هذا العام بالسنة العشرين للجمهورية وتحسب أعمارهم بالطريقة عينها .

كنا نتوقع أن نصل (پوكاو) على الضفة الشمالية ليانج تسى منتصف التاسعة لكنا وصلناها بعد الساعة الواحدة لكثرة مواقف الطريق بسبب نقل الذخائر والجنود وبذلك نكون قد قطعنا المسافة بين تين تسن وشنغهاى فى خمسين ساعة أما الأقليم فغنى جداً بمزارعه وسهوله وأنهاره وكنت ألاحظ تغيراً مستمراً فى لون التربة التى أصبحت هنا سمراء تشوبها حمرة بعد أن كانت فى حوض الهوانج هو صفراء كأنها رمال الصحراء المجدبة على ما بها من خصب شديد ، وكان المنظر كله مصرياً ، أما غالب القرى فأكواخ من اللبن أهلها قذرون تبدو عليهم علائم الفاقة ، وغالب الأراضى ملك لطائفة من الأغنياء يحلون المدن الكبرى ، وكان القوم فى قذارتهم يعرضون المأكولات من فاكهة وبخاصة الخوخ الكبير الحجم والتفاح والبرتقوق والكمثرى والبطيخ كذلك الدجاج المشوى فى لون أحمر



(شكل ١٢٨) الدكتور سن يات سن زعيم النهضة الوطنية

وحجم كبير ، و بعض أنواع من عجين أبيض يتهافت القوم على التهامه وعجبت لرخص المبيعات إذ كانت الدجاجة تباع بقرش واحد ، وكانت غالب السهول حول القطار غارقة فى لجة تحصر المياه بيوتها وقراها التى كانت تبدو وكأنها الجزائر الصغيرة ، غدر بتلك المسائح الشاسعة نهر اليانج تسى هـذا العام فأغرقها فأضحى الملايين بدون مأوى وكنا نمر عليهم يتزاحمون بفلول متاعهم إلى الجسور وجوانب المحاط فى شكل يؤلم الفؤاد ، وقد فتحت الحكومة لهم اعتماداً بثلاثين مايون جنيه للانفاق على أعمال الإنقاذ ، وقد أضحى اليانج تسى إلى ٦٠٠ ميل من مصبه بحراً خضما لا شاطىء له وقد أصاب أبلغ الضرر منطقة هانكاو حيث علا الماء ٥٢ قدماً و يقال إن فيضه هذا العام لم يقع مثله منذ خمسين سنة .

وصلنا پوكاو فبدت مدينـة أشبه بمدن المراكز عندنا ثم أقلتنا السابحة عبر اليانج تسى الخضم المائج بمائه الدافق العكر واتساعه الذى يفوق النيل بكثير ورسونا

على ضفته الجنوبيـة فى نانكنج القديمة ، وما كدنا نبرح السابحة حتى بدت صفوف الركشا وهى غارقة وسط الماء إلى نصف ارتفاعها ، وأنى لى أن أصف لك موقفى وأنا أركب الركشا يجرها رجل يخوض فى الماء إلى وسطه ، وهى تتمايل يمنة و يسرة فى اضطراب مخيف ورشاش الماء لا بل وموجه يضرب فى أقدامى وحقائبى حتى أتلف لى منها الكثير ، ولبثنا نجوب شوارع المدينة على هـذا النحو ، والمياه تكسو الطابق الأول من الدور والحوانيت إلى نصف قامة الرجل بل و يزيد ، والمدهش أنها كانت مفتحة ، وحركة البيع والشراء قائمة فى نشاطها العادى والناس يروحون و يغدون خوضاً وهم مستسلمون لقسوة اليانج تسى ، و بعـد أن اجتزت سور المدينـة القديمة قصدت نانكنج الحديثة (ومعناها العاصمة الجنوبية) وهى عاصمة فاخرة تكاد تشبه شنغهاى وقسم كبير منها أوربى ، ولعل أجمل ما بها مدفن الدكتور سن بطل الجمهورية ومعبود الوطنيين ، فهو يقوم فى بناء من رخام تأخذ روعته بالألباب ، على أن القوم كانوا يحرمون التصوير هناك بتاتا ولم أدر الحكمة فى ذلك ، ومن آثارها القديمة القيمة برج من خزف أبيض (باجودا) جميل ثم دار الامتحان التى كانت تتسع لعشرين ألف طالب ، وحائط المدينة الذى يتصل بالحائط القديم .

الى شنغهاى (ومعناها على البحر) : قمت إليها فوصلها القطار فى ثمـان ساعات ، وتلك هى المرة الثانيـة التى أزورها لأنى حللتها أولا بطريق البحر فى طريقى إلى اليابان ، وقد رست السفينة بها ثلاثة أيام وأذكر أن السفينة ظلت خارج الميناء طويلا تنتظر ارتفاع المد فبدا على بعد إلى يميننا مصب يانج تسى الذى يخاله المرء بحراً لا تستبين شواطئه ، وتبدو أمامه جزيرة مستطيلة وسط مائه العكر الذى كان يحكى ماء النيل إبان الفيض بعد ذلك دخلت السفينة فرعاً يتصل به من الجنوب اسمه هوانج پو ، وهو وحده يفوق النيل اتساعاً ، وقد أقيمت أرصفة الميناء على ضفتيه مسافة قطعتها السفينة فى ساعتين . وهو يلاقى اليانج تسى وراء شنغهاى

بنحو ١٣ ميلا . أما الميناء فصاخبة تكاد تغص بجماهير السفن على اختلاف حجومها وجنسياتها ، وقد أذكرتني في منظرها العام بثغر روتردام تماماً ومشهدها ونحن مقبلون عليها يحكى بلاد مصر في انبساط السطح الذى لا تكاد نرى للربى فيه من أثر إلى ذلك الخضرة النضرة التي تمتد إلى الآفاق .

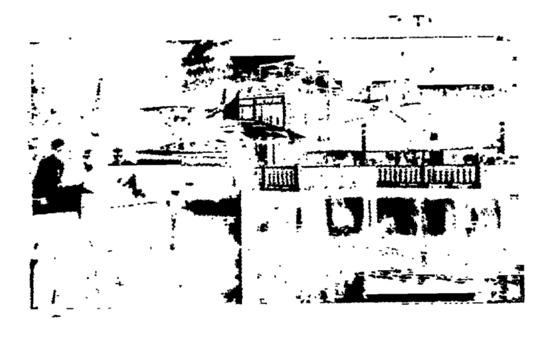


(شكل ١٢٩) سيدة من المانشو في الزى الصينى

بدأت جولاتى فى الأحياء الأفرنجيــة ودوائر النفوذ الأجنبي ، وهى قسمان رئيسيان القسم الفرنسى (French Concession) والبوند أو شارع البحر الذى يشمل غالب الجاليات الأجنبية ، وأكبر الجاليات الأجنبية هناك اليابانيون ثم الروس ثم الانجليز والفرنسيون ، وتلك الأحياء عظيمة رائعة البناء بالغــة النظافة والتنسيق تحكى أكبر المدن الأوربية بل تزيد حسناً ، ولعل أكبر الشوارع (نانكين رود) . وشارع (جوفر) ، والبوند ، وهى مراكز الحركة التجارية والمالية ، وكنت أرى البوليس هنا من أجناس عدة . الهنود فى الأحياء الانجليزية ثم الفرنسيون فى الفرنسية ، وهكذا على أن البوليس الصينى كان يجانبهم دائماً ، والحركة فى الطرق تسير على أحدث النظم التى فى باريس ولندن ، ووسائل النقل متعددة وجلها فى أيدى الأجانب من ترام وأوتوبيس ذى طابقين هذا إلى الركشا

التى تملأ الآفاق أما (التاكسى) ففى حظائر خاصة وعليك أن تسير إليها طلباً للسيارة إن أردتها ، وترى فى أرصفة الميناء فى قبالة تلك الطرق الرئيسية البوارج الحربية لكافة الدول الأجنبية ، وهذا لا شك مما يجرح كرامة الصين وتتألم له كثيراً والحكومة الجمهورية القومية جادة فى التخلص منها ، ومن دوائر النفوذ الأجنبى وامتيازاتها ، وإن كان الأجانب يرمون الصين بعدم الكفاءة فى مباشرة ذلك بنفسها .

قصدت الأحياء الوطنية من شنغهاى ، وهى بقايا المدينة القديمة المسورة ، ولن أستطيع أن أصور مبلغ سرورى واغتباطى ، وأنا أسير بين أزقتها التى تحكى خان الخليلى عندنا ، وتكاد تختنق بلوحات الاعلان المتلاصقة التى تزينها بقع ملونة من الخط الصينى الواحدة تحت الأخرى ، وهناك تعرض مصورات البلاد الفنية من تصوير وخرط وترصيع وخيزران ونحاس زخرفى ، ومصابيح من ورق صينى ملون ، وفى كل تلك الطرق ترى الجماهير الدافقة متلاصقة متكاتفة فى مظهرهم الصينى البحت ، عيون منتفخة وخدود ناتئة وأنوف نصف فطساء وأفكاك بارزة وقامات قصيرة وشعر أسود حالك هادل . أما الهندام فالأغنياء والمتوسطين متشابه ، وكذلك للرجال والنساء وإن كان هندام الرجال أكثر جاذبية والرداء قطعتان سروال يربط فوق العرقوبين ، وهو للنساء أقصر قليلا لكى يظهر جمال الأقدام الصغيرة المشوهة ! وتعلوه شبه جمازة (جاكتة) قصيرة ، وفوق هذين جلباب فضفاض طويل الأكمام مفتوح من جانبيه إلى ما تحت الساعد ويشتبك طرفاه بالأزرار وله ياقة عالية تأخذ بمخنقهم رجالا ونساء ، ويغلب أن يكون من حرير ثمين للأغنياء ، وتطوى أطراف الأكمام لتقوم مقام الجيوب ، وإلا حمل أشياءه فى منديل قد يتبعه به خادمه . أما الأحذية فمن قماش لا يقى القدمين شر الرطوبة ، ولعلها اختيرت كذلك لكيلا تشجع على المشى الذين يعدونه عيباً يلحقهم إليه العوز ، وغطاء الرأس قلنسوة من حرير . أما الفقراء فرداؤهم كأنه



(شكل ١٣٠) فى ناحية من مقصف الشاى فى شنغهاى وإلى اليمين قنطرته الملتوية

البيجاما الفضفاضة من قماش أسود لامع كالجلد ، وقبعاتهم كأنها أطباق الخوص المخروطية المسننة .

دخلنا مقصف الشاى المشهور عنـد الأفرنج يرجع إلى خمسة قرون مضت ، وهو مجموعة من مقاصير الخشب تكسوها السقوف الصينية بأركانها المدببة تتقوس إلى السماء ، وهو يقع وسط بحيرة شاسعة نصل إليه بقناطر تسير فى خطوط متكسرة إلى اليمين واليسار لـكى تدفع عنهـم غوائل الجن الذين كانوا ولا يزالون يخشونه كثيراً ، والمقصف غاص بالحركة مائج بالناس ، وهم منكبون على تناول الشاى الصينى الأخضر ولا أثر للسكر فيه ، جاسنا وشربنا ذلك الشاى الذى استمتعنا به و بتلك الجلسة رغم أن المـكان تعوزه النظافة ، وهنا شعرنا بالحياة الصينية التى تغاير حياتنا فى مصر كل المغايرة .

وإلى مقربة منه زرنا معبدين أحدهما لبودا والآخر لكنفوشيوس وهى مظلمة الداخل تضاء بها مئات القناديل و يطاق البخور حول تماثيل بودا ، تحفها تماثيل حفظته من المردة والتنين شعار البلاد وقد أحرق القسيس لأجلنا سلسلة من أوراق

مالية زائفة فداء للآلهة ثم أطلق حزمة من بخور وناولنا إحداها تبركا لأنها تطيل العمر وتسعد الطالع ، ورأينا هناك امرأة تصلى للتمثال وهى راكعة ، وراحتاها متلاصقتان تسير بهما إلى الآلهة وتعود فتضمها إلى صدرها وتسجد مراراً وهى تتمتم وهناك مقصورة يؤمها النساء اليائسات من الحمل كى ينفك عقمهن .

ثم انتقلنا إلى حديقة الماندرين أحد الحكام الأقدمين ، يتوسطها قصره فى الخرط الصينى العجيب ، وبه مقصورة للاستقبال وأخرى للمائدة . بجانبها مقعد لتدخين الأفيون الذى كان أساساً فى كل بيت وثالثة للنوم وكثير غيرها كلها تقوم وسط النقائع تغص بالسمك الملون والصخور المنثورة وكأنها الجنادل والمنحدرات إلى شجر مزهر جميل ، مما يدل على حياة البذخ التى عاشها أولئك الجبابرة ، وفى خارج المدينة تقوم (باجودا) هائلة فى طبقات سبع لا تزال من آيات الصين القديمة .

وشنغهاى أثناء الليل تبهر النظر وتثير الدهش من عدة وجوه ، فالأضواء والثريات ذوات الألوان الخاطفة تظل مشرفة وضاءة طوال الليل وهى فى إشراق كبير ، فواجهات الأبنية الضخمة تنقشها تلك الثريات فى أشكال هندسية متباينة حتى فى طرقها المختنقة ، وعجيب أن تظل الحوانيت مفتحة ، وحركة البيع والشراء قائمة إلى ساعة متأخرة من الليل ، قد تكون الثانية عشرة ، أما الجماهير الدافقة من كل صوب فى كثافة تعيق السير فى كل الطرقات ، فذلك أمر لم أره فى بلد قط حتى ولا فى باريس نفسها ، وكان يخيل إلىّ أن رواد الشوارع ليلاً أكثف منهم نهاراً رغم شدة التزاحم فى المدينة صباح مساء ، وكلهم سائرون وكأنهم البحر المائج وقد لبثت أجوب تلك الأنحاء إلى الثانية صباحاً ، ولما تخف كثافة الجماهير ، أما ابتذال النساء فحدث عنه . فهو يبدو فى شكل مروع بين أجنبيات — وبخاصة الروسيات — ووطنيات . كل تلك المظاهر جعلتنى أفهم أن للقوم الحق أن يطلقوا على شنغهاى اسم (باريس الشرق) فهى تفوق فى ذلك (باريس الغرب) ،



(شكل ١٣١) أمام حجرة تدخين الأفيون
فى القصر القديم لحاكم شنغهاى

ويلفت النظر بوجه خاص ميلهم جميعاً للاختلاف إلى المراقص التى لا تحصى بين أجنبى وصينى. وقد دخلت مرقصاً صينياً، وهنا تجلى التناقض التام والتصادم بين القديم والحديث فالموسيقى تدق أنغاماً أوربية، والصينيون يخاصرون الصينيات ويعاقرون الخمر وهم يلبسون جلابيبهم الفضفاضة التى تحكى (القفطان)، فصور لنفسك منظر شيخ معمم يخاصر غادة ويراقصها! وهؤلاء هم بالطبع النشء الثائر على الرجعية القديمة، ولو أنى أرى فى ذلك كثيراً من التطرف الممقوت، ويظهر أن عدوى الأجانب وبخاصة أباحيى روسيا من جهة والحروب الأهلية التى بدأت منذ زمان بعيد من جهة أخرى، هذا إلى تذوق شعب رجعى عتيق لحرية العصر الجمهورى، كل ذلك كان سبب ذاك الاندفاع الشائن فى تيار المجون.

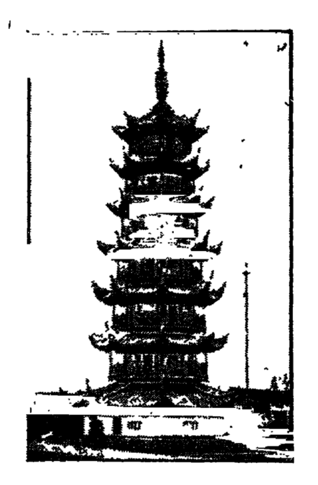
ومن الأندية الكبيرة التى تجمع بين الألعاب الرياضية والمراهنات — تلك التى يتكالب عليها أهل الصين بمختلف أنواعها — مكان اسمه (أوديتوريوم) لشاب أرمنى الأصل مصرى الجنسية، يدر عليه ربحاً طائلاً وهو يوظف فيه جمهوراً كبيراً من هواة الرياضة، وقد حذا حذوه كثير من المصريين أصحابه، وما كنت أتوقع أن أسمع عن مصرى يغامر بنفسه وماله فى مثل تلك المنشآت

فى أقاصى الأرض ، وهذا الشاب (هايج أسديان) مهذب منقف كان من أساطين الرياضة فى مصر وظل زماناً بطل الملاكمة عندنا وهو من كبار مشجعى الحركة الرياضية اسمه يرن فى أرجاء شنغهاى و يعرفه الجميع مما جعانى فخوراً أن من المصريين من بدأ يطلب العمل (ولو فى الصين) .

أما قيمة شنغهاى التجارية فعظيمة فهى العاصمة التجارية للصين والمصرف الطبيعى لغلات اليانج تسى أغنى أحواض الصين ، وأكثفها سكاناً ، ويزيد عدد قاطنيها على مليون ونصف ، وهى بلدة حديثة العهد إذ كانت قبل سنة ١٨٤٢ مرسى صغيراً لخفاف الزوارق ، على أن مرفأها عرضة لأن تطمره الرواسب من النهرين لذلك تطلبت التطهير على الدوام ، وقد كابدت باخرتنا طويلاً من قلة العمق حتى أمنت الوقوف على الشاطىء ، وقد أقام القوم سداً عند تلاقى النهرين كى يحول جزءاً من تيار يانج تسى ورواسبه الكثيفة إلى البحر مباشرة بدل أن يسيل إلى هوانج بو فيسد الميناء .

وقد كنت ألمس الكساد التجارى من أثر الأزمة الحالية إذ كانت المبيعات تعرض بكافة الطرق و بأثمان بخسة : خذ مثلاً الحرير الذى كان يباع المتر من أنواعه الجيدة الجذابة بما بين خمسة قروش وعشرة ، ومما زاد الأزمة سوءاً هنالك إهمال الزراعة فى السنوات الأخيرة وهى مورد تسعين فى المائة من الناس لأن المنتجين أصبحوا غير آمنين على إنتاجهم فآثروا إهمال الأراضى ، إلى ذلك كثرة طغيان مياه الأنهار وتوالى القحط ونزول سعر الفضة . وهى أساس عملة الصين و بخاصة بعد أن فكرت الهند فى العدول عنها إلى الذهب فباعت مقادير كبيرة منها للصين فكان ذلك من أسباب انحطاط سعرها هناك ، يضاف إلى ذلك الأثر السىء للحرب الأهلية التى أثقلت كاهل البلاد بالنفقات ، ودعت إلى إهمال الإنتاج ، وزاد الحالة سوءاً عدم اطمئنان الـمـراة على أموالهم لذلك نقلوها إلى بلاد الشواطىء فتكدست هناك ، كذلك أوقف المموّلون الأجانب ارسال فوائد أموالهم إلى بلادهم كيلا يخسروا فرق التبادل

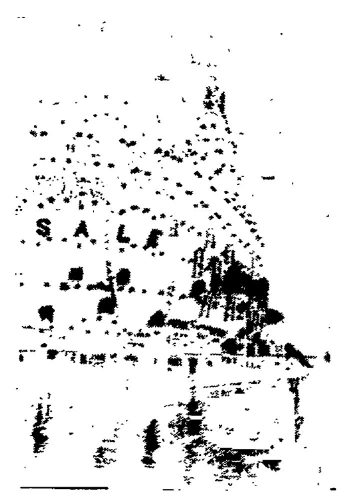
بسبب نزول قيمة النقد الصينى ، كل ذلك زاد فى تكدبس الأموال فانحطت الفائدة وضوعف نزول قيمة النقود الفضية حتى كان الريال يساوى أربعة قروش ونصف .



(شكل ١٣٢)
مثل من الأبراج الصينية الفاخرة فى شنغهاى

الى هنج كنج (ومعناها النهر العطر) : قمنا مودعين شنغهاى تلك البلدة التى يسميها بعض الأجانب بحق (مدينة الشيطان) أو (مدينة الهوى) لما حوت من مختلف الملاهى وشائن المفاسد إلى الجلبة والضوضاء التى لا تخبو ليلا ولا نهاراً . أقلت السفينة على هنج كنج فى أقل من ثلاثة أيام ، وفى صباح اليوم العشرين من أغسطس اكفهر الجو وباغتنا بالوابل وماج المحيط الهادى فأوجس الجميع خيفة عواصف بحار الصين ذائعة الصيت تلك التى ترفع من مياه البحر عمداً تتصل أطرافها بسحب السماء الدكناء فتعبث بالبحر وما يشقه من سفائن ، ولقد أبرقنا اللاسلكى فى الغداة نبأ السفينة التى أدركتها (بعد أن أفلتنا نحن منها) إلى الشرق منا على مقربة من جزائر الفابين فأغرقتها ، وأمثال تلك العواصف التى يسميها القوم (تيفون) يزيد هبوبها فى ذاك الفصل . تجلت هنج كنج فى صخرة سامقة كثيرة التعاريج يوغل البحر فيها بألسن لا حصر لها تحوطها الربى الخلابة بكثرة نبتها نسقت على جوانبها الأبنية الفاخرة فى مدرجات بديعه وتعلو كثيراً من جوانبها الحصون المنيعة . وتقوم المعسكرات العاتيه ، ويقابل الجزيرة

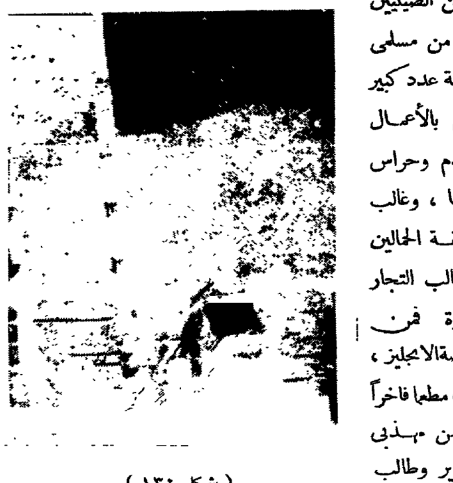
من الجانب الاسيوى حى كاولون ، الذى أرغمت الصين على تركه للانجليز ، ثم يليه من الداخل أقليم كانتون الصينى ، والبوغاز بين الجزيرة والقارة هو المرفأ الممدود عظيم الأرصفة نظمت على جوانبها المراسى ، وقد زودت بالروافع والقضبان تنساب فوقها عربات النقل تسهيلا للتجارة ، وحركتها صاخبة لا تخبو قط ، وهى تعد من أجمل مين العالم وأمنعها موقعاً وأوفرها تجارة إذ تناهز متاجرها أربعة عشر مليوناً من الأطنان كل عام ،



(شكل ١٣٣)
الأضواء الخاطفة ليلا فى شوارع شنغهاى (باريس الشرق)

وغالب الجانب الاسيوى للوطنيين تقابله المبانى الممتازة على مدرجات الربى التى تتألف منها جزيرة هنج كنج الكبيرة وتوابعها ، طفنا بأرجاء المدينة وكأنها من كبريات بلدان أوربا بالغة النظام والتنسيق غالب طرقها يعلو فى منحدرات قد نصعدها فى درجات عديدة اعتلينا أهمها إلى ترام هوائى (فونكاير) إلى ١٢٠٠ قدم ثم أخذنا نسير صعداً فى طرق ثعبانية سريعة المنحدر تنقلنا من ربوة إلى ربوة ، وفى الذروة محطة لاسلكية هامة تحوطها الحديقة التى حوت مجاميع قيمة من النبات وأعلى ذروة فى الجزيرة تسمى (جبل فكتوريا) وفى أسفلها يشرف على البحر جمع من تماثيل عظماء الانجليز ، وفى مقدمتها الملكة فكتوريا ،

وسكان المدينة من الصينيين وأجناد البوليس من مسلمى الهنود ، وفى المدينة عدد كبير من الهنود يقوم بالأعمال الوضيعة ، كالخدم وحراس المنازل وما إليها ، وغالب الصينيين من طبقة الحمالين (الكولى) أما غالب التجار وأصحاب الثروة فمن الأوراسيين وبخاصة الانجليز ، أذكر أنى قصدت مطعما فاخراً ومعى زميلان من مهذبى الهنود صحافى قدير وطالب يقصد إتمام تعليمه فى أمريكا وما أن أبصر صبية النزل بالهنود حتى صاحوا يرفضون دخولنا إذ لا يباح دخول الهنود احتقاراً لشأنهم فخرجنا نجرر أذيالنا ولم أستحسن تركهما لأتناول الطعام وحيداً ، فقصدنا نزلا آخر هو أدنى أبهة من الأول ، وكدنا نصادف المعارضة بعينها لولا أن ألحفنا فانتحوا بنا ركناً قصياً عن الآكلين كيلا يرانا أحد . واعتذروا لنا بأن لديهم من الأوامر ما يمنع دخول الهنود . فقال زميلى الصحفى وهو يتحسر : أرأيت كيف يعاملنا الأجانب فى بلادنا ! وعيناه تذرفان الدموع .



(شكل ١٣٤)
تقف السفينة بنا فى مياه هنج كنج ومن ورائنا صخرتها الشهيرة

وجو هنج كنج متوسط الحرارة غزير الأمطار التى لم تكد تنقطع زهاء الثلاثة الأيام التى أقمتها بها ، وإن أنس لا أنسى منظر الربى الرائع إبان الليل

فكأنه برج سماوى بثرياته الوضاءة تنتشر على جوانبه فى غير حصر ، وكنا نعجب للكثير من السكان الذين يقطنون زوارقهم حتى قيل إن نحو خمسين ألفاً يعيشون فوق الماء فى كانتون وهنج كنج ، وفى مؤخر الزورق قبو من خشب أو قش ينامون فيه ويعدون طعامهم وترى الأطفال الذين لا يكادون يستقيمون على سوقهم كل يمسك بسنارته أو بسلة من شباك الخيط يدلى بها إلى اليم وسرعان ما يقيمها وبها قنصه من السمك وهو غذاؤهم الرئيسى ، وتلك المدينة كسائر بلاد الصين مكتظة بالسكان إذ لا تزيد مساحتها على ٣٥٦ ميلاً مربعاً ، لكنها تؤوى من السكان ٦٦٢ ألفاً . احتل الإنجليز الجزيرة سنة ١٨٤١ ثم ضمت لها منطقة (كولون) سنة ١٨٦٠ وزيدت مساحتها حتى اتصلت بكانتون .

وعجيب أن تمون أرضها الفقيرة جرانيتية التربة هذه الجموع الغفيرة ، وعاصمة المستعمرة مدينة فكتوريا التى يطلق عليها اليوم هنج كنج ، وسكانها وحدها ٣٤٠ ألفاً تتوجها قمة فكتوريا وعلوها ١٨٢٠ قدماً ويدير حكومتها حاكم عام ويعاونه مجلس تنفيذى من تسعة ومجلس تشريعى من أربعة عشر ، وللمستعمرة نقودها الخاصة وإن كانت تتبع نظام النقود الفضية ، ولذلك كان سعر عملتها قد هبط هبوطا مروعاً كسائر بلاد الصين ، وذلك من حظ الزائر الأجنبى لأنه يجد الحياة هناك رخيصة جداً ، وهنج كنج كلمة معناها الماء العذب أو النهر المعطر لكثرة مسايلها الدافقة فى خوانق متلوية ، وكان يسميها البرتغاليون قديماً (لادرون) أى جزائر اللصوص لما كان لأهلها من سمعة سيئة فى القرصنة إذ ذاك .

وهذا هو المكان الوحيد الذى استطاع الفرنسيون أن يدخلوا منه بلاد الامبراطوريه السماوية ، كما كانت تسمى الصين من قبل ، تلك التى ظلت محوطة بالأوهام والأسرار والأقاصيص التى زادت البلاد ابهاماً ، وكانتون التى تواجه هنج كنج أكثف سكاناً منها مليون ونصف . وهنا بدأت ثورة الصين ضد

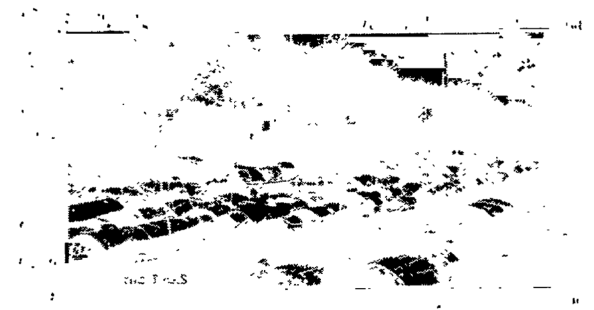
نظمها القديمة فطرد حكام المانشو وبدأت الجمهورية الحديثة هنا لأن أهلها أقل رجعية من سكان الشمال .



(شكل ١٣٥) فى ميدان فكتوريا بهنج كنج

قمت من هنج كنج مودعاً بلاد الصين تلك التى عرفت بشدة تمسكها بالقديم إذ يوقنون أن أجدادهم بلغوا الكمال كما أيد كنفوشيوس لهم ذلك ، فالأسلاف هم المثل العليا عند الصينى لذلك قعد عن التجديد وخمد عقله وعجز عن استثمار أرضه الخصبة تلك التى تركت تحت رحمة الفيضانات تارة والجفاف أخرى وأسرف فى قطع الغابات حتى عراها عما كان يقيها شر التقلبات المناخية هناك ، ونظام العائلة هناك يبنى على الرهبة ، فالرباط العائلى توثقه التقاليد والدين والقانون لحد جعل الاخلاص للعائلة دون غيرها واجباً وقد قضى هذا على التعاون بين العائلات فلم يحدث فى تاريخ الصين أن أبناءها تعاونوا مرة على إصلاح بلادهم فى أية ناحية ، ولذلك ثبتوا عند تأخرهم القديم ، ولعل أسوأ أثر لتلك العزلة وذاك النفور بين العائلات قتل الشعور الوطنى إذ لا يضحى الصينى صوالح عائلته الخاصة فى سبيل الصالح القومى العام ، ولهذا لا تعطف مقاطعة هناك على غيرها من جاراتها قط مهما أصابها من نكبات ، ولم يؤلفوا جبهة متضامنة ضد المغيرين والمعتدين سواء من الداخل أو من الخارج (وهنا الفرق الرئيسى بينهم وبين اليابانيين) فالعائلة أساسها الأب ، وهو شبيه بالآله سلطته لا تعارض حتى لقد كان من حقه بيع

أولادهوقتلهم ، أما الأم فـكمية مهملة ليس لها على أولادها سلطان و بخاصة الذكور حتى إذا شب الولد لا يستمع إلا لأوامر أبيه . أما البنت فمضطهدة بائسة ، لذلك لا يسأل الوالد أذكراً رزقت أم أنثى بل : أدرة أم طينة ؟ والزواج هناك مبكر جداً ، والعزوبة تكاد تكون معدومة لأن البقاء هكذا جريمة اجتماعية فى ظنهم ، والقاعدة الزواج من واحدة لكن للزوج الحق فى اتخاذ ما شاء من الخليلات على قدر ثروته فكلما كان غنياً فاخر بكثرة محظياته و بيوته التى ينفق عليها ، وكثيراً ما نرى من السراة من يحوز عشر نسوة ومن بينهم رئيس الجمهورية الحالى ، والزوجة الرسمية يدفع لها مهر بنسبة ثروتها ومتوسط المهر مائتان من الجنيهات ، و إذا ما دخلت بيت زوجها دفعت مبلغاً مساوياً له و يتسلم الزوج المبلغين لاستثمارهما ، والعادة أن العائلات الكبيرة ترفض أن تعطى فتياتها كخليلات مهما كان مركز الزوج ، وأقل ما يدفع مهراً للخليلة مائة جنيه ، وكنت أعجب من شبانهم حتى المثقفين وهم يتكلمون عن الخليلات وكأنه أمر طبيعى ، و بعضهم يؤثرهن على الزوجة لأن فيهن شيئاً من الحرية والتجديد وضمان النسل الكبير ! والعادة أن الزوج إذا مات لا تتزوج أرملته بل تظل طول حياتها . أما الزوجة فان ماتت فللزوج أن يتزوج من غيرها ، والميراث يقسم بالتساوى بين الذكور من الأبناء سواء فى ذلك أبناء الزوجة الشرعية والخليلات ، أما النساء فلا يرثن إلا إذا أوصى الأب بغير ذلك ، والزوجة خادمة لزوجها ولأمه ، ولا يتحسن مركزها إلا إذا وضعت ذكراً فان خلفت أنثى فياويلها ، والمرأة العقيم يجوز طلاقها و إلا تبنى الرجل أحد أقربائه ، ولا يتنزل الزوج فيجلس مع زوجته وأولاده إلى مائدة الطعام رغم ما لهذا من الأثر فى تربية النشء ، كذلك لا يجوز أن يأكل الإخوة مع الأخوات إذا بلغوا السابعة ، و إذا أحصى رب العائلة أفراد أسرته أهمل عدد الأناث ، ونساء الطبقة الراقية محجبات لا يخرجن إلا محمولات على (الكراسى المعلقة) ويخال البعض أن ذلك راجع إلى عادة تصغير الأقدام التى تعيقهم عن



(شكل ١٣٦) تغص أنهارهم وقنواتهم بزوارقهم التي يتخذونها مساكن لهم

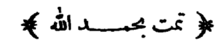
السير ، وعند ما يرزق أحدهم بمولود يطلق البخور أمام الدار ، وتعلق علامة خاصة ثم يدثر الطفل بثياب آبائه لمدة شهر لكى تتسرب إليه فضائلهم ، وبعد الشهر يحلق شعره ويلبس ملابسه الحمراء ، ويؤخذ رأى المشعوذين فى اختيار طالع سعيد وعندئذ تقام وليمة يقدم فيها النبيذ والبيض المخضب باللون الأحمر إذا كان المولود ذكراً ، وترسل لكل مدعو بيضة حمراء وعلى المدعوين تقديم الهدايا والنقود ، والعجب أن الطبقات الفقيرة التي لا تكفيهم مواردهم أن تمون عائلة كبيرة يتخلصون من بناتهم ، وهناك خارج القرية يقوم شبه برج على ربوة يضع الرجل فوقه طفلته ويتركها فيجيء الآخر ويلقى بها إلى داخل البرج لتموت ، ويضع هو طفلته مكانها وبذلك لا يقتل الرجل بنته بل طفلة غيره وهكذا ، وقد اعتاد الخيرون من أصحاب الملاجيء أن يمروا بتلك الأبراج وينقلوا ما يجدون من الأطفال إلى الأديرة لتربيتهن .

والصيني قد خلف فيه فقره وتوالى النكبات عليه الأنانية والفساد والقسوة ، وهو يرى فى كثرة الموتى بسبب الأوبئة أو النكبات مخففاً لويلاته ، وقد علمت أن نسبة الوفيات فى الأطفال هناك ٥٠٪ ، وعدد من هلكوا بسبب الحروب

الأهلية الحالية عشرون مليوناً ، لذلك شذ عن اليابانى فى أنه فقد روح التعاون اللهم إلا فى التجارة تلك التى يحتكرها عدد من الشركات التى يناهز عددها مليوناً ونصفاً ، وهى تتفق على تحديد الثمن الأدنى . أما الحد الأقصى للثمن فيترك لمهارة البائع .

وكثيراً ما يتساءل الناس كيف لا تفى مساحة الصين الشاسعة التى تعادل مساحة أوربا بحاجة أهلها ، وهى ذات التربة الخصبة والأنهار العظيمة والأيدى العاملة المتعددة التى تقدر بربع سكان المعمورة والكنوز المعدنية الوافرة التى قيل إن الفحم وحده بها يفوق فحم انجلترا عشرين مرة ، كل ذلك ولا تستطيع تلك البلاد تموين أهلها مع أن أوربا وهى أكثف سكاناً وأصغر مساحة تمون شعوبها الغنية المعروفة ، ويظهر أن السبب راجع إلى خمول الصينى رغم ما عرف عنه من صبر عظيم فهو ظل متمسكا بوسائل الانتاج القديمة فى الزراعة وأضحت بلاده حقلا للارز فحسب مع أنهم أحصوا بالبلاد نحو ١٢ ألف فصيلة نباتية ، ولم يعن بالصناعة التى يحتقرها الجميع لأنها عمل يدوى دليل الامتهان لديهم وهى دعامة النهوض والغنى فى أوربا وأمريكا واقتنع الملايين منهم بمزاولة مهنة (الكولى) للحمل وجر الأثقال تلك الأيدى التى لو تضافرت على عمل منتج لأتت بالمعجزات إلى ذلك عنايته بالماضى ، فهو يبذل كثيراً على مقابر أجداده ونعش والديه فحياته تفكير مستمر فى الموت ، وساعد على هذا التأخر نظام الطبقات ، فالممتازة المحترمة لديهم اثنتان فقط : الحكام والأدباء ، ولا يزال الجاهل يحتقر نفسه ويقدس المتعلمين ، وهؤلاء هم الأقلية ، لذلك فقد الرأى العام هناك لأن السواد الأعظم هم العامة والجهلة وانعدمت الطبقات الوسطى رغم أنها خير كابح فى البلاد الأخرى لطغيان الطبقة الارستقراطية ، لذلك كان لهاتين الطبقتين امتيازات يعترف بها الجميع ، وهم يحتقرون العامة ويترفعون عن محادثتهم ، وكثيراً ما ركب معى أمثال هؤلاء فى القطار يحوطهم

جمع من الأتباع الذين يخضعون لهم خضوعاً شائناً ، وكانوا يصدرون لهم الأوامر فى صيغة الاستعباد الشائن ويصعرون لهم الخد ولا يسمحون بابتسامة لأولئك البائسين ، ودهشنا مرة لما رأينا أحدهم يمسح لسيده وجهه بقطيلة (فوطة) مبللة ونحن فى القطار وهو لا يكاد يتحرك تيهاً وعجباً ! فعلى تلك الطبقات الممتازة تقع مسئوليـة تدهور البلاد ، لأنهم بترفعهم طوال السنين عاونوا ذاك التأخر الذى أضحى مضرب الأمثال .



فهرس الكتاب

صفحة		صفحة	
مقدمة الطبعة الأولى	٣	سلطنة جوهور	٧٦
« « الثانية	٤	اليابان (نبذة تاريخية)	٨١
الهند (نبذة تاريخية)	٥	كوبى	٨٤
إلى عدن وأرض سرنديب ...	٨	إلى يوكوهاما	٩٧
عدن	١٠	كاما كورا	٩٨
جزيرة سرنديب	١٢	طوكيو	١٠٠
إلى كاندى	١٤	إلى نكو	١١٢
إلى الهند...	١٧	إلى ها كونى	١١٨
مدراس	١٩	إلى كيوتو	١٢٤
إلى كلكتا	٢٤	أمانوهاشداتى	١٢٨
إلى دارجيلنج	٣٢	إلى نارا	١٢٩
بنارس كعبة الهندوس	٣٤	إلى عادى أيسى	١٣٠
إلى دلهى...	٤٠	إلى أوزاكا	١٣٤
إلى أجرا	٤٧	النهوض الصناعى	١٤١
إلى بمباى	٥٢	خطر السكان	١٥٢
البقر المقدس	٥٥	الخلق القومى والنظام الاجتماعى	١٥٧
عبر الدكن	٥٨	إلى شيمونوزيكى	١٦٨
الطبقات والمنبوذون	٥٩	كوريا	١٧٠
عود إلى مدراس	٦٤	سيول	١٧٣
خاتمة	٦٨	إلى منشوريا	١٧٥
الملايو (سنغافوره)	٧٣	مكدن	١٧٧

الصين (نبذة تاريخية) ١٨٠
إلى بكين ١٨٤
معبد كنفوشيوس ١٨٨
معبد السماء ١٩٣
معبد الزراعة ١٩٤
قصر الصيف ٢٠٠
السور الأعظم ٢٠٢
اللغة الصينية ٢٠٩
إلى شنغهاى... ... ... ٢١٤
إلى هنج كنج ٢٢١

فهرس الخرائط والصور

	صفحة
خريطة الهند	٥
مستودع الماء فى عدن	٧
عربات الماء فى عدن	٩
مدخل عدن	١١
شارع رئيسى فى عدن	١٣
ميناء كولمبو	١٥
بين كولمبو وكاندى...	١٧
الفيلة تمرح فى الطريق	١٩
شجرة النرجيل	٢١
زراعة النرجيل	٢٣
شجر الموز	٢٥
قمة آدم	٢٧
بحيرة كاندى	٢٩
معبد السن المقدسة	٣١
عروس سنهالية	٣٣
زعيم برهمى	٣٥
متسولو البرهميين	٣٧
الزوج وزوجته	٣٨
المحراب الهندوسى	٣٩
البناء التذكارى فى كلكتا ...	٤٠
موضع الحجر الأسود	٤١

	صفحة
حرق الجثث فى كلكتا	٤٢
ذرى الهملايا	٤٣
شعوب الجبال	٤٤
مدرجات الكنج فى بنارس ...	٤٥
الاستحمام فى نهر الكنج ...	٤٦
محرق الجثث فى بنارس	٤٧
القردة المقدسة	٤٨
الديوان الخاص بدلهى	٤٩
مسجد اللؤلؤة «	٥٠
المسجد الجامع «	٥١
منار قطب «	٥٢
تاج محل باجرا	٥٣
تاج محل ليلا	٥٤
مقبرة اعتماد الدوله باجرا ...	٥٥
برج الياسمين «	٥٦
مسجد القلعة «	٥٧
محطة فكتوريا فى بمباى ...	٥٨
برج السكون « ...	٥٩
عبدة النار	٦٠
البقر المقدس	٦١
المنبوذون	٦٢

	صفحة
أمير هندى	٦٣
القردة فى القطار	٦٥
قبائل الفدا فى سيلان	٦٧
الفقراء الهنود...	٦٩
« «	٧١
الهندوس يتناولون الطعام ...	٧٢
مسجد سنغافورة	٧٥
جمع المطاط	٧٧
صخرة بنانج	٧٨
بيوت الملايو	٧٩
معبد الأفاعى	٨٠
خريطة اليابان...	٨٤
البحر الداخلى...	٨٥
حسناء يابانية	٨٦
زينة الشعر اليابانى	٨٧
الغرام بالزهور...	٨٨
مثـل من بيوتهم	٩١
الموسيقى اليابانية	٩٣
فقيرات اليابان	٩٥
سوق موتوماتشى	٩٦
ثغر يوكوهاما	٩٧
بودا فى نظراته الوديعة	٩٨
بودا فى كاما كورا	٩٩
المدخل الرئيسى بطوكيو ...	١٠١

	صفحة
الموسيقيات المتجولات	١٠٣
شارع جنزا	١٠٥
قصر الامبراطور	١٠٧
إلى معبـد اسا كوسا	١٠٩
التمثيل اليابانى	١١١
معبد ميجى	١١٣
محل متسوكوشى فى طوكيو ...	١١٥
معبد أيياسو	١١٦
معبد نـكو	١١٧
طرق نـكو	١١٨
مصابيح الورق فى النهر	١١٩
شجرة رأس السنة	١٢٠
عيد الفتيات	١٢١
عيـد الصبية	١٢٢
فوجى ياما	١٢٣
مراسيم الشاى المنزلى	١٢٥
حقول الشاى	١٢٦
متنزه مارو ياما فى كيوتو	١٢٧
الجسر السماوى	١٢٩
أكبر نواقيس اليابان	١٣١
الغزلان المقدسة	١٣٣
صخرة فوتامى أورا	١٣٥
الأطفال يصلون	١٣٧
قطار تحت الأرض فى أوزاكا	١٣٩

صفحة

سميرات اليابان ١٤١

جيشات اليابان ١٤٣

النوم على الشلت ١٤٥

قطف ورق التوت ١٤٧

فلاحات اليابان ١٤٩

تربيـة دود القز ١٥١

مصانع الحرير فى أوزاكا ... ١٥٣

التحية اليابانيـة ١٥٩

عروس فى زى الزفاف ١٦١

سيدة من الاينو ١٦٧

بوابة مياجيا المقدسة ١٦٩

بوابة سيول ١٧٠

قصر سيول ١٧١

معبـد شوزن فى سـيول ... ١٧٢

أزياء كوريا ١٧٣

حسـناء كورية ١٧٥

بوابة مكدن ١٧٧

سيدات منشوريا ١٧٩

خريطة الصين ١٨٠

المدينة المحرمة ١٨١

قناطر الصين المحدبة ١٨٣

النعش الصينى ١٨٥

معبد السماء ١٨٧

محكمة صينية قديمة ١٨٩

الركشا ١٩١

صفحة

صغر الأقدام للسيدات ١٩٣

الأقدام المشوهة ١٩٥

منتزه فى بكين ١٩٧

مرصد كوبلاخان ١٩٨

بوابة بكين ١٩٩

شرفات الحدائق ٢٠١

قصر الصيف... ... ... ٢٠٢

سفينة من رخام ٢٠٣

تمثال بودا ٢٠٤

سور الصين ٢٠٥

أزياء منغوليا ٢٠٦

سد يأجوج ومأجوج ٢٠٧

بوابات تين تسن ٢٠٨

أطفال الصين ٢٠٩

الـكتابة الصينية ٢١١

زعيم النهضة الصينية ٢١٣

سيدة من المانشو ٢١٥

مقصف الشاى فى شنغهاى ... ٢١٧

قصر حاكم شنغهاى ٢١٩

برج صينى ٢٢١

شنغهاى ليلا ٢٢٢

ميناء هنج كنج ٢٢٣

ميدان فكتوريا ٢٢٥

زوارق الصين ٢٢٧

الجولات المطبوعة للمؤلف

جولة فى ربوع أوروبا

بين مصر وايسلندة

عن طرائف المدنية الأوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

جولة فى ربوع آسيا

بين مصر واليابان

عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته (اليابان والصين والهند الخ)

جولة فى ربوع افريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح

عن عجائب القارة الغامضة وغابات جوفها وأسرار همجها وأخطار وحوشها

جولة فى ربوع الشرق الأدنى

بين مصر وأفغانستان

عن مميزات بلاد إيران والعراق والأفغان والأناضول والشام

جولة فى ربوع الدنيا الجديدة

بين مصر والأمريكتين

عن مدهشات الدنيا الجديدة ونفائس بلاد المغرب والأندلس